


كتابي

٢٢

الجزء الثالث

غرام سوان

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

حلمي مراد

البحث عن الزمن المفقود

غرام سوان

ترجمها عن الفرنسية : دكتور نظمى لوقا

الجزء الثالث

وسمع صوت البوابة وهى تغلق ، وصوت عربة ينبئ عن انصراف راكبها ، ولعله الشخص الذى تحتم ألا يقابله سوان ، بعد أن قيل له إن أوديت ليست بالدار ، ولما فكر فى أنه بمجرد حضوره فى ساعة لم يتعود الحضور فيها سبب ارتباكاً كثيراً لم تكن تريده أن يعلم به ، انتابه ثبوط فى همته لعله يوشك أن يكون أسى وكرباً. ولكن بما أنه يحب أوديت ، ومن عادته أن يحول أفكاره صوبها ، لذا حوّل رثاءه لنفسه إلى إشفاق عليها فحسب ، وغمغم :

— يا للعزيزة المسكينة !

وعندما غادرها أخيراً تناولت بضع رسائل كانت فوق المنضدة وطلبت إليه أن يتكرم بإلقائها فى البريد نيابة عنها . فاتجه إلى مكتب البريد ، وأخرج الخطابات من جيبه ، وقبل أن يسقط كل واحد منها فى الصندوق ، قرأ عنوان المرسل إليه . ووجدها كلها رسائل إلى بعض التجار ، ما عدا الأخيرة منها ، فقد كانت موجهة إلى فورشفيل ، فأبقاها فى يده قائلا :

— لو رأيت ما بداخلها لعرفت كيف تناديه ، وماذا تقول له ، وهل بينهما شيء حقاً . ولعلى إن لم أنظر إلى ما بداخلها أفلتت فرصة تبرئة ساحة أوديت ، وهى فرصة لا تتكرر ، وبذلك أسيء إليها باستمرار الشك على غير أساس جلى ، متى أسقطت هذه الرسالة فى الصندوق !

وغادر مكتب البريد وذهب إلى داره ، والخطاب الأخير فى جيبه ، وأشعل شمعة وقرّب الخطاب من شمعتها من غير أن يفتحه .

وفى البداية لم يستطع أن يقرأ شيئاً ، ولكن المظروف كان رقيقاً ، وبضغطه على البطاقة التى بداخله تسنى له أن يطالع من خلال المظروف السطر الختامى ، فإذا به فى حدود الرسميات . ولو كان فورشفيل هو الذى فى مكانه يقرأ رسالة من أوديت إلى سوان ، لقرأ عبارات ختام تفيض رقة وتحبباً ! وبفرح راح يحرك البطاقة داخل المظروف ليقرأ بقية المكتوب فيها . وبعد محاولات قرأ :

– كنت على صواب عندما فتحت الباب . فلم يكن الطارق سوى عمى ..

آه ! إذن كان فورشفيل هناك بالداخل عندما رن سوان الجرس . فقامت هى بإخراج فورشفيل من باب الخدم ، ولذا سمع سوان وقع أقدام . ثم قرأ بقية الخطاب ، فإذا هى فعلا تعتذر لفورشفيل عن هذا التصرف ، وتذكره بأنه نسى علبة سجائره عندها . تماماً مثلما كتبت لسوان بعد زيارته الأولى لها . ولكنها كتبت بتلك المناسبة تقول لسوان :

– لماذا لم تنس عندى قلبك أيضاً ؟ إذن ما كنت لأعيده إليك !

أما فورشفيل فلم تقل له شيئاً من هذا . ولم يجد أى إشارة لعلاقة آثمة بينهما . ثم إن هذا الخطاب يؤكد له أنها عاملت فورشفيل بأسوأ مما عاملته به ، فها هى تزعم له أن زائرها المجهول كان عمها ، مما يوحى بأن سوان هو الأهم لديها ، بدليل أنها « سربت » الآخر من أجله ! ومع هذا فالمسألة كلها تثير ارتيابه ، وتمد غيرته النهمة بزاد لا ينفد



وفى البداية لم يستطع أن يقرأ شيئا ، ولكن المظروف كان رقيقا ، وبضغطه على البطاقة التى بداخله تسنى له أن يطالع من خلال المظروف السطر الختامى ..

من القلق كلما فكر يومياً متسائلا عمن تستقبله أوديت فى الخامسة بعد الظهر ، ثم يحاول أن يعرف أين كان فورشفيل فى تلك الساعة . فسوان لم يزل كما كان فى بداية علاقته بها يجهل ما يشغل وقتها فى النهار ، ولم يزل فى حالة سبات ذهنى يمنعه من تكملة ما يجهله عن طريق الخيال .

وهو فى البداية لم يكن غيوراً من كل حياة أوديت الماضية والحاضرة . ولكن أحداثاً معينة أدت به إلى افتراض أن أوديت غررت به وخدعته . فكأن غيرته أخطبوط يستخدم ذراعاً واحدة أولا ، ثم يرمى بذراع ثانية ، ثم ثالثة ، فإذا بسوان مقيد مشدود إلى هذا الوقت المحدد ، الساعة الخامسة بعد الظهر ، ثم يأتى خاطر جديد فيشده إلى وقت ثان وثالث . ولكن غيرته لا تعيش على تخيلات ، بل تتغذى بأحداث يتذكرها فحسب ، أى بالعذاب الذى انصب عليه من الخارج لا من داخل ذهنه .

ومن الخارج كان كل شىء يصيبه بعذاب جديد . وقرر أن يفصل أوديت ويبعدها عن فورشفيل ، باصطحابها إلى الجنوب بضعة أيام . ولكنه تخيلها موضع اشتهاء كل ذكر فى الفندق ، وأنها تشتهى كل واحد منهم أيضاً ! وهكذا تحول سوان من شخص كان يتحرى فى أسفاره التعرف إلى أشخاص جدد ، وغشيان الأماكن المزدحمة ، إلى شخص يفر من المجتمع البشرى كأنما قد سبب له الناس أذى كبيراً . وكيف لا يغدو كارهاً للبشر وهو يرى فى كل رجل عشيقاً محتملا لأوديت ؟ وهكذا غيرت الغيرة سلوك سوان

أكثر مما غيره هواه المشبوب واشتهاؤه المتقد لها ، وكان هذا التغيير فى سماته الخارجية تاماً .

* * *

وبعد شهر من تجسس سوان على رسالة أوديت إلى فورشفيل ، ذهب سوان إلى العشاء الذى كان آل فرديران قد دعوا إليه فى الغابة . وعند انفراط عقد المدعوين لاحظ سوان تهامساً ومناقشات خفيضة الصوت بين مدام فرديران وعدد من ضيوفها ، وخيل إليه أنه سمعها تذكر عازف البيانو بالحضور فى اليوم التالى إلى حفلة فى « شاتو Chatou » ، فى حين أنه — أى سوان — لم يكن قد دعى إليها . وكان آل فرديران يتحدثان همساً ، وبعبارات غامضة ، ولكن الرسام — بغير تفكير — صاح بصوت عال :

— يجب ألا يكون هناك أى ضوء من أى نوع ، ولا بد أن يعزف سوناتة « ضوء القمر » كى نرى الأشياء فى نورها !

ولاحظت مدام فرديران أن سوان كان على مرمى السمع ولكنها لم تحرك ساكناً . وبدا اليأس على محيا أوديت فجأة ، وكأنها قررت ألا تناضل ضد مصاعب الحياة الساحقة . أما سوان فكان يتحرق شوقاً إلى لحظة انفضاض الجمع كى يختلى فى عربته بأوديت ويسألها إيضاحاً ، ويجعلها إما أن تعده بعدم الذهاب غداً إلى شاتو ، أو تحصل له على دعوة ، ولكى يتخلص من قلقه المعذب بين ذراعيها . وأخيراً استدعيت المركبات . وقالت مدام فرديران لسوان :

— مع السلامة . أتمنى أن نراك قريباً !

وابتسمت بمزيد من المودة كى تموه عليه أنها لم تقل كالعادة :

— إلى الغد فى شاتو ، ثم فى بيتى بعد غد !

ودعا آل فرديران فورشفيل للركوب فى مركبتهما ، وكانت مركبة سوان خلفها ، ولذا انتظر إلى ما بعد قيام مركبتهما لكى يساعد أوديت على الصعود إلى مركبته ، ولكن مدام فرديران قالت بسرعة :

— سنأخذك معنا يا أوديت ، فقد حجزنا ركناً صغيراً لك خصيصاً بجوار المسيو دى فورشفيل !

فقالت أوديت بإذعان :

— نعم يا مدام فرديران .

فصاح سوان معترضاً ، ملقياً بكل تحفظ أدراج الرياح ، لأن الوقت كان أثمن من إضاعته فى التكتم ، وليس فى استطاعته وهو فى هذه الحالة أن يذهب لداره بدونها :

— ولكن مدام فرديران دعتنى ...

وقالت مدام فرديران بحزم :

— فى استطاعتك أن تذهب إلى بيتك وحدك . وكم من مرة تركناك هكذا من قبل !

— ولكن الليلة عندى شىء هام أقوله لمدام دى كريسى .

— فليكن ! فى وسعك أن تكتبه فى رسالة إليها ...

وقالت له أوديت وهى تمد له يدها :

— إلى اللقاء إذن ...

وبذل جهده كى يبتسم ، ولكنه لم يفلح إلا فى أن يبدو تعساً ...

وسألت مدام فرديران زوجها عندما عادا إلى بيتهما :

— ما رأيك فى هذا المسلك من جانب سوان بإزائنا ؟ خفت أن يأكلنى لمجرد أننا عرضنا على أوديت أن نوصلها . ما أسوأ هذا حقاً . لماذا لا يقول صراحة : إن بيتنا سيئ السمعة ؟ ولا أتصور كيف تتحمل أوديت هذا السلوك ، فهو كأنما يصيح دائماً على رءوس الأشهاد « أنت ملكى ! » وسأقول لأوديت صراحة ما هو رأيى فى هذا كله . وأتمنى أن يكون لديها من العقل ما يمكنها من حسن فهمى .

وبعد برهة أردفت بغضب شديد :

— أليس مخلوقاً قذراً ...؟

وهكذا استخدمت بلا وعى وبنفس السرور بتبريرها لتصرفها نفس تعبير فرنسواز طباختنا فى كمبراى عندما رفضت الدجاجة أن تذبح ، تعليقاً على استماتة الطائر البرىء المسكين وهو فى سكرات الموت فى التخلص من يد الريفية التى تذبحه .

ولما انطلقت عربة مدام فرديران ، وحلت مركبة سوان محلها ، لمح حوذيه وجهه وسأله أهو متوعك ، أم سمع أنباء سيئة ... فصرفه سوان مفضلا السير على قدميه ، مخترقاً الغابة إلى بيته . وراح يحدث نفسه بصوت مسموع . وإذا بحجرة استقبال آل فرديران التى كانت منذ ساعة واحدة فقط تبدو له لطيفة توحى بشعور صادق من حب الفن ، بل ومن الرقى الخلقى وقد غدت — لأن أوديت تقابل فيها رجلا آخر — آية فى السخف والعبث والغباء والعار !

وراح يتخيل صورة حفلة الأمسية التالية فى « شاتو » :

ـ أيذهبون إلى شاتو بالذات من دون سائر الأماكن ! كأنهم حفنة من باعة الأقمشة بعد إغلاق حوانيتهم ! ما أشد اعتداد هؤلاء الناس بأنفسهم ! لكأنهم ليسوا أشخاصاً حقيقيين ! ولا بد أنهم شخصيات فى إحدى مسرحيات لابيش Labiche ... إن كوتار وزوجته سيكونان هناك . وربما أيضاً بريشو . وهل يمكن تصور ما هو أعجب من هذه المخلوقات الهزيلة التى يتشبث بعضها بالبعض الآخر على هذه الصورة ؟ وسيشعرون بالضياع إن لم يلتئم شملهم غداً فى شاتو ! وسيكون هناك الرسام أيضاً ، الذى يهوى تجميع رأسين . وسيدعو فورشفيل وأوديت لزيارة مرسمه . ولا شك أن أوديت ستكون غداً فى ثوب لا يصلح لفرط أناقته لحفلة ريفية . فهى سوقية من جميع النواحى ، وبلهاء !

وتخيل النكت التى ستلقيها مدام فرديران بعد العشاء . وهى نكت كانت تروقه لأنه كان بوسعه أن يرى أوديت تضحك منها ، وضحكها يكاد يكون توأم ضحكه شخصياً . أما الآن فربما كانت هذه النكت على حسابه ، ومع هذا ستضحك منها أوديت ! فيا لهذه الفكاهات من علامة على مزاج منتن ! وتمعج فمه متقززاً بكل عنف ، حتى لقد أحس بعضلات حلقه تحتك متصلبة بياقة قميصه ، وهو يتصور ضحك أوديت من النكت التى تسخر منه ، متناسية حبه لها وإعزازه ، حتى لكأنها بهذا تتمرغ فى حمأة من طين من المستحيل إنقاذها منها . وصاح :

ـ إنى بلا شك أعيش فى مستوى فوق هذه الحمأة ، فلا يمكن أن يصيبنى رشاش سخريتها العفنة ! والله يعلم كم حاولت مخلصاً أن أخرج أوديت من هذا « المجرور » ، وأعلمها كيف تتنفس هواء أنبل من هذا وأنقى . ولكن للصبر الآدمى حدوداً ، وها قد نفد صبرى !

وتخيل عازف البيانو جالساً يعزف سوناتة « ضوء القمر » ، وتمعجات وجه مدام فرديران وهى تتوقع انهيار أعصابها بتأثير موسيقى بتهوفن Beethoven ، وصاح :

ـ البلهاء ! الكذابة ! أمثل هذه المخلوقة تزعم أنها مولعة بالفن ؟ إنها ستقول لأوديت ما سبق أن قالته لأجلى ، ولكن لأجل فورشفيل هذه المرة « أفسحى له مكاناً بجوارك يا أوديت » مكاناً فى الظلام . يا لها من قوّادة !

وكان استخدامها للموسيقى أيضاً « قوادة » فى نظر سوان ، عندما تدعو الجميع للجلوس فى صمت ، لكى ينظر كل رجل وامرأة فى عين الآخر ، ويتحسس يديه . ويا له من موقف شائن من الفن شبيه بموقف أفلاطون ، وبوسييه Bossuet ومدرسة التربية القديمة فى فرنسا .

وقصارى القول أن الحياة فى بيت آل فرديران ، التى كثيراً ما وصفها آنفاً بأنها « أصيلة » ، صارت تبدو له الآن أسوأ صورة ممكنة للحياة . و « خليتهما الصغيرة » تبدو له الآن أسوأ وأحط فئة فى المجتمع » فهى حقاً دون أحط درجات السلم الاجتماعى . فهى أخس

ما رآه دانتى ! ولا شك أن كلمات الشاعر الفلورنسى تنطبق على آل فرديران ! وأهل المجتمع الراقى محقون تماماً وفى منتهى الحصافة إذ يأبون أن يعرفوهما ، أو حتى أن يدنسوا أطراف أناملهم بلمسهما . حقاً ما أصوب فراسة حى سان جرمان ! » .

وكان منذ وقت طويل قد تجاوز دروب الغابة ، وكاد يصل إلى بيته . ولكن لأنه لم يكن قد تخلص بعد من سكرة الحزن ، وازداد انقياده لجرس صوته ، واصل مناجاة نفسه بصوت مرتفع فى سكون الليل :

ــ إن لأهل المجتمع الراقى عيوبهم ، ولا أحد يعرف هذا كما أعرفه أنا ، ولكنهم بعد كل شىء يستحيل على الأقل أن يرتكبوا أموراً معينة . ففلانة مثلا (وهى سيدة أنيقة عرفها فيما مضى) كانت بعيدة عن مستوى الكمال ، ولكن المرء كان يجد فيها رهافة الجوهر ، وولاء فى سلوكها يعصمها ــ مهما حدث ــ من الغش والغدر ، وذلك وحده فارق ضخم بينها وبين حيزبون مثل مدام فرديران . فرديران ! يا له من اسم ! إن هذين الزوجين أكمل نموذج ، وأكمل عينتين لطبقتهما المقززة . الحمد لله إذن ، فقد آن لى أن أكف عن الانغماس البهيمى فى مثل هذا الخزى والروث !

ولكن لا أخلاقية آل فرديران التى صار يجدها الآن فيهما ما كانت لتؤثر فيه لولا أنهما دعوا أوديت مع فورشفيل من دونه ، ولا شك أن صوته وهو يكيل لهما النعوت الشائنة ويعرب عن فرحه بالتخلص من مخالطتهما كان صوتاً مصطنعاً ، كأنما استخدمه خصيصاً للتخفف

من غضبه لا للتعبير عن أفكاره . فهذه الأفكار كانت ــ فى الوقت الذى استرسل فيه فى مطاعنه وتنديده ــ كانت تسير فى اتجاه آخر تماماً ومنشغلة بأمر آخر بالكلية . فما كاد يصل إلى بيته ، وبمجرد أن أغلق الباب الأمامى وراءه ، حتى ضرب جبهته بيده ، وجعل خادمه يفتح الباب مرة أخرى ، واندفع خارجاً إلى الشارع وهو يصيح بصوت كان فى هذه المرة صوته الطبيعى :

ــ أعتقد أننى وجدت وسيلة لدعوتى إلى العشاء غداً فى شاتو !

ولكن لا بد أن هذه الوسيلة لم تكن جيدة ، لأنه لم يدع . فالدكتور كوتار الذى كان قد استدعى لعلاج حالة خطرة فى الريف لم يكن قد رأى آل فرديران منذ بضعة أيام ، ولذا لم يتمكن من حضور العشاء فى « شاتو » ، وفى الليلة التالية لذلك العشاء قال وهو يجلس إلى المائدة فى بيتهما :

ــ ألن نرى المسيو سوان الليلة ؟ إنه ما يمكن تسميته صديقاً شخصياً ..

فصاحت مدام فرديران :

ــ أعتقد بإخلاص أننا لن نراه الليلة . حفظنا الله منه ، فهو غبى وسيىء التربية !

فلما سمع كوتار هذه الكلمات أبدى دهشة بالغة ، مغلفة بالإذعان التام ، كأنما ووجه بحقيقة علمية تناقض كل ما كان يعتقده من قبل ، ولكنها حقيقة على جدتها مدعمة بالأسانيد التى لا تدحض ، وأحنى رأسه فوق طبقه فى وجل وقال :

– أوه . أوه . أوه . أوه . أوه !

فى طبقات متصاعدة على امتداد السلم الموسيقى . وبعد ذلك لم يجر أى ذكر لمسيو سوان فى بيت آل فرديران .

* * *

وهكذا أضحى هذا الصالون الذى جمع بين أوديت وسوان عقبة فى سبيل لقائهما . ولم تعد تقول له ، كما كانت تقول فى الأيام الأولى لحبهما :

– سنتقابل على كل حال مساء غد . فآل فرديران يقيمان ببيتهما حفل عشاء متأخر .

أو إذا كان آل فرديران سيأخذانها إلى « الأوبرا كوميك» لترى « ليلة من ليالى كليوباترة » ، وقرأ سوان فى عينيها فزعها من أن يطلب منها عدم الذهاب معهما ، وعندئذ يكافئها بقبلة ويدعها تذهب. أما الآن فمثل هذه المناسبة تثير حنقه ، ولكنه يقول لنفسه :

– لست غاضباً حقاً لأننى ألاحظ شدة لهفتها على التمرغ فى روث هذا النشاز ! كل ما أشعر به هو خيبة الأمل والرثاء ، لا لنفسى بل لها . الأسف لأنها بعد ستة أشهر من الاتصال اليومى بشخصى ، لم تتمكن من تحسين مستواها الذهنى ولو إلى حد اقتلاع تذوقها لموسيقى فكتور ماسيه Victor Massé ! ولا إلى حد إدراك أن هناك أمسيات تضحى فيها أى امرأة على شىء ولو يسير من الرهافة ورقة الشعور بسهرة لهو عندما يطلب منها حبيبها ذلك . كان ينبغى أن يكون لديها صدق الحس بحيث تقول « سوف لا أذهب ! » ولو على

سبيل حسن السياسة . ويقنع نفسه بأنه ، بعد كل شىء ، إنما رغب فى بقائها معه فى البيت تلك الليلة بدلا من الذهاب إلى « الأوبرا كوميك » ، بقصد زيادة تقديره لمزايا أوديت الذهنية . لذا كان يستخدم طريقة توريطها فى احترام نفسها فى سائر رغباته الأخرى . وقال لها قبل انصرافها للذهاب إلى المسرح بوقت قصير :

– أقسم لك إننى لو كنت أنانياً لتمنيت أن ترفضى رجائى لك بعدم الذهاب ، لأن لدى الليلة ألف شىء يشغلنى . ولكن مشاغلى وملذاتى ليست كل شىء فأنا أفكر فيك أنت أيضاً ، لأنى أخشى أن تحين لحظة أدينك فيها وأنفصل عنك ، وعندئذ تلوميننى ، لأنى لم أنذرك باتجاهاتى سلفاً . فحضورك « ليلة كليوباترة » – ويا له من عنوان – لا أهمية له . بل المهم وحده أن أعرف هل أنت مخلوقة من النوع المنحط ذهنياً الذى يعجز عن إغفال لذة ما . لأنك إن كنت هكذا ، فكيف يمكن لأى أحد أن يحبك . إذ لا تكونين فى هذه الحالة شخصاً ، بل كتلة من الماء لا شكل لها ، تتسرب من أى صدع يمكن أن تجده فى طريقها ، أو تنحدر من أى منحدر يصادفها . أو تكونين سمكة لا ذاكرة لها ، ولا تفكير ، تظل وهى حبيسة فى حوض الماء الزجاجى ترتطم مائة مرة فى اليوم بجدار الحوض وهى تحسبه ماء فى كل مرة ، من غير أن تعى الدرس أو تتعلم من خطئها . ألا تدركين أن مثل موقفك هذه الليلة قد لا يجعلنى أقلع تماماً عن حبك فوراً ، ولكنه يجعلك فى نظرى ولا شك أقل جاذبية ، لأنى عرفت أنك لست شخصاً ، بل فى درك أحط من أى شىء فى العالم ،

لافتقارك إلى ذكاء ترتفعين به قيد أنملة عن مستواك . وطبعاً كان من الممكن أن أدعك تذهبين إلى « ليلة كليوباتراك » (ما دمت ترغميننى على تلويث شفتى بمثل هذا الاسم) ما دمت أعرف أنك ستصرين على الذهاب . ولكنى ما دمت قد عزمت على وضعك فى الميزان، بحيث يترتب شىء ذو بال على إجابتك، فقد رأيت الشرف يقتضينى أن أنذرك وأجعلك على بينة !

وفى هذه الأثناء بدت على أوديت علائم انفعال متزايد وعدم تيقن . ومع أن معانى توبيخه المطول كانت تفوق إدراكها ، إلا أنها أحست أنها تندرج تحت مشاهد العتاب والتوسل ، وهى مشاهد أتاحت لها خبرتها بأحوال الرجال أن تعرف ــ من غير أن تلقى بالها إلى الألفاظ ــ أن الرجال لا يتفوهون بها إلا إذا كانوا متيمين بها عشقاً. وعلمتها الخبرة أنه متى وقع الرجل فى الحب فلا أهمية لإطاعتها إياه، لأن العصيان لن يزيده إلا هياماً بها وعشقاً لها . ولذا كانت خليقة أن تسمع سوان إلى النهاية بكل هدوء لولا أنها لاحظت أن الوقت تأخر ، وأنه لو استمر فى الكلام هكذا فلن تستطيع ــ هكذا قالت له بابتسامة هيام وعناد متدلل ــ أن « تصل إلى هناك لسماع الافتتاحية».

وفى مناسبات أخرى أكد لنفسه أن الشىء الوحيد الذى سيحمله أكثر من سواه على الإقلاع عن حبها هو رفضها للتخلى عن عادة الكذب . وقال لها :

ــ ألا تدركين ، حتى من ناحية مصلحتك الخاصة المجردة ، أن الكثير من فتنتك يضيع سدى عندما تكذبين ؟ وكم من خطأ

تكفرين عنه بالاعتراف الصريح به ! إنك فعلا أقل ذكاء بكثير مما كنت أظن !

ولكن عبثاً شرح لها سوان بإسهاب كل الأسباب التى تدعوها لعدم الكذب . ولكن أوديت كانت تكتفى ، عندما تريد لسوان أن يظل جاهلا أى شىء كانت قد صنعته ، ألا تخبره به . ولذا لم تكن تلجأ للكذب إلا فى أحوال خاصة ، ولاسيما حين تخشى أن يكتشف أنها أخفت عنه شيئاً ولم تخبره بالحقيقة .

وكانت من الناحية البدنية تمر بمرحلة سيئة الطالع ، لأنها كانت تتجه نحو مزيد من الامتلاء : وبدأ سحرها الخاص الذى كان لها من قبل يتلاشى مع زوال شبابها الباكر ، بحيث غدت أغلى ما تكون قيمة لدى سوان العاشق فى نفس الوقت الذى وجدها فيه أقل حسناً وجمالا . وربما ظل يحدق فيها ساعات متوالية ، محاولا استعادة الفتنة التى كان قد رآها فيها ذات يوم ، ولم يعد قادراً على العثور عليها مرة أخرى . ومع هذا فأوديت لم تزل أوديت ، بمزاجها المتقلب الماكر المراوغ ، وكان هذا كافياً كى يظل سوان مكبلا بهواها كما كان ، حريصاً على استهوائها والاستحواذ عليها . وينثنى إلى صور فوتوغرافية لها ، التقطت لها منذ سنوات ، لكى يتذكر كم كانت شهية . ويعزيه هذا قليلا ، عن كل الآلام وألوان العذاب التى تحملها طواعية بسببها :

وعندما كان آل فرديران يأخذانها فى رحلة إلى سان جرمان ، أو شاتو ، أو إلى ميلان Meulan ، فكثيراً ما يقترحون ــ إن كان



وكانت من الناحية البدنية تمر بمرحلة سيئة الطالع ، لأنها كانت تتجه نحو مزيد من الامتلاء ..

الجو بديعاً – قضاء الليل هناك وعدم العودة للبيت إلا فى اليوم التالى . وتجتهد مدام فرديران فى تهدئة قلق عازف البيانو الذى بقيت عمته فى باريس ، وتقول له :

— تأكد أنها ستسر كثيراً بالخلاص منك لمدة يوم ، وكيف بالله يمكن أن تقلق عليك وهى تعلم أنك معنا ؟ أنا على كل حال سأتحمل عنك كل اللوم أمامها !

وإذا فشلت هذه المحاولة ، انطلق المسيو فرديران فى طول الريف وعرضه إلى أن يجد مكتب برق أو أى نوع من الرسل ، لتبليغ أى أحد يهم بعض « الخلصاء » تبليغه . ولكن أوديت تشكره وتؤكد له أنها لا تريد إرسال أى إخطار إلى أحد ، لأنها قالت لسوان ذات مرة وبصورة حاسمة إنه ليس بوسعها إرسال إخطارات له فى مثل هذا الظرف ، على ملأ من الجميع ، من غير أن تحرج نفسها . وكان غيابها أحياناً يطول عدة أيام متتالية ، كما حدث عندما أخذها آل فرديران لترى مقابر « درى » Dreux أو إلى كومبيينى Compiégne بناء على اقتراح الرسام ، كى يروا غروب الشمس من بين أشجار الغابة ، ثم يذهبون إلى قلعة بيير فون Pierrefonds .

— كان فى وسعها أن تزور الأبنية التاريخية حقاً معى ، أنا الذى قضيت عشر سنين فى دراسة العمارة ، ويلح على ذوو المكانة أن آخذهم إلى « بوفيه » Beauvais أو « سان لودى نو » Saint ، Loup - de - Naud ، فأرفض أن آخذ أحداً سواها ، ولكنها بدلا من هذا تذهب مع أخس الأخساء ، لكى تمر بالأبنية التافهة للوى

فيليب Louis - Philippe وفيوليه لى ديك Violet - le-Duc ! فمثل هذه الزيارات لا تحتاج إلى معرفة كبيرة بالفن . وفى يقينى أنه حتى الذى ليست له حاسة شم مرهفة جداً لا يمكن أن يختار عمداً قضاء عطلة فى المراحيض ، كى يعرف نوع رائحتها النفاذة !

ولكن عندما كانت تذهب إلى « درى » أو « بييرفون » ، لم تكن تسمح له بأى حال أن يذهب بوسائله الخاصة إلى هناك، لكى يروى تعطشه إلى رؤيتها بالمصادفة وهو يستمتع بجولة فى الجو البديع بتلك الربوع . وفى الوقت نفسه يشتد شوقه إلى تلك البقعة بالذات فى هذا اليوم بالذات . ويدرس جداول القطارات بعناية ، وخرائط الدروب . وكان فى وسع أى شخص سواه أن يذهب حيث شاء كما يشاء . أما هو فلا ! لأنه يعرف أوديت ، ولأن أوديت حرمت عليه قضاء يومه فى البقعة التى تستهويه . ولو ذهب اليوم مثلا إلى جولة فى غابة كمبينى متحدياً الحظر الذى فرضته عليه ، لتمكن من رؤيتها هناك تحت ستار المصادفة . وفى حين أنها لو قابلت فى نزهتها شخصاً لا أهمية له عندها ، لرحبت بلقائه بكل سرور ، صائحة :

— أأنت هنا ؟ تعال لزيارتى فى الفندق الذى أنزل به مع آل فرديران !

أما إن التقت هناك بسوان ، فما أشد ما تبديه من الضيق ، وما أحر شكواها من أنه يتعقبها . ويترتب على هذا أن يقل حبها له ، بل قد تشيح عنه إن لمحته ! وبعد العودة إلى باريس تؤنبه قائلة :

— أليس مسموحاً لى إذن أن أغيب عن نظرك يوماً واحداً فى أى مكان ؟

بينما المحظور عليه أن يذهب إلى « أى مكان » ، هو سوان !

وخطرت له فكرة فجائية ، لكى يدبر زيارة لكمبينى وبييرفون من غير أن يبدو للعيان أن هدفه لقاء أوديت. ومؤدى هذه الفكرة أن يحصل على دعوة من أحد أصدقائه ، وهو المركيز دى فورستيل Forestelle ، الذى يملك بيتاً ريفياً فى هذه الجهة . ولما اقترح هذه الفكرة على صديقه من غير أن يطلعه على غرضه الحقيقى كاد يطير من شدة الفرح ، ولم يخف عنه دهشته لموافقة سوان — بعد خمس عشرة سنة — على التوجه لزيارته فى ضيعته ، ووعد أن يمضى معه هناك بضعة أيام على الأقل ليصحبه فى الطواف بتلك الأرجاء الجميلة . وتخيل سوان نفسه هناك فعلا مع المسيو دى فورستيل . وحتى قبل أن يرى أوديت ، بل وحتى لو لم ينجح فى رؤيتها هناك ، فما أعظم فرحته أن تطأ قدماه ذلك الثرى الذى تطؤه أوديت، ولو بعيداً عن عينيه ، وسيشعره طول الوقت وهو يتلفت حوله بنشوة التوقع ، فربما ظهرت له فجأة عند أى منعطف فى تلك الدروب . أو فى فناء القلعة التى صارت تبدو له الآن جميلة — على خلاف رأيه السابق فيها — لأن أوديت تزورها ، ولأنه يزورها الآن من أجلها . أو قد يراها فى بعض شوارع البلدة التى — بفضل سحر أوديت — ستبدو له رومانتيكية . وما أكثر المواضع والمناظر التى يتخيل أنه سيراها فيها ،

ومن بينها منظر غروب الشمس فى الغابة . ومع هذا يقول لصديقه مسيو دى فورستيل محذراً :

ـ ولكن يجب ألا نلتقى بأى حال بأوديت وآل فرديران ، فقد بلغنى أنهم اليوم فى بييرفون بالذات . فأمامى متسع كاف من الوقت لرؤيتهم فى باريس . ولا معنى لمشقة الرحلة إذا كان المرء لا يستطيع أن يمشى متراً من غير أن يقابلهم بالذات !

ولن يستطيع صديقه ومضيفه أن يفهم لماذا ـ عندما بلغا المكان ـ راح سوان يغير خططه عشرين مرة فى الساعة ، ويتفقد بدقة قاعات الطعام فى كل فنادق كمبيينى من غير أن يستقر رأيه على الاستقرار فى إحداها ، مع أنه لم يجد أى أثر فى أى مكان لآل فرديران . فكأنه فى الحقيقة يبحث بإصرار عما زعم أنه أحرص ما يكون على تحاشيه . ولو وجد ما يبحث عنه لأسرع بتجنبه . فلو وقع بصره عن بعد على « المجموعة الصغيرة » لأسرع بالابتعاد فى عدم مبالاة مقصود .. مكتفياً بأنه لمح أوديت ، وأنها لمحته ، ولاسيما أنها رأته وهو ـ فى الظاهر ـ لم يكن يفكر فيها . ولكن لا ! فهى ستفطن على الفور إلى أنه لم يحضر إلى هنا إلا خصيصاً من أجلها .. !

كل هذا خطر بباله وتخيله قبل القيام برحلته ، وبمجرد الاتفاق عليها مع صديقه . ولكن عندما جاء مسيو دى فورستيل ليأخذه إلى ضيعته ، وقد أزف وقت الرحيل اعتذر قائلا :

ـ لا . أحسبنى لن أستطيع الذهاب إلى « بييرفون » اليوم : فأوديت هناك !

وكان سوان سعيداً برغم كل شىء لشعوره بأنه من دون سائر خلق الله من البشر ليس له حق الذهاب هذا اليوم إلى بييرفون ، ذلك أنه كان فى الواقع بالنسبة لأوديت شخصاً مختلفاً عن سائر الناس : إنه عشيقها . ولأن هذا الحظر المفروض على ما هو من حق سائر الناس فى حرية السفر حيث شاءوا إنما هو شكل من أشكال هذه العبودية الخاصة به ، وذلك الحب العزيز عليه جداً . فخير له ألف مرة ألا يجازف بمشاحنة معها ، وأن يكون صبوراً ، وينتظر عودتها بتعقل .

ولكنه قضى أيامه فى تفحص خريطة لغابة كمبيينى ، وأحاط نفسه بصور فوتوغرافية لقلعة بييرفون . ولما بزغ فجر اليوم الذى يحتمل فيه أن تعود ، فتح جدول مواعيد القطارات مرة أخرى ، وراح يحسب أى القطارات لا بد ستستقله ، وإذا فرضنا أنها أجلت سفرها به ، فما هى القطارات الأخرى التى بقى أمامها أن تركبها . ولم يغادر البيت ، خشية ألا يكون موجوداً إن جاءت برقية منها . ولم يأو إلى فراشه ، فقد تصل بآخر قطار وتقرر أن تفاجئه بزيارة فى منتصف الليل !

أجل ! ها هو جرس الباب قد رن . وبدا له أن هناك بطءاً فى فتح الباب . وأراد أن يوقظ البواب . وأطل من النافذة ليصبح منادياً أوديت ، إن كانت هى أوديت ، فبرغم الأوامر التى نزل السلالم عشر مرات ليلقيها بنفسه ، كان من الممكن أن يقولوا لها إنه ليس بالبيت . ولكن الطارق كان أحد الخدم قادماً من الخارج . وراح

يرقب قعقعة عجلات العربات التى لا ينقطع سيلها ، ولم يكن قبل ذلك يلقى إليها بالا . أما الآن فهو يسمع صوت مرور كل منهـا ، وهى قادمة من بعيد جداً ، ثم تقترب ، ولكنها لا تقف ببابه .

وظل ينتظر طول الليل ، بغير طائل ، لأن جماعة آل فرديران كانوا قد عادوا على غير ما توقع ، وكانت أوديت فى باريس منذ منتصف النهار . ولم يخطر لها أن تخبره . ولما لم تدر ماذا تصنع بوقتها ، قضت الأمسية وحدها فى أحد المسارح ، ثم ذهبت منذ وقت طويل إلى بيتها وأوت إلى فراشها ، ونامت نوماً هادئاً ...

* * *

وحقيقة الحال أنها لم تفكر فيه . وكانت مثل هذه الأوقات التى تنسى فيها مجرد وجود سوان ، أوقاتاً بالغة القيمة لدى أوديت ، وكانت أيضاً تزيد ارتباطه بها أكثر من كل خياناتها . لأن سوان كان يظل بهذه الوسيلة فى حالة اضطراب مؤلم ، سبق أن سببت ازدهار اهتمامه بها إلى أن صار حباً ، فى تلك الليلة التى لم يجد فيها أوديت لدى آل فرديران فراح ينقب عنها طول الأمسية : ولم تمر بسوان (كما كان لى بعد ذلك على عهد طفولتى فى كمبراى) أيام سعيدة ينسى فيها العذاب الذى يعاوده مع حلول الليل : فلا بد لسوان من قضاء أيامه بدون أوديت ، وكثيراً ما قال لنفسه إن ترك امرأة بهذه الملاحة تخرج وحدها فى باريس تهوّر شبيه بترك صندوق ملآن بالمجوهرات فى وسط الشارع . فإذا ما انتابه هذا الهاجس قطب جبينه وعبس غاضباً فى وجوه الناس المارين من حوله ، وكأنهم جماعة من النشالين .

ولكن وجوههم ـ وكأنها كتلة لا شكل لها ـ كانت تفوت إدراك مخيلته ، ولذا لم تكن لتغذى شعلة غيرته . ويضنى هذا الجهد ذهن سوان ، إلى أن يمر بيده فوق عينيه ويصيح :

ـ كان الله فى عونى !

مثلما يقول الناس الذين يعييهم التفكير فى حل لمشكلة واقعية العالم الخارجى ، أو مشكلة خلود النفس ، ثم يريحون عقولهم المكدودة بالارتماء فى أحضان الإيمان الأعمى بلا تفكير . إلا أن التفكير فى عشيقته الغائبة كان يخالط ويشوب أبسط أعمال حياة سوان اليومية : حين يتناول طعامه ، أو يفض رسائله ؛ أو يخرج للنزهة سيراً على الأقدام ، أو حين يأوى إلى فراشه ، شاعراً طول الوقت بالأسف والأسى لأنه يقوم بهذه الأعمال العادية جداً بدونها ... وفى بعض الأيام ، بدلا من البقاء فى البيت كان يذهب لتناول الغداء فى مطعم غير بعيد ، كان قد انجذب إليه قبل ذلك بمدة من الزمن لجودة طهيه ، إلا أنه يذهب إليه الآن لسبب « رومانسى » ، وهو أن اسم هذا المطعم هو اسم نفس الشارع الذى تقيم به أوديت (وهو بهذه المناسبة لم يزل قائماً) .

وفى بعض الأحيان ، عندما تكون أوديت مسافرة فى زيارة قصيرة لمكان ما ، قد تمر عدة أيام قبل أن تفكر فى إعلامه بعودتها إلى باريس . وعندئذ تقول له بكل بساطة ، من غير أن تحتاط بتغطية نفسها ، بأى ثمن ، بشذرة من الحقيقة كى تسبك أكذوبتها : إنها وصلت لتوها بقطار الصباح ! وهنا تكذب ، على الأقل بالنسبة

لأوديت ، من غير أن تكلف نفسها عناء التصور الذهنى لما كانت تفعله فى اللحظة التى زعمت أنها غادرت فيها القطار ... ولكن هذه الكلمات لم تكن تصادف فى ذهن سوان أى معارضة ، ولذا تستقر وتكتسب صلابة الصدق الذى لا مراء فيه ، بحيث لو أن صديقاً قال له إنه جاء إلى باريس بنفس هذا القطار المزعوم ولم ير أوديت ، لآمن سوان بأن صديقه هو الذى ارتكب خطأ فى تحديد اليوم أو الساعة ، ما دامت روايته لا تتفق مع ما قالته له أوديت . فهذه الكلمات لم تبد قط له كاذبة إلا عندما كان نهباً للشك قبل اتصالها به ، لذا كان يتوقع أن تكذب عليه وتخدعه ، لأنه عندئذ كان يتصورها خائنة . أما متى رآها ، فالأمر مختلف تماماً . فهو لا يمكن أن يصدق أنها تكذب من غير هذا الشك والقلق أثناء انقطاعها عنه . فإنه فى هذه الحالة يتخيل كل ما يمكن أن تقوله أوديت مريباً . فإن ذكرت اسم رجل ، فهو لا شك إذن عشيق لها . وقد يظل نهب هذه الشكوك أسابيع .

وقد حدث ذات مرة أن القلق والشك استوليا عليه ، حتى كلف « مكتباً للتحريات » أن يتقصى عنوان ومهنة المنافس المجهول الذى لن يهدأ باله إلى أن يتأكد مثلا أنه مسافر منذ مدة خارج البلاد . ثم علم فى النهاية أنه خال لها ، وأنه مات منذ عشرين سنة !

ومع أنها ما كانت لتسمح له ، عادة ، أن يقابلها فى مجتمعات عامة ، قائلة له إن الناس خليقون أن يلغطوا ، إلا أنه كان يحدث أحياناً حين يدعى هو كما تدعى هى إلى حفلة ساهرة فى بيت

فورشفيل ، أو عند الرسام ، أو فى حفل راقص خيرى أقيم فى إحدى الوزارات ، أن يجد نفسه وقد اجتمع معها فى حجرة واحدة . فيكون فى وسعه أن يراها ؛ ولكنه لا يجسر أن يظل فى نفس الحجرة خشية أن يضايقها إذ تظن أنه يتجسس على المسرات والملذات التى تتذوقها فى صحبة غيره . وهى مسرات كانت — وهو مستقل عربته وحيداً ليذهب إلى فراشه — تبدو له غير محدودة لأنه لم يتح له أن يشهد ختامها بنفسه ، تماماً كما كان حالى من الغم والقلق عندما كنت وأنا صغير آوى إلى فراشى حين يكون هو مدعواً للعشاء فى بيتنا بكمبراى .

ومرة أو مرتين استمد من السهرة ما يمكن أن نسميه ضرباً من السعادة التى يمكن أن تكون هادئة ومهدئة للنفس لولا أن جذورها ضاربة فى رد الفعل العنيف لقلق انتهى نهاية مفاجئة . ففى ذات مرة مثلا حضر حفلة فى مرسم الرسام ، وتأهب للعودة إلى بيته ، تاركاً وراءه أوديت وقد تحولت إلى امرأة غريبة متألقة أحدق بها رجال توزع عليهم نظراتها ومرحها من دونه ، وكأنها توحى بشهوات يمكن أن تمارس هناك أو فى مكان آخر (وربما كان هذا فى المرقص الذى كان يرتجف من تفكيره فى احتمال ذهابها إليه بعد ذلك) مما أثار غيرة سوان الشديدة ، لأن ما يحدث هناك من الصعب تخيله . وهم بفتح الباب لينصرف وإذا به يسمع صوتها تستوقفه قائلة وهو يوشك أن يجتاز العتبة :

ـ ألا يمكنك أن تنتظرنى لحظة ؟ فأنا مزمعة أن أنصرف ، فنركب معاً ، ويمكنك أن تنزلنى فى الطريق عند بيتى .

أجل إن فورشفيل فى إحدى هذه المرات طلب فى الوقت نفسه إليه أن يوصله إلى بيته ، ولكن عندما وصلت العربة إلى باب بيت أوديت ، وطلب فورشفيل منها الإذن بالدخول أيضاً ، أجابت مشيرة بأصبعها إلى سوان :

ـ آه ! هذه مسألة تتوقف على رأى هذا السيد . فلابد لك أن تستأذنه . وهو كذلك . فى وسعك أن تدخل ، دقيقة واحدة فقط ، ما دمت مصراً ، ولكن يجب ألا تبقى طويلا ، لأنه يحب أن يجلس ويتحدث معى على سجيته ، وهو لا يسر على الإطلاق بوجود زوار عندى حين يكون معى . آه ! ليتك تعرف هذا الشخص معرفتى له ! أليس كذلك يا حبيبى ؟ أليس صحيحاً أنه لا أحد يعرفك حق المعرفة سواى ؟

ولعل سوان كان أشد تأثراً بمنظرها وهى تخاطبه على هذا النحو ، أمام فورشفيل ، لا بمثل كلمات التدليل والإعزاز هذه فحسب ، بل أيضاً حين توجه إليه بعض النقد ، من قبيل قولها :

ـ أنا متأكدة من أنك لم تكتب بعد إلى أصدقائك ، بخصوص تناولك العشاء معهم يوم الأحد .. ولست مضطراً للذهاب إن لم تشأ ، ولكنك ينبغى على الأقل أن تكون مهذباً :

أو :

ـ والآن ، هل تركت مقالتك عن قرمير هنا كى تعمل فيها قليلا فى الغد ؟ يا لك من كسول ! سأعرف كيف أجعلك تعمل . أؤكد لك !

مما يدل على أن أوديت على اتصال مستمر بارتباطاته الاجتماعية وعمله الأدبى ، ومعنى هذا أن حياتهما مشتركة بمعنى الكلمة . وكانت وهى تتكلم تضفى عليه ابتسامة كان يفسرها بأنها تريد أن تقول إنها ملكه بالكامل .

وعندما كانت تعد بعد ذلك شيئاً من عصير البرتقال ، إذا بكل الأفكار المقلقة عن أوديت تذوب فجأة وتختفى ، بل تتلاشى فى ضوء هذه المخلوقة الفاتنة الواقفة هناك أمام عينيه ، تماماً كما ترسل المرآة العاكسة للمصباح ظلالا مهوشة هائلة لا تلبث أن تلتئم لتتلاشى فى ظل الشىء نفسه الذى يسقط عليه ضوء المصباح . فقد طاف بذهنه شك مفاجئ فى أن هذه الساعة التى قضاها فى بيت أوديت ، فى ضوء المصباح ، لم تكن بعد كل شىء ساعة مصطنعة ، ابتكرت لاستعماله الخاص (تخفى عنه ساعة من حياتها الطبيعية الحقيقية ، حياتها عندما لا يكون هناك ، ناظراً إليها) فكأنها عرض تمثيلى له مناظره المسرحية بل لعلها ساعة صادقة من حياة أوديت ، وأنه لو لم يكن هناك شخصياً ، لجذبت نفس هذا الكرسى المريح ليجلس فوقه فورشفيل ، ولصبت له نفس هذا العصير الذى تقدمه الآن لكليهما . وإن العالم الذى تقطنه أوديت ليس عالماً آخر مخيفاً وخارقاً للطبيعة ، يقضى جل وقته فى تخيله ، وقد لا يكون له وجود إلا فى مخيلته ، بل عالمها



طاف بذهنه شك مفاجىء فى أن هذه الساعة التى قضاها فى بيت أوديت ، فى ضوء المصباح ، لم تكن بعد كل شىء ساعة مصطنعة ..

هو هذا الكون الحقيقى ، الذى يضم هذه المائدة التى قد يجلس إليها الآن ويكتب ، وهذا الشراب الذى أتيح له الآن أن يتذوقه . وكل الأشياء التى يتأملها بكثير من الفضول والإعجاب والعرفان ، لأنها وقد امتصت أحلامه خلصته من وسواس ، وفى الوقت نفسه زادت هذه الأشياء ثراء بما امتصته من أحلامه ، وأطلعته على التحقق الملموس لكل تخيلاته ، وصارت بهذا ذات أهمية لدى ذهنه : وكأنها اكتسبت صلابتها وشكلها تدريجياً أمام عينيه .. وفى الوقت عينه طمأنت قلبه القلق . آه ! ألا ليت القدر يسمح له أن يشارك أوديت مسكناً واحداً ، كى يمسى فى بيته وهو فى بيتها ، وبحيث حين يسأل خادمه ماذا أعد للغداء ، يكون الجواب هو ما أمرت أوديت بإعداده ، وإذا ما أرادت أوديت الخروج للمشى فى الصباح فى شارع غابة بولونيا لصار من واجبه — بوصفه الزوج الصالح — أن يصحبها ، ولو كانت رغبته ألا يخرج ، وأن يحمل لها عباءتها عنها إذا اشتد الحر . وفى المساء ، بعد العشاء ، إن أرادت البقاء فى البيت وعدم ارتداء ثياب الخروج ، ورغبت إليه أن يبقى معها صدع بالأمر ونفذ ما طلبته منه . وعندئذ تختفى كل بواعث الوجوم التافهة فى حياة سوان ، لأنها ستكون قد غدت جزءاً من حياة أوديت فى الوقت نفسه ، وتتحول — كما تحولت هذه المنضدة ، وهذه المقاعد ، وهذا المصباح ، وهذا العصير ، وكل هذه الأشياء المادية التى امتصت واستوعبت أحلامه وجسدت أمانيه — إلى مصدر للعذوبة الخارقة للطبيعة .

ومع هذا كان ميالا إلى الشك فى أن الحالة التى كان يصبو إليها كثيراً جداً حالة هادئة وادعة ، لا ينتظر أن تكون ملائمة لعشقه لأوديت . ذلك أن أوديت عندما لا تعود بالنسبة له مخلوقة دائمة الغياب ، يتحسر على غيابها ويتخيلها ويتخيل أفعالها . وعندما لا يعود شعوره بها هو نفس شعوره بالقلق الغامض الذى ارتبط فى سريرته بتلك الجملة الموسيقية من سوناتة فانتى ، بل يغدو شعوره بها هو الإعزاز والعرفان ، حين تستقر بينهما علاقة سوية تضع حداً نهائياً لجنونه السوداوى، فى هذه الحالة لا شك أن أفعال حياة أوديت اليومية ستبدو له قليلة الأهمية ، مثلما شعر بذلك عدة مرات ، كما حدث مثلا يوم قرأ رسالة أوديت إلى فورشفيل من خلال المظروف. فهو حين يتفحص مصدر شكواه منها بنزاهة علمية موضوعية ، كأنما هو قد طعم نفسه بجرثومة هذه العلة خصيصاً كى يدرس آثارها ، عندئذ يقول لنفسه إنه إن شفى من هذا الداء (داء الشك والقلق والبعاد) قد لا تبقى أى أهمية لما تفعله أو لا تفعله أوديت . وإنه ـ والحق يقال ـ ليخشى الموت نفسه أقل مما يخشى مثل هذا الشقاء من داء حبها ، لكأن ذلك معناه موت كل كيانه !

وبعد هذه الأمسيات الهادئة تهدأ ثائرة شكوكه مؤقتاً ، فيبارك اسم أوديت : وفى الصباح التالى يشترى أبدع المجوهرات ويأمر بإرسالها إليها ، لأن رقتها معه فى الليلة السابقة استثارت عرفانه ، أو أثارت نوبة حب لها تحتاج إلى مثل هذا المتنفس .

ولكن فى أوقات أخرى يستولى عليه الحزن ، فيخيل إليه أن

أوديت عشيقة فورشفيل ، وأن بينهما تواطؤاً وتغامزاً عليه ، كما حدث فى ليلة العشاء فى الغابة ، قبل يوم واحد من الحفلة التى لم يدع إليها فى شاتو ، حين طلبت منها مدام فرديران أن تركب معها عربتها ملتصقة بفورشفيل ، وراح هو يتوسل إليها بنظراته أن تركب معه ، فأبت وتركته يمضى وحيداً كاسف البال ... ما أدراه أنها لم ترشق فورشفيل بنظرة شيطنة وتشف فيه ، كتلك النظرة المتألقة الماكرة التى لمحها ليلة قام فورشفيل بجرح مشاعر سانيت عند خروجه من بيت آل فرديران .

وفى هذه الحالة يشعر سوان بالسخط عليها والمقت لها ؛ ثم يقول لنفسه :

ـ ولكنى كنت مغفلا أيضاً . فأنا أنفق من مالى لإتاحة اللذات للرجال الآخرين ! فلتحذر من التمادى ، وإلا كففت عن إعطائها أى شيء ! ولابد على كل حال من إيقاف العطايا الإضافية فى الوقت الحاضر . فبالأمس فقط عندما قالت إنها تود الذهاب إلى « بيروت » Bayreut لحضور الموسم الموسيقى ، كنت حماراً إلى حد أننى عرضت عليها استئجار أحد تلك القصور الصغيرة البديعة التى يملكها هناك ملك بافاريا ، كى ننزل بها أنا وهى . ومع هذا لم تظهر لهفة واضحة ، ولم تقل لا أو نعم حتى الآن . وكم أتمنى أن ترفض . يا إلهى ! أنا لا أتصور إنصاتى لموسيقى فاجنر أسبوعين متوالين وأنا معها ، وهى التى لا يزيد اهتمامها بالموسيقى على اهتمام سمكة بالتفاح ! كم سيكون هذا مضحكاً لفرط سخافته !

ولما كان مقته ، شأنه شأن حبه ، بحاجة إلى التجلى فى صورة فعل ، لذا يروح فى هذه الحالة يستحث مخيلته لخلق صور خياناتها وتفاهتها إلى مدى أبعد ، لأن النقائص التى يرمى بها أوديت تجعله يزداد مقتاً لها ، ويتيح له هذا ، إذا اتضح له ــ كما حاول أن يقنع نفسه بذلك ــ أنها قد اقترفتها فعلا ، أن ينتهز فرصة لعقابها ، ولصب جام غضبه الطافح عليها . ويمضى فى تخيلاته إلى حد تصور أنه سوف يتلقى منها خطاباً تطلب به منه نقوداً لاستئجار بيت فى بيروت ، مع إنذاره ألا يأتى هو شخصياً ليقيم به لأنها وعدت فورشفيل وآل فرديران بدعوتهم إليه ! آه ! لكم كان يتمنى لو واتتها الجسارة على ارتكاب هذه الحماقة ! وكم كان يغمره الفرح عندما يرفض لها هذا الطلب ، ويروح يتخيل رده الانتقامى على خطابها ، ويحدث نفسه بصوت مرتفع بالعبارات التى سيكتبها ، ويعدل فيها بكل حرقة ، كأنه قد تلقى خطابها المزعوم فعلا !

وفى اليوم التالى مباشرة جاءه خطابها . كتبت تقول فيه : إن آل فرديران وأصدقاءهما أعربوا عن رغبتهم فى حضور هذه العروض الموسيقية لفاجنر ، فليته يتكرم بإرسال المبلغ الكافى إليها ، ليتسنى لها أخيراً ، بعد طول ترددها على بيت آل فرديران ، أن تحظى برد الجميل واستضافتهما مع أصدقائهما فى بيتها ..

ولم تذكر فى خطابها حرفاً واحداً عنه ، فقد كان مفروغاً منه أن وجود آل فرديران فى بيروت بمثابة الحائل دون ذهابه إلى هناك .

وعندئذ أتيح له أخيراً أن يبعث إليها بذلك الرد البالغ القسوة ، الذى كان قد أعده فى ذهنه بعناية شديدة فى الليلة السابقة : ولكن وا أسفاه ! لقد كان متأكداً من أنها ستستطيع بما لديها ــ أو بما يمكنها الحصول عليه بسهولة ــ من مال أن تستأجر على كل حال بيتاً فى بيروت ، ما دامت راغبة فى هذا ، وهى التى تعجز عن التمييز بين باخ Bach وكلابيسون Clapisson ! لتستأجره إذن ، ولكن سيتحتم عليها أن تعيش فيه حياة التقشف . وهذا كل ما هناك وبما أنه لن يرسل إليها عدة ألوف من الفرنكات ، فلن تتمكن من إقامة حفلات عشاء متأخر فاخرة فى قصرها الصغير ، فى نهايتها تنتابها النزوة (إن لم تكن انتابتها فعلا من قبل !) فترتمى بين ذراعى فورشفيل ! وعلى كل حال لن تكون هذه الرحلة البغيضة على نفقات سوان ! آه ! ليته كان يستطيع الحيلولة دون سفرها . أو ليت كعبها يلتوى قبل السفر ، أو ليت الحوذى الذى سوف يقلها إلى المحطة يقبل (ولا أهمية لضخامة الرشوة فى هذه الحالة) أن يتولى تهريبها إلى مكان يحبسها فيه إلى أن ينتهى المهرجان ، كما يجدر بامرأة خسيسة مثلها تلمع عيناها بابتسامة تواطؤ مع فورشفيل ! فهكذا غدت فى عين سوان فى الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة .

بيد أنها لم تكن قط هكذا لمدة طويلة . فبعد بضعة أيام فقدت العينان الماكرتان اللامعتان لمعانهما وخداعهما ، وأخذت صورتها الممقوتة تنصل ، ثم ظهرت له تدريجيا صورة محيا « أوديت

الأخرى » ، أوديت التى تلتفت أيضاً إلى فورشفيل ، ولكن بابتسامة ليس فيها إلا الإعزاز لسوان ، عندما قالت لفورشفيل :

ـ ينبغى ألا تبقى طويلا ، لأن هذا السيد لا يحب أن يكون عندى زوار وهو هنا . أوه ! ليتك تعرف هذا المخلوق كما أعرفه !

وهى نفس الابتسامة التى استخدمتها لتشكر سوان على إحدى مجاملاته التى كانت تقدرها أسمى تقدير ، أو على نصيحة طلبتها منه فى إحدى أزمات حياتها الكثيرة الخطيرة التى لم تكن تستطيع أن تلجأ فيها لسواه .

وعندئذ يسأل نفسه كيف سولت له أن يكتب لأوديت الأخرى هذا الخطاب الفظيع ،وهو خطاب لا شك أنه هبط بمكانته من عل ، من المكان الذى رفع نفسه إليه بسخائه وولائه . وهى صفات أحبته بسببها ، لأنها لم تجدها فى فورشفيل ولا فى غيره . ولأجلها كانت أوديت تظهر له فى كثير من الأحيان حناناً متبادلا ، كان لا يراه شيئاً ذا بال على الإطلاق فى أوقات غيرته ، لأنه كان دليلا على المودة لا على العشق . إلا أنه يتبدل مرة أخرى فى تقديره عندما تهدأ شكوكه بتأثير قراءاته فى الفن ، أو حديث أحد الأصدقاء ...

والآن ، بعد أن تحول البندول إلى الوضع المضاد ، عادت أوديت إلى المكان الذى كانت غيرة سوان قد أجلتها عنه ، وصار يراها فاتنة ، ويصورها لنفسه مثالا للحنان وفى عينيها نظرة موافقة ، وشكلها يبدو له آية فى الجمال بحيث لا يستطيع منع نفسه من تحريك شفتيه نحوها ، كما لو كانت موجودة فى الحجرة ويستطيع تقبيلها ،

ويحس منها عرفاناً عميقاً بسبب هذه النظرة وكأنها قد رمقته بها فعلا ، ولم تكن مجرد تخيل اختلقه إرضاء لرغبته .

أى تعاسة لا بد أنه قد سببها لها ! إنه بالتأكيد وجد أسباباً كافية لسخطه عليها ، ولكنها ما كانت لتكفى كى يسخط عليها هكذا لولا أنه يحبها بتوله شديد . ألم يحقد يوماً مثل هذه الأحقاد الجدية على نساء أخريات ، ومع هذا فما أكثر ما يؤدى لهن اليوم من خدمات ، غير شاعر بأى غضب نحوهن لأنه لم يعد يحبهن ؟ فإذا جاء يوم يلقى نفسه فيه غير مبال بأوديت ـ مثلما هو غير مبال بعشيقاته السابقات ـ فلسوف يدرك عندئذ أن غيرته وحدها هى التى أدت به إلى أن يجد شيئاً بشعاً لا يغتفر فى هذه الرغبة (التى هى بعد كل شىء رغبة طبيعية جداً نابعة من رهافة فى طبيعتها) التى استولت عليها بأن ترد لآل فرديران بعض دينهما لها لكثرة ما استضافاها ، وبأن تقوم بدور المضيفة فى بيت خاص بها :

وعاد إلى وجهة النظر الأخرى ـ وهى المضادة لحبه وغيرته ـ وحاول أن يكون حكماً جديداً بشأن أوديت ، على أساس أنه لم يكن قط محباً لها ، وأنها كانت بالنسبة له امرأة كسائر النساء ، وأن حياتها لم تكن مختلفة (كلما كان هو غير موجود) فهى نسيج جرى غزله فى الخفاء بعيداً عنه .

وعلى أى أساس يقوم اعتقاده بأنها ستستمتع هناك بملذات مع فورشفيل أو غيره من الرجال لم تعرفها معه قط ، وغيرته وحدها هى التى صورت له عناصرها ؟ فى بيروث كما فى باريس ، لا يعدو

تفكير فورشفيل فيه أنه شخص له أهمية كبرى فى حياة أوديت ، شخص لا بد له أن يخلى له المكان إن حدث أنهما تلاقيا فى بيتها . وإذا كان فورشفيل قد سجل نصراً عليه بوجوده وحده مع أوديت فى بيروت برغمه ، فهو الذى وضع تصميم وأقام معمار هذا النصر بمحاولاته منعها من الذهاب ، فى حين أنه لو وافق على فكرتها ـ التى لها وجاهتها ـ لبدا على الأقل أنها هناك بناء على مشورته ، ولشعرت أنها مقيمة هناك بفضله وعلى نفقته ، وأنه أتاح لها استضافة من طالما استضافاها . وطبيعى أن تشعر أنها مدينة له بهذه الأفضال !

ولو أرسل إليها النقود الكافية للرحلة ـ بدلا من سفرها وهو غاضب منها بغير مقابلة ـ وشجعها على هذه الرحلة ، وجشم نفسه توفير وسائل الراحة لها ، لأقبلت عليه راكضة بكل السعادة والسرور ، ولأسعده أن يرى وجهها الطافح بالفرح ـ وجهها الذى لم يره منذ نحو أسبوع . وهذه سعادة لا تعوض . وها هو الآن يتصور أوديت بلا غيرة جامحة ، وقد صار حبه لها صافياً من النفور والغيظ ، وكل همه أن يرى وجهها يفيض بابتسامة الود والبشر . وليس همه كله ـ كما كان منذ قليل ـ أن ينتزعها من خصمه ومنافسه . وكأنما وجه أوديت السعيد لوحة فنية لا يصبو إلى ما هو أكثر من التمتع بها . وهكذا امتلأت جوانحه بالشوق إلى مرآها ، شوقاً فنياً نزيهاً خالياً من كل سخط . فشخصها أو خطاباتها هى المصدر الوحيد لهذه النشوة التى غلبت عليه الحاجة الملحة إليها . فكأنما هو بهذا التغير قد كان

فريسة مرض عضال ، ثم بدأ فى النقاهة ودبت فيه القوة والعافية فى طريقه إلى الشفاء التام .

وهكذا تحول من الحقد على أوديت إلى مرحلة من حبه لا غيرة فيها ، بل كل همها الرفق والحنان والبر بأوديت ، كما هى . وعادت مرة أخرى أوديت القديمة الفاتنة الرقيقة الحنون . وامتلأت جوانحه بالندم الشديد على أنه عاملها بكل هذه القسوة والخشونة . وصارت أمنيته أن تأتى إليه ، وأن يهيئ لها قبل قدومها مسرة عظيمة لكى يتاح له أن يرقب العرفان وهو يرتسم على محياها ويشكل ابتسامتها .

ولما كانت أوديت أيضاً واثقة برؤيته يأتى إليها فى مدى بضعة أيام ، بحنانه وانقياده المعهودين فيه من قبل ، كى يتوسل إليها أن تصفح عنه ، لذا أكسبتها هذه الخبرة حصانة من خشية إغضابه ، وكانت تأبى ـ كلما راقها هذا ـ أن تمنحه الحظوة التى كان شديد الحرص واللهفة عليها .

ولعلها لم تدرك مدى صدقه وإخلاصه فى هذه المشاحنة الأخيرة ، عندما قال لها : إنه لن يبعث إليها بأى مبلغ من المال ، بل سيبذل ما فى وسعه لإيذائها . ولعلها لم تدرك أيضاً إلى أى مدى كان لم يزل مخلصاً صادقاً ، إن لم يكن معها ، فعلى الأقل مع نفسه فى مناسبات أخرى ، حفاظاً على علاقاتهما المستقبلة ، ولكى يرى أوديت مدى ما يستطيعه ويستطيع عمله بدونها ، وأن القطيعة بينهما لم تزل ممكنة ، لذا قرر الانتظار بعض الوقت قبل الذهاب لرؤيتها فى بيتها .

وأحياناً كانت تمر بضعة أيام لم تسبب له فيها قلقاً جديداً .

وبما أنه قد عرف أنه ربما لن يجن من الزيارات القليلة التالية مسرات ذات بال ، بل الأرجح أن تحدث له منغصات تضع نهاية لحالة الهدوء والطمأنينة التى ألفى فيها نفسه ، لذا يكتب إليها أنه مشغول جداً ولن يتمكن من رؤيتها فى أى يوم من الأيام التى اقترحتها . ولكن فى نفس الوقت الذى يكون خطابه فى طريقه إليها يأتيه خطاب منها تطلب فيه منه تأجيل أحد هذه اللقاءات . ويسأل نفسه لماذا طلبت ذلك ، وتركبه الهواجس والوساوس والشكوك والأحزان التى لا يطيقها وينسى كل ترتيباته وتدبيراته السابقة بالانقطاع عنها بضعة أيام ، ويسرع ركضاً إلى زيارتها ، ويصر على رؤيتها فى كل يوم من الأيام التالية .

وحتى لو لم تكن هى التى بدأت بالكتابة ، واكتفت بالموافقة على خطابه ، فذلك كاف لإقلاقه ويعجز عن البقاء منقطعاً عنها ، لأن قبولها لرغبته فى التباعد المؤقت كان كافياً لقلب موازينه كلها واتجاهاته . وما أشبهه عندئذ بمن يملك شيئاً ثميناً جداً ، ويقرر أن يكتشف ماذا يحدث لو كف لحظة عن امتلاكه ، فيبعد هذا الشىء الثمين عن تفكيره ، مبقياً — فى حسبانه — كل عناصر حياته الأخرى على نفس النحو الذى كانت عليه من قبل . ولكن غياب هذا الجزء الواحد من المجموع الكلى ليس مجرد نقص جزء واحد ، بل هو إخلال بالمجموع الكلى لسائر الأجزاء ، وهى حالة جديدة لم يكن من الممكن التنبؤ بها وهو فى حالته السابقة .

ولكن فى مرات أخرى — عندما كانت أوديت على وشك

السفر لقضاء عطلة — كان ذلك يحدث بعد مشاحنة صغيرة اتخذ سوان منها ذريعة لعدم الكتابة إليها وعدم رؤيتها إلى حين عودتها ، متظاهراً بالقطيعة الجادة التى لعلها تعدها نهائية بحيث تؤدى إلى فراق ، يخلع عليه السفر مسحة واقعية . وعلى الفور يخال أوديت مرتبكة قلقة مكروبة لأنها لم تتلق منه زيارة ولا رسالة . وتهدئ صورتها هذه من غيرته . وتسهل عليه بالتالى الانقطاع عن رؤيتها . ولكن فترة السفر لمدة ثلاثة أسابيع التى سمح بها تتيح له أن يفكر بسرور فى العودة لرؤية أوديت بعد عودتها . وفى الوقت نفسه يتساءل أليس مستعداً لمضاعفة فترة هذا الامتناع ؟ وتبدأ إرادته فى الاهتزاز ، ويفكر فى منح هذه الإرادة الصارمة عطلة تمتنع فيها عن سيطرتها . ويتمحل سبباً للاتصال بها ، كسؤالها عن اللون الذى تريد أن تعيد به طلاء عربتها ، أو نوع « الأوراق المالية » التى تريده أن يشتريها لها . فحسن جداً أن يشعرها أنه راغب عن رؤيتها ، ولكن ما حيلته إن كانت عربتها بحاجة إلى طلاء ، أو أسهمها بحاجة إلى شراء ؟ وهكذا ينفلت من إرادته الحازمة ، وينقلب فجأة إلى النقيض ، فيزورها كأنه لم يبيت النية على قطيعتها الأبدية ! حتى أنه فى الدقائق العشر التى ينتظرها بعد أن أمر بإعداد عربته للذهاب إليها ، يغوص فى لجة تصور مفاتنها ونعيم الاجتماع بها ! ويعلل نفسه بأنه ما دام قد سهل عليه تقرير فراقها ، فما أسهل أن يؤجل هذا القرار مرة بعد أخرى ما دام قد عرف أن فى مقدوره تنفيذه فى أى وقت يشاء ! وتكتسب الرغبة الملحة فى رؤيتها قوة بسبب هذا الحرمان الطويل على مدى

أسبوعين ، بعد أن كان التعود القديم قد أفقد تلك الرغبة حدتها مؤقتاً . ويضاعف من هذا الشوق إلى أوديت جهله بمكنون أفكارها ، وما عساها صنعت لما وجدته ممتنعاً عن الاتصال بها ولو بالرسائل ، بحيث يحس أنه الآن على وشك مواجهة أوديت أخرى تكاد تكون مجهولة له .

ولكن كما اعتقدت أوديت أن امتناعه عن إرسال المال إليها كان مجرد خدعة ، كذلك لم تر فى حضوره الآن ليسألها عن أى لون تريده لعربتها إلا ذريعة . وكان سوان يوقن بأنها لم تفهم أفكاره ودوافعه ، تماماً كمدمن المورفين الذى يعتقد أن الطبيب الذى يعالجه عاجز عن فهم دوافعه وطريقة إحساسه ، وكيف أنه ينتكس فى نفس اللحظة التى أوشك فيها أن يتخلص من إدمانه . مع أنه كان طيلة امتناعه عن تعاطى المخدر فريسة فى دخيلة نفسه لأشواقه إليه . والواقع أن عشق سوان كان قد وصل إلى تلك المرحلة التى يسأل فيها الطبيب نفسه ألم تزل هناك فرصة لتخليص مريضه من دائه ، أم أنه لا سبيل إلى هذا .

ويقيناً أن سوان لم تكن لديه دراية بالمدى الذى وصل إليه عشقه : فكان أحياناً وهو يحاول قياس أبعاده يجده قد تناقص وتقلص حتى كاد ينعدم : ويخيل إليه أنه صار مجرد استلطاف يسير ، يمكن أن يتحول إلى عدم الاستلطاف الذى كان يشعر به نحو ملامح أوديت قبل أن يتفجر حبها فى قلبه . حتى أنه فى بعض الأيام كان يقول لنفسه :

ـ إننى حين أمعن التفكير أكتشف أنى لم أحظ بأى لذة من جماعى لها فى الفراش الليلة الماضية . وقد يكون هذا شيئاً غريباً ، ولكنى بالفعل شعرت بأنها قبيحة .

وما من شك فى أنه كان مخلصاً فى هذا . ولكن الواقع أن عشقه كان يمتد إلى آماد أبعد كثيراً من مجال اللذة الجسدية . ولم يعد لشخص أوديت أهمية فى ذلك كله . وعندما كانت تقع عيناه على صورة أوديت الفوتوغرافية فوق المنضدة ، أو حينما كانت تأتى لزيارته ، كان يجد صعوبة فى التحقق من محياها ، لا لحماً ودماً ، ولا رسماً على الورق ، لشدة ما يعترى ذهنه من قلق وجيشان . يقول لنفسه بما يشبه الدهشة : إنها هى !

وتضاعف داء سوان . فما كان حبه لها إلا نوعاً من المرض لا خلاص له منه ، وتداخل فى نسيج عاداته وأفعاله وأفكاره ، وصحوه ونومه ، وصحته ، بل وفى ما كان يتمناه لنفسه بعد موته : لقد صار هذا الحب المرضى وشخصه وكيانه شيئاً واحداً ، بحيث استحال عليه أن يتخلص منه من غير أن يدمر وجوده نفسه . فحالته هى التى يقول عنها الجراحون إنها تجاوزت مرحلة إجراء الجراحة ،

وفصل هذا الحب ما بين سوان وبين كل الاهتمامات الأخرى ، بحيث أنه كان إذا ما ظهر ثانية فى عالم المجتمع الراقى ، مذكراً نفسه بأن علاقاته الاجتماعية ربما زادت من قيمته الخاصة فى عينى أوديت (وإن كانت عاجزة عن تقييم هذه العلاقات تقييماً دقيقاً) وكان ذلك حرياً أن يكون لولا أن حبه لأوديت قد بخس هذه العلاقات الراقية

فى نظرها ، لأنها رأتها فى نظره أقل قيمة من حبه لها شخصياً . وفى هذه المجتمعات كان يحس بالغربة ، لأن أوديت لا تعرف هذه الأوساط ، وكأنما هو لا يعيش فيها ، بل يتصفح رواية أو يشاهد لوحة تصور ملذات الطبقة المترفة الخالية من الشواغل .

ولكن بفضل ألفته القديمة التى جعلت الكثيرين جداً من أهل هذه الطبقة الوجيهة يترددون على بيته ويقدمون الخدمات له ولأسرته، كان سوان يحظى بكل حفاوة . وكان هو يشعر حين يفكر فى علاقاته الممتازة بهم بمثل ما يشعر به وهو يتأمل ممتلكاته العقارية ، وضيعته الفاخرة ، وفضيات مائدته ، ومفارش المائدة البديعة التى ورثها عن أسلافه ... ويسره علمه بأنه لو مرض ولزم داره لهرع خادمه من تلقاء نفسه لاستدعاء خاصة أصحابه وفى مقدمتهم دوق شارتر Chartres وأمير ريبس Reus ودوق لكسمبورج Luxembourg والبارون دى شارلى Charlus . ويشعر لهذا التفكير بمثل ما تشعر به طباختنا العجوز فرنسواز من زهو لأنها سوف توارى يوماً ما فى أثوابها الفاخرة التى أعدتها مطرزة باسمها ، جديدة قشيبة خالية من الرفو (أو مرفوة بمهارة شديدة تشهد ببراعة صانعتها) فيزيد ذلك من احترامها لنفسها . أو ربما شعر حين استأنف ارتياد هذه المحافل بحقيقة وجود نمط حياة أسعد من حياته الغرامية ، مثلما يحس المريض الذى يعيش شهوراً على نظام غذائى دقيق باشتهاء المآدب الشهية حين يطالع فى إحدى الصحف وصفاً لمأدبة رسمية أو إعلاناً عن رحلة سياحية بحرية حول جزيرة صقلية .

ولئن كان مضطراً للاعتذار لأصدقائه من العلية عن عدم زيارته لهم ، فقد تحتم عليه بالضبط أن يعتذر لأوديت عن الزيارات التى كان أحياناً يقوم بها لهؤلاء الأصدقاء . فهو لم يزل يقوم بهذه الزيارات (سائلا نفسه فى نهاية كل شهر أتراه استنفد صبرها ، وهل عساه ينبغى إن كان قد أكثر من زياراته لها أن يكتفى بإرسال أربعة آلاف فرنك إليها) وكان يتمحل المعاذير لكل زيارة ، كأن يكون مثلا قد حضر ليحمل إليها هدية جديدة، أو معلومة كانت قد طلبتها منه، أو أن يكون قد التقى بالمسيو دى شارلى الذى كان فى طريقه إلى بيتها وأصر على أن يصحبه سوان . وإذا لم يجد أى مبرر طلب إلى المسيو دى شارلى الذهاب إليها فوراً ، وأن يقول لها عفو الخاطر أثناء الحديث إنه تذكر لتوه شيئاً يجب أن يقوله لسوان، ويرجوها أن يبعث برسالة عاجلة إلى بيت سوان تدعوه فيها لزيارتها فى التو واللحظة : ولكن سوان كان فى الغالب يظل منتظراً فى بيته تلك الرسالة عبثاً ، ثم يقول له المسيو دى شارلى فى المساء إن نصيحته هذه لم يكتب لها النجاح . ونتيجة لهذا إنها إذا كانت الآن كثيرة التغيب عن باريس . فهو قلما يراها حتى عندما تكون موجودة بالعاصمة . وهى التى كانت تقول له عندما كانت عاشقة له : « أنا حرة وغير مشغولة على الدوام » و « ماذا يعنينى ما عسى أن يقوله الناس أو يظنونه ؟ » فى حين أنها الآن كلما رغب فى رؤيتها تمحلت الاعتذار بمقتضيات الاحتشام أو زعمت أنها مشغولة . وإذا ما حدثها فى أمر الذهاب إلى حفل خيرى ، أو إلى عرض خاص ، أو ليلة افتتاحية تكون حاضرة

فيها اعترضت بأنه إنما يريد أن يعلن على الملأ علاقتهما ، وأنه يعاملها كما لو كانت من نسوة الشوارع . ووصلت الأمور إلى درجة أنه اجتهاداً منه فى إنقاذ نفسه من الحرمان من لقائها فى أى مكان ، كدّ ذهنه حتى تذكر أنها تعرف عمى الأكبر أدولف ولها به صلة وثيقة ، وكان هو أيضاً من أعز أصحابه ، فذهب ذات يوم لزيارته فى شقته الصغيرة بشارع بيلشاس ليطلب إليه أن يستخدم نفوذه لدى أوديت. وكانت تصطنع دائماً كلما حدثت سوان عن عمى هذا نبرة شاعرية ، وتقول : «آه ! هذا الرجل ! إنه ليس مثلك على الإطلاق ، فشعوره نحوى بالصداقة رقيق لطيف وعظيم وجميل . وهو ليس الرجل الذى لا يبالى بوضعى وإحساسى بحيث يسمح لنفسه أن يشاهد فى صحبتى بكل مكان على رءوس الأشهاد» . فكان هذا يحرج سوان أشد الحرج ، ولم يدر بأى طريقة يتحدث عن أوديت إلى عمى أودلف . وصار يعمد إلى الإلماع إلى امتيازها وطبيعتها الملائكية الفائقة لطبائع البشر ، وإلى فضائلها التى لا يحيط بها وصف ، لأنه يعيى أى إنسان أن يجتمع له من هذه الفضائل تصور شامل ثم يقول : « كم أحب أن أحدثك عنها : أنت الذى تعرف كم هى أعلى مستوى من كافة النساء ، وأى ملاك معبود هى : ولكنك فى الوقت نفسه تعرف ما هى الحياة فى باريس ، ولذا فليس كل إنسان فيها قادراً أن يرى أوديت فى نفس الضوء الذى كان من حسن طالعك وحسن طالعى أن نراها فيه . ولذا فثمة أناس يظنون أنى أتصرف برعونة ، فصارت لا تسمح لى برؤيتها حتى ولو خارج البيت ، فى المسرح مثلا . أما أنت فلها بك

ثقة هائلة ، فهل لك أن تقول لها بضع كلمات فى صالحى ، لكى تطمئنها إلى أنها تبالغ كثيراً فى توهم ما يصيبها من ضير حين أنحنى لها عندما أصادفها فى الطريق ؟ » .

ونصحه عمى أن يمتنع عن رؤية أوديت بضعة أيام ، فيزداد حبها له بعد ذلك ، وكذلك نصح لأوديت أن تدع سوان يقابلها حيثما وكلما شاء . وبعد بضعة أيام قالت أوديت لسوان : إنها أفاقت من وهمها إفاقة عنيفة ، وإنها اكتشفت أن عمى مثله كمثل غيره من الرجال وإنه حاول أن ينالها عنوة . وهدأت من روع سوان الذى أراد لأول وهلة أن يندفع إلى عمى فيدعوه للمبارزة . إلا أنه أبى أن يصافحه عندما التقى به بعد ذلك :

وقد ندم سوان على هذه القطيعة ، وزاد فى ندمه أنه كان قد وطن النفس لو اجتمع بعمى أدولف فى بعض الأحيان على أن يتحدث إليه حديثاً يحوطه الكتمان ، ويطلب إليه أن يلقى بعض الضوء على بعض الأقاويل والشائعات المتعلقة بحياة أوديت وسلوكها فى الأيام الخوالى بمدينة نيس ، ذلك أن عمى أدولف كان من عادته أن يقضى الشتاء هناك ، فاعتقد سوان أنه ربما كان قد عرف أوديت لأول مرة هناك . فالكلمات القلائل التى ندت من بعضهم على مسمع من سوان عن رجل كان ـ على ما يبدو ـ عشيق أوديت ، تركته كالمأخوذ . ولكن عين تلك الأشياء التى كانت تبدو له قبل أن يعرفها كما لو كانت معرفتها أشد ما تكون هولا وأبعد ما تكون عن التصديق ، تتحول ، بمجرد معرفته لها إلى جزء لا يتجزأ من كتلة

أحزانه وأساه الأبدى ، فيتقبلها ولا يعود يتصور عدم وجودها . وكل ما هناك أن كل معلومة منها تحفر عند عبورها خطاً لا يمحى ، بحيث يغير الصورة التى كونها لعشيقته . والواقع أنه فى وقت ما شعر بأن فى وسعه أن يدرك أن هذه « الخفة » الخلقية ـ التى ما كان ليتصورها فى أوديت ـ معروفة مشهورة تماماً ، وأنها فى بادن أونيس حيث كانت تذهب فى الماضى لتمضية عدة شهور فى هذا المكان أو ذاك ، كانت تحظى بشهرة غرامية من نوع ما . وحاول ـ كى يفحص هذه الشائعات ـ أن يتصل من جديد برجال معينين من ذلك الطراز ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يعلمون أنه يعرف أوديت ، ثم إنه فضلا عن هذا كان يخشى أن يزج بتذكرها إلى أذهانهم ، فيدفعهم هذا إلى الجرى فى أعقابها من جديد . أما هو ، وهو الذى حتى ذلك الحين لم يكن يسئمه شىء كما يسئمه كل ما يتعلق بالحياة فى بادن أونيس ، فها هو الآن وقد عرف أن أوديت لعلها عاشت حياة المرح والنزق يوماً ما فى مدينتى الملذات هاتين ـ وإن كان لم يستطع أن يكتشف أبداً هل كان دافعها إلى هذا احتياجها إلى المال ، وهو ما صارت بفضله الآن لا تشعر بالحاجة إليه ، أم غريزتها النزقة التى قد يوقظها لديها الآن فى أى لحظة ـ فهو نهب للقلق والهم والدوار مطلا على هوة ما لها من قرار ، عندما تعود إلى ذاكرته أعوام له خلت ، فى عهد مكماهون Mac. Mahon ، حينما كان المرء يقضى الشتاء فى « متنزه الإنجليز » ، ويقضى الصيف فى ظلال الزيزفون ببادن ، فيجد فى تلك السنوات عمقاً حزيناً ولكنه فاخر على نحو

ما يراها فى إحساسه الشاعر ، ويضفى من خياله على كل تفصيلات الدورات اليومية فى تلك الأيام بالكوت دازير Cote d' Azur ، عسى أن يعينه هذا الخيال على فهم شىء لم يزل يحيره فى ابتسامة أوديت أو فى نظرات عينيها ، ويجد فى ذلك حماسة أشد مما يجده خبير الجماليات الذى ينقب فى الوثائق المجهولة التى ترجع إلى القرن الخامس عشر بفلورنسا عسى أن يحاول النفاذ إلى روح البريمافيرا أو فانا Vanna الحسناء أو فينوس بوتيتشيلى Botticelli . وقد يجلس فى كثير من الأحيان من غير أن يقول لها كلمة واحدة ، مكتفياً بالنظر إليها حالماً ، وتعلق هى على ذلك بقولها : « إنك تبدو حزيناً ! » ولم يكن قد انقضى وقت طويل جداً منذ انتقل من فكرة أنها مخلوق ممتاز يضارع أفضل النساء اللواتى عرفهن إلى فكرة أنها امرأة « محظية » ، وبحركة عكسية عاد من « أوديت دى كريسى » ـ التى يعرفها جيداً من يقضون العطلات من الرجال المولعين بالنساء فى نيس وبادن ، إلى هذا الوجه الذى يعلوه انطباع لطيف معظم الوقت ، إلى هذه الطبيعة المسرفة فى بشريتها . وقد يسأل نفسه : « ما معنى قولهم بعد كل شىء إن كل امرئ فى نيس يعرف من هى أوديت دى كريسى ؟ إن السمعة التى من هذا النوع ، حتى عندما تكون صحيحة ، قائمة دائماً على أفكار الآخرين وآرائهم » . وقد يقول لنفسه إن هذه الأسطورة ـ حتى لو كانت صحيحة ـ شىء خارجى بالنسبة لأوديت ، وليس لصيقاً بها أو كامناً فيها كالشخصية الشريرة الأصيلة ، وأن المخلوقة التى لعلها ضلت سواء السبيل امرأة ذات

عينين صريحتين وقلب يفيض بالرحمة لمعاناة الآخرين ، ولها جسم كثيراً ما ضمه بين ذراعيه واستكشفه بأنامله . امرأة قد يصل إلى امتلاكها امتلاكاً مطلقاً إن هو نجح فى أن يجعل نفسه ولا غنى لها عنه . وها هى أمامه ، كثيراً ما تبدو مجهدة ووجهها صحيفة بيضاء من أثر هذا الهم أو الانشغال المحموم اللهفان بتلك الأمور المجهولة التى تجعل سوان يتعذب . وعندئذ تدفع شعرها إلى الخلف بكلتا يديها ، فيبدو جبينها ووجهها كله وقد ازداد حجمهما ، ثم على حين غرة تشع من عينيها كشعاع ذهبى فكرة بشرية عادية أو إحساس كالذى يخامر جميع المخلوقات عندما يتسنى لهم فى لحظة راحة أو تأمل أن يعبروا عن أنفسهم . وعلى الفور يشرق وجهها كله كأنما هو منظر مترام أغبر اللون تغمره السحب وقد انجابت هذه السحب عنه فجأة فتحول المنظر الموحش إلى منظر بهى فى لحظة غروب الشمس : وكان فى وسع سوان أن يشارك أوديت فى الحياة التى تشغلها فى تلك الأوقات ، بل ويشاركها المستقبل الذى يبدو عليها أنها تتملاه حالمة : ولم تكن أى مزعجات شريرة تترك آثارها على تلك الأوقات التى لم تكن بلا طائل على ندرتها .

وبإعمال الذاكرة كان سوان يجمع الأشتات المتفرقة ويلغى الفجوات التى بينها ، ويصوغ من الذهب الذائب تمثالا لأوديت تجتمع فيها الرقة والطمأنينة عليه أن يقدم لها فيما بعد (كما سنرى فيما يلى من هذه القصة) التضحيات التى ما كانت أوديت الأخرى لتحظى بها منه قط . ولكن ما كان أقل هذه اللحظات ! وما أقل

ما صار يراها الآن ! وحتى فيما يتعلق بلقاءاتهما الليلية لم تكن لتقول له إلا فى الدقيقة الأخيرة هل سوف يتسنى لها أن تراه ، لأنها كانت تعتمد على فراغ وقته الدائم وتود أن تعرف أولا عن يقين هل سيعرض عليها أحد القدوم إليها . وكانت تتذرع بأنها مضطرة لانتظار رد فى غاية الأهمية لديها ، وحتى لو كانت استقدمت سوان إلى بيتها فعلا وطلب إليها بعض أصدقائها ـ فى غضون الأمسية ـ أن تنضم إليهم فى مسرح ما ، أو على مائدة العشاء بعد المسرح ، فهى خليقة أن تطفر من الفرح وترتدى ثياب الخروج على وجه السرعة : وأثناء تزينها كانت كل حركة من حركاتها تقرّب سوان من اللحظة التى يتعين عليه فيها أن يفارقها لتنطلق هى بكل عنفوانها . وأخيراً عندما يتم استعدادها وتلقى على مرآتها نظرة أخيرة متلهفة على أن تبدو فى أبهى صورة ، وتضفى اللمسات الأخيرة على زينة شفتيها وشعرها ، وتطلب من وصيفتها عباءتها الحريرية الزرقاء السماوية ذات الشراريب الذهبية ، عندئذ يبدو النكد على محيا سوان : فلا تستطيع أن تكتم إيماءة سخط وهى تصيح به : « إذن فهكذا يكون شكرك لى على أننى استبقيتك هنا حتى آخر لحظة ! وأنا التى كنت أظننى أسدى إليك جميلا . ليكن هذا درساً لى للمرة القادمة ! » .

وأحياناً قد يغار بإثارة سخطها فيقرر أن يتعرف أين ذهبت ، بل ويحلم بعقد حلف دفاعى مع فورشفيل الذى ربما استطاع أن يخبره بمكانها ، ولكنه ما إن يعرف مع من ستقضى الأمسية حتى يكون من النادر ألا يكتشف من بين معارفه الذين لا يحيط بهم الحصر شخصاً



وتطلب من وصيفتها عباءتها الحريرية الزرقاء السماوية ذات الشراريب الذهبية ، عندئذ يبدو النكد على محيا سوان ..

ما يعرف — ولو من طريق غير مباشر — ذلك الرجل الذى خرجت معه ، ويتسقط بسهولة معلومات عنه . وبينما هو يكتب إلى أحد أصدقائه يطلب منه إلقاء الضوء على هذا الأمر أو ذاك ، يشعر هو بالراحة لكفه عن إرهاق نفسه بأسئلة لا جواب عليها ، ولأنه نقل إلى كاهل غيره عبء الاستفهام والاستفسار : ولكن سوان لم يكن ليحظى بالراحة لما يتلقاه من معلومات . ذلك أن معرفتنا بشىء ما لا تتيح لنا دائماً الحيلولة دون حدوثه . ولكننا نحتفظ بها فى أذهاننا متوهمين أننا نملك التصرف فيها كما نشاء ، ويخيل إلينا لهذا السبب أننا نملك القدرة على التحكم فيها والسيطرة عليها .

وكان سوان يسعد كلما عرف أن أوديت فى صحبة المسيو دى شارلى ، فقد كان يعلم أنه لا يمكن أن يحدث بينهما سوء ، وأن المسيو دى شارلى كلما ذهب معها إلى أى مكان ، فدافعه إلى هذا صداقته له وأنه لن يمانع فى إطلاعه على كل ما صنعته . وكان يحدث أحياناً أن تقول له بكل حزم : إنه من المستحيل عليه أن يراها فى أمسية معينة ، لأنها تتلهف على الخروج ، فكان سوان يهتم جداً بالتأكد من أن المسيو دى شارلى ستسمح له ظروفه بصحبتها . وفى اليوم التالى — ومن غير أن يجسر على توجيه أسئلة إلى المسيو دى شارلى — يجبره بالتظاهر بعد فهم إجاباته الأولى على أن يدلى إليه بالمزيد ، وعندئذ يشعر براحة متزايدة ، لأنه سرعان ما يعرف أن أوديت قضت أمسيتها فى أشد الملذات براءة وطهراً . فيقول له مثلا :

ــ ولكن ماذا تعنى يا عزيزى ميمى .. أنا لم أفهم جيداً . ألم تذهبا مباشرة من بيتها إلى متحف جريفان Grévin ؟ لا بد أنكما ذهبتما أولا إلى مكان ما ؟ لا ؟ هذا غريب جداً ! أنت لا تدرى كم أنت عجيب يا عزيزى ميمى . ولكن ما أغرب تفكيرها فى الذهاب إلى القط الأسود بعد ذلك . أظنها كانت فكرتها ؟ لا ؟ أكانت فكرتك ؟ هذا عجيب ! ولكنها على كل حال ليست فكرة سيئة ، ولا بد أنها عرفت عشرات من الناس هناك ؟ لا ؟ لم تحدث أحداً على الإطلاق ؟ ما أعجب هذا ! إذن فأنتما جلستما هناك هكذا ، أنت وهى وحدكما تماماً ؟ فى وسعى أن أتصوركما جالسين هناك ؟ يا لك من إنسان عزيز يا صديقى ميمى . وما أشد ولعى بك !

وعندئذ يستريح بال سوان تماماً . وما أكثر ما كان يحدث له وهو يتحدث إلى أصدقاء له لا يعرفون شيئاً عن غرامه ، وكان يصغى إليهم وهو شارد ، أن يلتقط سمعه عبارات متفرقة (مثل قول أحدهم : « لقد رأيت مدام دى كريسى بالأمس ، وكانت مع رجل لا أعرفه ») فإذا هذه العبارات تسقط من سمعه إلى قلبه مباشرة وتتحول إلى أجسام فى صلابة الاستلاجمايت ، وتمزق قلبه عندئذ وهى كامنة فيه لا تريم . ولكن ما أسعده الآن وهو يسمع من دى شارلى قوله : « لم تعرف هناك أحداً ، ولم تتحدث قط إلى أحد » وما أيسر سريان هذه العبارة فى لدانة وسيولة وخفة كأنها البخار ، حتى لكأنه يتنفسها ! ومع هذا ها هو بعد لحظة يقول لنفسه ، إن أوديت لابد أن تجده مملا مسئماً ما دامت هذه هى الملذات والمسرات

التى تؤثرها على صحبته . فإذا تفاهة هذه المسرات التى طمأنت باله تؤلمه كأنما استمتاعها بها كان ضرباً من الخيانة .

* * *

وحتى عندما يستعصى عليه أن يكتشف أين ذهبت ، كان يكفى لتخفيف ما شعر به من الكرب ، وهو الكرب الذى لم يكن يكفى لعلاجه غير حضورها شخصياً (وهو علاج أو دواء أدى ــ كما هو الحال فى أدوية أخرى كثيرة ــ إلى تفاقم الداء ، إلا أنه كان يجلب له التخفف المؤقت من عذابه) وكان يكفيه أن تسمح له أوديت بالبقاء فى بيتها بينما هى فى الخارج ، وأن ينتظرها هناك حتى ساعة عودتها . وفى سكون هذا البيت وهدوئه تنساب كل ذكريات تلك الساعات الحلوة التى كان فيها سحر خفى يجعله يخالها مختلفة بعض الشىء عن سائر الساعات . ولكنها لم تكن تسمح له بهذا ، بل لا بد له أن يعود إلى البيت ، فيحمل نفسه حملا وهو فى الطريق على أن يصوغ خططاً شتى متباينة ، ويكف عن التفكير فى أوديت . بل إنه يصل إلى مرحلة تقليب كل ضروب الأفكار السعيدة فى ذهنه ، بينما هو ينضو عنه ثيابه ، وبقلب مستطار من الخفة يقرر فى لهفة الذهاب لمشاهدة عمل فنى أثير لديه فى اليوم التالى ، فيثب إلى فراشه ويطفىء النور ولكن ما إن يتأهب للنوم ، نافضاً عنه سيطرته على ذاته التى لم يكن واعياً بها لفرط ألفته لها ، حتى ينتفض بدنه برعدة تشنجية وينفجر باكياً . ولا يود أن يعرف سبب ذلك ، ولكنه يجفف عينيه ، قائلا بابتسامة : « كم هذا بديع ! ها قد أصابتنى

النورستانيا». ثم لا يمكنه أن ينجى نفسه من الإعياء التام حين يفكر فى أنه غداً لابد أن يحاول من جديد اكتشاف ما كانت تصنعه أوديت، ولا بد له أن يستخدم نفوذه كله لابتداع حيلة يراها بها :

وهذا القسر على بذل نشاط لا هوادة فيه، وبدون تنويع، وبلا جدوى، كان بلاء غاية فى القسوة حتى أنه عندما لاحظ ذات يوم وجود انتفاخ بارز فوق معدته شعر بفرح حقيقى؟ لاحتمال أن يكون هذا البروز ورماً يتضح أنه قاتل. فلا يعنى نفسه بعد ذلك بشىء، لأن داءه هذا هو الذى سيسيطر على حياته ويجعل منه ألعوبة إلى أن تحين النهاية القريبة.

ولئن كان فعلا فى هذه الفترة قد حدث له ــ من غير أن يعترف بذلك بينه وبين نفسه ــ أنه تمنى الموت، فلكى يهرب لا من وطأة عذابه، بل على الأخص ليتخلص من رتابة صراعه المملة. ومع هذا كان خليقاً أن يتمنى الحياة إلى أن يحين وقت ينقطع فيه عن حبها، ولا يبقى لديها داع للكذب عليه، ويعرف أخيراً منها هل كانت فى ذلك اليوم الذى ذهب فيه لزيارتها بعد الظهر بين أحضان فورشفيل أم لا.

وكثيراً ما يحدث له فى عدة أيام متتابعة أن يشك أنها تعشق شخصاً آخر، فيلهيه هذا عن موضوع فورشفيل، وتصبح له غير ذات أهمية، مثل تلك التطورات الجديدة فى حالة مرضية مزمنة التى يبدو لفترة قصيرة من الزمن أنها تخلصنا من سابقاتها. بل وكانت هناك أيام لا يعذبه فيها أى شك، فيحسب أنه شفى، ولكنه فى الصباح

التالى، عندما يستيقظ يشعر فى نفس الموضع بنفس الألم، وهو إحساس كان فى اليوم السابق قد انطمس فى طوفان انطباعات أخرى، لكنه لم يكن قد تزحزح من موضعه : والواقع أن حدة هذا الألم هى التى أيقظته.

ولما كانت أوديت لم تمده بأى معلومات عن تلك الأمور البالغة الأهمية التى كانت تستغرق الكثير من وقتها فى كل يوم (مع أنه طويل التمرس بالدنيا ولذا فهو يعرف أن مثل هذه الأمور لن تكون إلا ملذات) فلم يكن فى وسعه أن يمتنع عن بذل جهده فى تخيلها، ويتحول ذهنه إلى خواء ثم يمر بأصبعه على جفنيه المكدودين وكأنه يمسح نظارته، ويتوقف تماماً عن التفكير. ثم تبرز لديه شواغل معينة كانت تعاود الظهور من حين إلى حين، ولها ارتباط غامض بأوديت وفيها التزامات نحو أقارب بعداء أو أصدقاء قدامى كان من عادتها أن تقول : إنهم وحدهم الذين تمنعها زيارتهم من مقابلته، فيبدو لسوان أنهم إطار حياتها الحتمى الذى لا يتغير. وبسبب نبرة صوتها التى تشير بها من حين لآخر إلى «اليوم الذى أذهب فيه مع صديقتى إلى ميدان السباق»، ويتفق أن يشعر بوعكة ويقول لنفسه «لعل أوديت تتعطف وتحضر لزيارتى» ويتذكر فجأة أن ذلك اليوم من تلك الأيام بالذات، فيقول لنفسه : «لا ! لا يصح أن أطلب منها الحضور. وكان ينبغى أن أفكر فى ذلك من قبل. فهى اليوم ذاهبة مع صديقتها إلى السباق وينبغى أن نكتفى بما هو ممكن فلا جدوى من إضاعة وقتنا فى تمنى أمور لا يمكن قبولها وهى

مرفوضة مقدماً » . وهذا الواجب المحتوم على أوديت بالذهاب إلى ميدان السباق ـ وهو الواجب الذى أذعن له سوان ـ لم يبد له ولا مفر منه فحسب فى حد ذاته ، بل هو مطبوع بطابع الضرورة الذى يجعل كل ما له صلة بها مشروعاً ومقبولا مستساغاً . وإذا حدث أن ردت أوديت تحية عابر فى الطريق فأثار هذا غيرة سوان ، ردت على أسئلته بربط هذا الشخص الغريب بأحد تلك الواجبات العليا التى حدثته عنها من قبل . فقالت مثلا : « هذا هو السيد الذى كان فى مقصورة صديقتى منذ أيام ، وهى الصديقة التى أذهب معها إلى ميدان السباق » . فيكفى هذا التوضيح للقضاء على شكوك سوان ، فلا مفر من أن يكون لهذه الصديقة ضيوف آخرون غير أوديت فى مقصورتها بالسباق ، ولكنه لم يحاول أن يكون انطباعاً متماسكاً عنهم :

آوه ! لكم كان يتمنى أن يعرف هذه الصديقة التى تذهب إلى ميدان السباق ، وكم تمنى لو دعته مع أوديت . لقد كان خليقاً عندئذ أن يلبى الدعوة مضحياً بكل معارفه حتى لو كانت هذه الصديقة عاملة منيكير أو بائعة فى متجر . وكان مستعداً أن يتجشم فى سبيل صحبتهم المشاق ويتكبد النفقات كما لو كانتا ملكتين : أليس بوسعهما أن تمداه بمسكن لألمه بما فى جعبتهما من معرفة بحياة أوديت الخاصة ؟ وبأى فرح وسرور كان يبادر إلى تمضية أيامه مع هذه أو تلك من البسطاء اللواتى تتمسك أوديت بصداقتهن إما بدافع سابق أو بدافع من بساطتها الطبيعية . ولكم كان يسره أن يجعل محله المختار إلى الأبد فى علية بيت حقير ولكنه مشتهى ، إليه تذهب أوديت من غير أن

تأخذه معها . فلو أنه عاش مع تلك الحائكة المتقاعدة ـ وهو على استعداد للتظاهر بأنه عشيقها ـ لظفر بزيارة أوديت له كل يوم . وفى تلك المواطن التى تكاد أن تكون خرائب كم تكون الحياة متواضعة وزرية ، ولكنها شهية محفوفة بالطمأنينة والسعادة ، بحيث كان يحيا فيها قرير العين إلى ما لا نهاية :

وكان يحدث عندما ترى شخصاً يدنو منها ولا يعرفه سوان ـ وهى معه ـ أن يلاحظ سوان على محياها نظرة الأسى التى كان قد رآها عليه عندما زارها بينما كان فورشفيل هناك . ولكن ذلك كان نادر الحدوث . لأنها فى الأيام التى كانت برغم كل شواغلها ومخاوفها مما يمكن أن يتقوله الناس تدبر لقاءها مع سوان كانت المسحة التى تغلب عليها هى الثقة بالنفس . وهذا أمر شديد الاختلاف ـ بل لعله ثأر كاف ـ من مشاعر الخوف التى كانت تنتابها فى أوائل أيام صداقتهما . ولعله رد فعل طبيعى لشعورها فى ذلك العهد الباكر بالتهيب فى حضرته ، بل وكانت فى غيابه عندما تكتب إليه تبدأ رسالتها إليه بقولها : « يا عزيزى إن يدى ترتجف إلى حد أننى لا أكاد أستطيع الكتابة » . (أو هذا على الأقل ما كانت تزعمه ، ولا بد أن جانباً من هذا الإحساس كان صادقاً ، وإلا لما كانت متلهفة على التوسع فيه والتركيز عليه) : إذن كان سوان محبباً إليها عندئذ . فأيدينا لا ترتجف إلا من أجل أنفسنا ، أو من أجل من نحبهم . أما عندما يكفون عن السيطرة على سعادتنا ، فكم نبدو على محيانا وفى غاية الهدوء والجسارة فى حضورهم ! فهى الآن حين تتحدث

معه أو تكتب إليه لم تعد تستخدم تلك الألفاظ التى كانت تنشد أن تشى بأنه ينتمى لها ، وتختلق المناسبات كى تقول له : يا عزيزى ، وعندما تتحدث عنه تقول له : « إنك كل ما لى فى الدنيا . هذا عطر صداقتنا وسوف أحتفظ به » . ولم تعد حين تكلمه عن المستقبل ، وعن الموت نفسه ، تحدثه وكأن تلك مغامرة عليهما أن يتشاركا فيها . ففى تلك الأيام الباكرة ، كانت تجيبه على أى شىء يقوله لها بإعجاب : « أنت لن تكون كسائر الناس ! » وترنو إلى رأسه الطويل الأصلع بعض الشىء الذى كان الناس يقولون عنه : « إنه ليس جميل السحنة ، ولكنه وسيم ، بتلك الخصلة من ذؤابته وتلك النظارة وتلك الابتسامة ! » ، وتبتسم بعد ذلك وتتنهد مدفوعة بالفضول لمعرفته على حقيقته كى تغدو عشيقته وتقول له :

— كم أتمنى أن أعرف ماذا بداخل رأسك !

أما الآن فأياً كان ما يقوله ، فإنها تقول له بشىء من الضيق أحياناً ، وأحياناً أخرى بنبرة التسامح والإغضاء :

— آه ! لا سبيل إذن إلى أن تكون مثل سائر الناس !

وتحدق فى رأسه الذى لم تكد همومه الأخيرة أن تترك فيه أثرها (وإن كان الناس يفكرون فى هذا الرأس الآن بعين المنوال العقلى الذى يتيح للمرء أن يكتشف معنى قطعة من الموسيقى السمفونية قرأ برنامجها ، أو أن يكتشف شبه طفل يعرف المرء أسرته ويقول : « إنه ليس قبيح الخلقة ، ولكنه غريب الشكل : فهذه النظارة ، وتلك الخصلة من الشعر ، وتلك الابتسامة ! » وبذلك يتخيلون أنهم

يدركون الحد الخفى الفاصل فى مدى أشهر قلائل بين رأس العاشق المتيم ورأس الديوث) وتقول :

— « أوه ! أتمنى لو استطعت أن أغيرك . فضع شيئاً من المخ فى رأسك هذا ! » .

ولما كان مستعداً على الدوام لتصديق ما يتمناه ، إن كان مسلك أوديت معه هو الذى يفسح للشك مجالا ، لذا فإنه يتهالك على كلماتها هذه ويقول لها : بوسعك ذلك إن شئت !

وحاول أن يبين لها أن راحته والسيطرة عليه وحمله على العمل مهمة نبيلة تتمنى نساء كثيرات أخريات لو سمح لهن بالإكباب عليها ، وإن كانت هذه المهمة النبيلة تبدو فى نظر سوان عدواناً غاشماً على حريته لا يمكن أن يطيقه . ويقول لنفسه :

— لو لم تكن تحبنى ولو قليلا لما تمنت لو تغيرت . فلكى تغيرنى لا بد لها أن تكثر من رؤيتى !

وهكذا تسنى له أن يتلمس فى هذه العيوب التى وجدتها فيه دليلا على الأقل على اهتمامها ، بل وربما أيضاً على حبها . والواقع أنها قلما أنعمت عليه الآن بشىء من هذا الحب ، حتى اضطر أن يتلمس دلائل اهتمامها به فى الأمور المتباينة التى كانت تحرم عليه إتيانها بين الحين والحين . فذات يوم أفضت إليه بأنها لا تسيغ حوذيه الذى كانت تعتقد أنه ربما كان يثير سوان ضدها ، وأنه على كل حال لا يبدى الهمة الكافية لتنفيذ أوامر سوان على النحو الذى تحب أن تراه . وشعرت بأنه يريد منها أن تقول له :

— لا تأت معه مرة أخرى حين تأتى عندى .

تماماً كما لو كان يتمنى لو قبلته . ولما كانت معتدلة المزاج لذا قالت هذه العبارة ، وتأثر جداً لسماعها . وفى ذلك المساء عندما كان يتحدث مع المسيو دى شارلى ـ الذى كان يرتاح إلى استطاعة الكلام معه عنها بصراحة ـ (فمعظم الملاحظات التافهة التى يتفوه بها الآن حتى مع أناس لم يسمعوا عنها قط ، كانت ذات صلة بأوديت) قال له :

— أعتقد بعد كل شىء أنها تحبنى . إنها لطيفة جداً معى الآن وما من شك فى أنها تهتم بما أصنع .

وعندما يكون منطلقاً إلى بيتها ، مستقلا عربته مع صديق سينزل فى بعض الطريق ويقول له الصديق :

— لست أرى لوردان Loredan على مقعد الحوذى .

عندئذ يجيبه سوان بفرح مغلف بالأسى :

— لا وربى ! الحق أقول لك : إنى لا أجسر أن أركب مع لوردان عند توجهى إلى شارع لا بيروز La Pérouse ، لأن أوديت لا تحب ذلك ، وتعتقد أنه لا يناسبنى . وماذا عسى أن يصنع المرء ؟ النساء يا صاحبى هن النساء ! إنها قمينة يا صاحبى أن تغضب . فلا يسعنى إلا أن أصحب ريمى Rémi إلى هناك : وإلا ساءت العاقبة !

هذه الأساليب الجديدة غير المبالية والفاترة والتى تنم على الضيق فى معاملة أوديت لسوان لا شك فى أنها جعلته يتألم ويتعذب ، ولكنه لم يدرك إلى أى مدى كان يتعذب ، لأن برود أوديت تجاهه تزايد

تدريجاً يوماً فى إثر يوم ، فلم يستطع أن يدرك الفارق إلا بمضاهاة حالها معه اليوم إلى ما كانت عليه معه فى البداية . وقد صار هذا التغير جرحه الغائر الخفى فى الوقت الراهن ، ذلك الجرح الذى يؤلمه ليل نهار . وكلما أحس أن أفكاره تقترب منه أسرع بالانحراف بها إلى منحى آخر كى يتجنب العذاب الممض . ويقول لنفسه :

— لقد غبر وقت كانت أوديت تحبنى فيه أكثر من هذا .

ولكنه لم يكوّن قط صورة محددة لذلك الوقت . وكما أنه كان لديه فى مكتبه صوان كان يحرص على ألا ينظر إليه ، ويشيح عنه كلما دخل الحجرة أو غادرها ، لأن فى أحد أدراجه زهرة الكريزتيم التى أعطته إياها فى إحدى الأمسيات الأولى عندما أخذها فى عربته إلى بيتها ، وفيه أيضاً الخطابات التى قالت فيها :

— لماذا لم تنس هنا قلبك أيضاً ؟ ما كنت عندئذ لأعيده إليك !

وفيها أيضاً قالت :

— فى أى ساعة من النهار أو الليل أردتنى ما عليك إلا أن ترسل إلى كلمة ، فآتى إليك لتصنع بى ما تشاء !

وهكذا كان هناك مكان فى قلبه لا يسمح أبداً لأفكاره أن تدنو منه أكثر مما ينبغى ، ويدفعها بعيداً إن اقتضى الأمر إلى مسار طويل من الاستدلالات حتى لا تصل إلى هذا الموضع الخطر الذى تثوى فيه ذكريات أيامه السعيدة .

* * *

ولكن حذره البالغ التدقيق أحبط ذات مساء عندما خـرج لحضور حفل . وكان الحفل فى قصر المركيزة دى سانت إيفيرت Saint Euverte ، فى آخر سهرة بذلك الموسم من تلك السهرات التى تدعو فيها الناس للاستماع إلى الموسيقيين الذين سيحيون فيما بعد حفلاتها الموسيقية الخيرية . وكان سوان ينوى الذهاب إلى كل أمسية من تلك الأمسيات على التوالى ، ولكنه لم يتسن له قط أن يحزم أمره . وبينما هو يرتدى ثيابه للذهاب إلى هذه الحفلة تلقى زيارة من البارون دى شارلى الذى جاء يعرض عليه الذهاب معه إلى قصر المركيزة إن كانت صحبته يمكن أن تعين سوان على عدم الاستغراق فى السأم عندما يصل إلى هناك ، وتقل بهـذا تعاسته . ولكن سوان شكره قائلا :

ـ لن تستطيع أن تتصور مبلغ سرورى بصحبتك ، ولـكن أعظم سرور يمكن أن تمنحنى إياه أن تذهب بدلا من هذا لزيارة أوديت ، فأنت تعلم مبلغ تأثيرك ونفوذك العظيم عليها . ولا أظنهـا ذاهبة الليلة إلى أى مكان ، اللهم إلا إذا كانت ذاهبة لزيارة حائكة ثيابها العجوز . وأنا واثق بأنها ستسر كثيراً إن أنت ذهبت معهـا إلى هناك . ولسوف تجدها على كل حال فى بيتها قبل ذلك . وحاول أن تسليها ، وأن تمحضها أيضاً شيئاً من نصحك القيم . وليتك ترتب شيئاً للغد يمكن أن يروقها ، شيئاً يمكن لثلاثتنا أن نصنعه معاً وحـاول أن تجس نبضها أيضاً بخصوص الصيف ، لتعرف هل هناك شىء ما تريد أن تصنعه ، مثل رحلة بحرية نقوم ثلاثتنا بها ، أو أى شىء يمكنك أن

تفكر فيه . قلست مزمعاً أن أراها الليلة شخصياً ، ولكن إن كانت مع هذا تريد منى أن آتى ، أو إن وجدت أنت منفذاً لذلك ، فما عليك إلا أن توجه لى سطراً فى قصر مدام دى سانت إيفيرت حتى منتصف الليل ، أما بعد ذلك فسوف أكون هنا . وألف شكر لك على كل ما تصنعه لأجلى ، فأنت تعرف شعورى من نحوك !

ووعده صديقه أن يذهب وينفذ رغبة سوان بمجرد أن ينزله أمام باب دار آل سانت إيفيرت ، الذى وصـل إليه سوان هـادئ البال لأن المسيو دى شارلى سوف يقضى الأمسية فى شارع لابيروز ، ولكنه فى حالة عدم اهتمام أسيف بكل ما لا صلة له بأوديت ، ولا سيما تفصيلات الحياة الوجيهة الأنيقة ، وهى حالة تغلف هذه التفصيلات بسحر يوجد فى كل شىء وأى شىء لم يعد موضوعاً لرغباتنا .

وعنـدما ترجل سـوان من عربته أمام المـدخل الذى تحرص المضيفات على تقديمه لضيوفهن فى المناسبات الاحتفالية على أفخم وجه ويتحرين فى ذلك المظهر التقاليد وبذاخة الزى ، راق سـوان أن يكتشف ورثة وخلفاء « نمور » بلزاك ـ وهم الآن على صـورة حجاب ـ الذين يمشون عادة فى ركاب سيدتهن عندما تغادر دارها ، ولكنهم الآن فى كامل أزيائهم بالأحذية والقبعات مصطفون خارج الأبواب ، أمام البيت فوق الممر المرصوف بالحصباء ، أو خـارج الإسطبلات ، على نحو ما يصطف البستانيون للتفتيش أمام أحواض الزهور المختلفة . واستيقظ ميله الغريب إلى تسقط أوجه الشبه بين البشر الأحياء والصور التى فى المتاحف ، ولكن بصورة أشد إيجابية



ولكنهم الآن فى كامل أزيائهم بالأحذية والقبعات مصطفون خارج الأبواب ، أمام البيت فوق الممر ..

وتعميماً ، فهو يرقب الآن المجتمع فى جملته وقد انفصل عنه ويرى فيه سلسلة من الصور :

ودخل حجرة العباءات التى كان من عادته أن يدخل إليها بمعطفه عندما كان من أهل الوجاهة الحريصين عليها ، ليبرز منها فى ثياب السهرة وذهنه مشغول عن أى انطباع لما يجرى فيها ، لأنه كان فى الدقيقتين اللتين تقضيهما هناك يفكر فى الحفل الذى غادره أو الحفل الذى سيدخله من توه . ولكنه الليلة تنبه إلى ظاهرة رآها لأول مرة ، فإذا حفنة الحجاب الضخام عند مجيء هذا الضيف المتأخر وسنانين على السناديق والأرائك هنا وهناك ، فوقفوا ينفضون الكرى عنهم وتجمعوا حوله . وتقدم منه أحدهم ، وهو ذو سحنة بادية الشراسة ، وليس ببعيد الشبه بالجلاد فى صور معينة من عصر النهضة تمثل تنفيذ الإعدام والتعذيب وما إلى هذا ، وشرع يأخذ منه أشياءه : ولكن شراسة تحديقه الفولاذى خففت منها نعومة قفازه القطنى بحيث أحس سوان فيه عند تقدمه إليه أنه يزدرى شخصه تمام الازدراء ويحتفى بقبعته كل الحفاوة ، لأنه تناولها بعناية فائقة فوشت حركته برقة بالغة زادها وضوحاً صدورها من هيكله الضخم البالغ القوة ، ثم سلمها لأحد أتباعه ، وهو صبى حيى بدا عليه الذعر الذى عبر عنه بنظراته الغاضبة فى كل اتجاه ، فكأنه حيوان ضار تملكه الهياج فى الساعات الأولى لوقوعه فى الأسر :

وعلى بعد عدة خطوات وقف فتى ضخم فى بزة الخدم الرسمية كالصنم الذى لا نفع فيه ولا جدوى ، وكأنه ذلك المحارب

الزخرفى الذى يراه المرء فى تصاوير منتينيا Mantegna المتلاطمة مستغرقاً فى أحلامه متكئاً على درعه ، بينما الجميع من حوله يقاتلون غرقى فى الدماء والموت ، بمعزل عن مجموعة رفاقه الذين تحلقوا حول سوان ، وقد عقد العزم على أن يظل غير متورط فى هذا المشهد الذى يتابعه بعينيه الخضراوين القاسيتين ، وكأنما هذا المشهد مذبحة الأبرياء أو استشهاد القديس يعقوب . وبدا فعلا وكأنه انبثق من هذه السلالة المنقرضة – هذا إن كانت قد وجدت إطلاقاً اللهم إلا فى رسوم إيرمتيانى Eremitani الحائطية ، حيث احتك بها سوان وحيث لم تزل غارقة فى أحلامها – ثمرة تلاقح تمثال كلاسيكى وأحد نماذج بادوان Paduan ، أو أحد سكسونيى ألبرت ديرر Diiter . وخصلات شعره الأحمر الجعد ة بطبيعتها ملتصقة برأسه بالبريانتين تبدو كتلك الخصلات التى ترى فى أعمال النحت الإغريقية التى لم يكف الرسام ابن منتوا Mantua عن دراستها ، والتى لئن كان قصد مبدعها أن يمثل الإنسان فحسب ، إلا أنه على الأقل يجتهد أن يستخرج من الخطوط الخارجية للإنسان تنويعات من الثراء وكأنها مستعارة من كل الطبيعة الحية ، حتى أن شعر الرأس بتموجاته اللامعة ، أو خصلاته المرجلة يمكن أن توحى فى آن واحد بقبضة من أعشاب البحر وسرب من الحمائم وحوض من نبات المكحلة الحدقية وظهر أفعوان يتلوى .

وكان هنالك حجاب غيره لا يقلون عنه ضخامة وفراهة واقفين على درجات السلم العريض الفخم الذى يشبه بفضل وجودهم الزخرف

وجودهم ارتقاء سلالم قصر الدوج ، وسلم العمالقة . وها هو سوان يضع قدميه فوقه ، حزيناً لأن أوديت لم تطأه قط بقدميها . وآه لو أنه أسعده زمانه فراح بدلا من هذا يرقى بسرعة الدرج المظلم السيئ الرائحة الذى يتعرض الصاعد فيه للسقوط وكسر رقبته ، كى يصل إلى مسكن الحائكة الصغير ، الذى كان يسعده أن يدفع فى عليته ثمن لوج أسبوعى فى الأوبرا لقاء الحق فى قضاء الأمسية هناك عندما تأتى أوديت ، بل وقضاء أيام أخرى أيضاً فى الحديث عنها ومعايشة أناس كان من عادتها أن تراهم عندما لا يكون هو هناك ، ويبدو له أنهم يحتفظون لأنفسهم بجانب من حياة عشيقته أكثر واقعية ويستعصى على النفاذ إليه لأنه أشد خفاء من كل ما يعرفه عنها . فعلى هذه السلالم المشتهاة المفضية إلى مسكن الحائكة العجوز – لأنه ليس هناك سلم آخر فى ذلك المبنى للخدم – يرى المرء فى المساء أمام كل باب زجاجة لبن فارغة غير مغسولة ، انتظاراً لدورة الصباح ، فوق دواسة الباب . أما هنا ، على هذه السلالم التى يرتقيها سوان الآن ، فرتل من الخدم ، وبواب وكبير خدم (وهم رجال قضوا سائر الأسبوع فى شبه استقلال بمجالهم الخاص ، ويتناولون الطعام فى مأواهم وحدهم مثل صغار التجار ، وقد ينحدرون غداً إلى خدمة طبيب ناجح أو أحد أقطاب الصناعة) حريصين على تنفيذ كل التعليمات التى صدرت إليهم قبل أن يسمح لهم بارتداء الزى الرسمى المزركش الذى لا يرتدونه إلا فى فترات متباعدة ولا يحسون فيه أنهم على سجيتهم . فهم يقفون فى أبهة وكأنهم تماثيل القيصرية . وكان هناك حاجب عملاق

يرتدى زى الحرس السويسرى ويشبه قندلفت الكنيسة يقرع الأرض بعصاه كلما مر به قادم جديد :

ووصل سوان إلى قمة الدرج وقد صعد فى أعقابه خادم شاحب السحنة تتدلى من مؤخرة رأسه ضفيرة من الشعر على شكل ذيل الخنزير فكأنه قندلفت فى بعض صور جويا ، ومر بمكتب ، فوقف الخدم بوقار وسجلوا اسمه . ثم عبر بعد ذلك بهواً صغيراً جلت لعينيه عندما دخل – على نحو ما تعد حجرات معينة لتكون إطاراً لعمل فنى واحد تستمد منه الحجرة اسمها ، ولا يوجد شىء فى الحجرة العارية سواه – حاجباً شاباً وقد انحنى جسمه بعض الشىء إلى الأمام ، وله وجه قرمزى بدا كأن الشرر ينقدح منه ، وهو مستغرق فى تهيبه ، وجده محملقاً فى السجف المطرزة التى تحجب باب الحجرة التى تعزف فيها الموسيقى ، بنظرة يقظة إلى حد الاستماتة ، فبدا بجمود وقفته العسكرية كالمتعبد الراسخ الإيمان ، وكأنه ملاك أو ديدبان يطل من فوق برج قلعة أو كاتدرائية تحسباً لدنو عدو ، أو ترقباً لساعة الدينونة :

ولم يبق على سوان إلا أن يدخل الآن قاعة الحفل الموسيقى ، ففتح خادم مثقل بالسلاسل الأبواب أمامه وانحنى له انحناءة كبيرة وكأنما يسلمه مفاتيح مدينة مهزومة . ولكنه فكر فى البيت الذى كان من الممكن أن يكون الآن فيه، لو أن أوديت سمحت له بهذا ، واعتصر قلبه تذكره للمحة من زجاجة لبن فارغة فوق دواسة باب ؛ وبسرعة استعاد ثباته ، وعلى الجانب الآخر من سجف الباب

المطرزة اختفى من ناظريه مشهد الخدم وبدا له المدعوون : ومع هذا بدت له دمامة هذه الوجوه التى كانت مألوفة جداً له بالطبع فى الغالب وكأنها جديدة ، فملامحها بدلا من أن تكون رموز منفعة عملية لتحديد هوية هذا الرجل أو ذاك ، وتمثل الجرى وراء الملذات أو تجنب صنوف السأم أو الانحناءات التى يجب أن يردها ، تراءت له ساكنة فى استقلالها الذاتى المتمثل فى استداراتها وزواياها . وفى هؤلاء الرجال الذين رأى سوان نفسه مدسوساً بينهم الآن لم يجد شيئاً (حتى فى المونوكل الذى يلبسه الكثيرون منهم ، وكان فيما مضى يميز به بعضهم من بعض) يدل على تفرد فى شخصية كل منهم . ولم يتنبه لوجود الجنرال دى فوربرفيل Forberville والمركيز دى بريوتيه Bréauté اللذين كانا يتجاذبان الحديث داخل الباب مباشرة ، إذ لعله لم ير فيهما أكثر من شكلين فى صورة ، مع أنهما كانا صديقيه القديمين النافعين اللذين زكياه لعضوية الجوكى كلوب وكانا شاهديه فى المبارزات . وبدا مونوكل الجنرال المثبت كأنه شظية قنبلة فوق وجهه المغطى بالندوب وسط جبين بدا نصف أعمى ، فكان المونوكل عين سيكلوب وحيدة ، حتى لقد خيل إليه أن هذا المونوكل جرح كبير فظيع قد يكون مدعاة للمجد أن يصاب به ولكن ليس من اللائق يقيناً أن يعرضه للأنظار . أما المسيو دى بريوتيه فبدا كأنه يحمل شارة احتفالية ، وقد لبس قفازاً لؤلؤى اللون وربطة عنق بيضاء ، مستعيضاً بمونوكله عن النظارة العادية (كما هو شأن سوان) عندما يذهب إلى المناسبات العامة ، وقد

أطلت من عينه الأخرى نظرة تفيض بالمودة وتومض دائماً فى اتجاه السقوف المرتفعة جذلان ببهجة الحفلات وطرافة البرامج وفخامة المرطبات .

وقال الجنرال مرحباً بسوان :

ـ أهلا بك ! أأنت هنا ؟ إنى لم أرك منذ أجيال .

ولما فطن إلى نظرة التوتر على محياه خطر له أن مرضاً وبيلا هو الذى حجبه عن المجتمعات ، فاستطرد قائلا :

ـ أنت على خير ما يرام أيها الصديق !

فى حين التفت المسيو دى بريوتيه قائلا لأحد الروائيين يلبس مونوكلا :

ـ ماذا تصنع هنا بحق السماء يا عزيزى ؟

وكان هذا المونوكل وسيلته الوحيدة لتحرياته وتحليلاته النفسية للشخصيات ، فأجابه قائلا وهو يتصنع الوقار والأهمية :

ـ جئت للملاحظة !

وكان مونوكل المركيز دى فوستيل Forestelle صغيراً جداً وبلا إطار ، فيضطر إلى تقليص العين التى يضعه عليها تقلصاً أليماً بلا انقطاع ، فكأنه هناك غضروف زائد عن الحاجة ، ووجوده هناك غير مفهوم ، فأضفى ذلك على وجهه رهافة حزينة ، مما جعل النساء يحسبن أنه قادر على تحمل المعاناة الرهيبة فى الحب والغرام ؛ أما مونوكل المسيو دى سان كنديه St. - Candé فتحيط به حلقة كبيرة كأنه كوكب زحل ، وهو مركز الجاذبية فى وجه تتجمع

ملامحه من جديد فى كل لحظة بالنسبة لهذه العدسة ، فى حين يجتهد أنفه الأحمر البارز ، وشفتاه الساخرتان المنتفختان فى الارتفاع إلى مستوى شعلة الفطنة التى تشع فى عدسته اللامعة ، ويرى نفسه موضع إعجاب من الشابات الأنيقات الفاسقات اللواتى تبعث فيهن هذه الملامح أحلام المفاتن الصناعية والنشوة الشهوانية . ومن خلفه وقف المسيو دى بالانسى Pelancy الذى يبدو رأسه مثل رأس السرطان البحرى الكبير بعينيه الجاحظتين ، اللتين تتحركان ببطء إلى أعلى وأسفل ، فى تيار هذا التجمع البهيج ، فاتحاً فكيه الهائلين كل لحظة كأنما يبحث عن اتجاهه ، فبدا كأنه بمونوكله يحمل فوق شخصه قطعة رمزية من الجدار الزجاجى لمتحفه المائى ، وهى قطعة المقصود بها أن توحى بوجود الكل ، مما ذكر سوان ـ وهو المعجب المتحمس للوحة الرذائل والفضائل فى بادوا ـ بالظلم الذى بدا إلى جواره غصن مورق، يثير فى النفس فكرة الغابات التى فى جوفها عرينه .

وكان سوان قد حث الخطى قدماً فى الحجرة ، تحت ضغط مدام دى سانت إيفريت لكى يصغى إلى آريا من معزوفة أورفيو Orfeo كانت تؤدى على الفلوت ، فاتخذ لنفسه موضعاً فى ركن ، كان أفق رؤيته منه محدوداً للأسف بسبب وجود سيدتين فى منتصف العمر جالستين متجاورتين ، وهى المركيزة دى كمبرمير Cambremer والفيكونتيس دى فرنكتو Franquetot . ولما كانتا ابنتى عم ، فقد اعتادتا قضاء الوقت فى الحفلات جالستين فى الحجرات ،

وكل منهما قابضة على حقيبة يدها وتتبعها ابنتها ، وكل منهما تبحث عن بنت عمها كما يفعل الناس فى محطات السكك الحديدية ،ولا يهدأ لها بال إلى أن تحجزا بالمروحتين أو بمنديلين كرسيين متجاورين • ولما كانت مدام دى كمبريمير لا تكاد تعرف أحداً ، فهى أشد ما تكون سروراً بالعثور على رفيقة . أما مدام دى فرنكتو فهى على العكس ذات شعبية كبيرة ، ولكنها رأت أنه مما يزيد فى أصالتها أن تبين لكل صديقاتها الأنيقات أنها تفضل على صحبتهن صحبة ابنة عم ريفية مغمورة تربطها بها ذكريات طفولة مشتركة .

وراح سوان يرقب فى أسى ساخر هاتين السيدتين وهما تصغيان إلى المعزوفة (وهى معزوفة ليست Liszt على البيانو المسماة « القديس فرنسيس يعظ الطيور ») التى أعقبت معزوفة للفلوت ، وتتابعان العازف البارع فى تحليقه .: وكانت مدام دى فرنكتو تنظر بقلق وتكاد عيناها تتطايران من رأسها وكأن المفاتيح التى تجرى عليها أنامل العازف بكل خفة سلسلة من الأراجيح البهلوانية الشاهقة يمكن أن يهوى من فوق أى منها من ارتفاع ثلاثين متراً ليرتطم بالأرض ، وتختلس بين الحين والحين نظرة تفيض بالدهشة وعدم التصديق إلى رفيقتها ، وكأنها تقول :

– هذا مستحيل ! ما كنت لأصدق أبداً أن بشراً يمكن أن يصنع هذا كله !

ومدام دى شامبرمير كانت قد تلقت تعليماً موسيقياً سديداً ، لذا كانت توقع اللحن بحركات من رأسها ، فكأنها تحولت إلى بندول

الإيقاع الموسيقى تزداد سرعته من هذه الكتف إلى تلك (مع نظرة اندماج تطل من عينيها كنظرة المريض العاجز عن تحليل ألمه وعن التحكم فيه ، فهو يقول « وما حيلتى ؟ ») حتى أن قرطيها الألماسيين جعلا يتشابكان فى أطراف صدارها ، وتضطر لتسوية عنقود العنب الأسود الذى تزين به شعرها ، من غير أن تتوقف عن سرعتها المتزايدة .

وعلى الجانب الآخر (إلى الأمام قليلا) من مدام دى فرنكتو رأى المركيزة دى جالردون gallardon مستغرقة فى تأملاتها ، وهى قريبة لعائلة جيرمنت guermantes التى منها تستمد شهرتها العامة ، ومجدها الخفى الذى لا يخلو من شائبة عار ، ولذا كانت ألمع عقيلات هذه العائلة يتباعدن دائماً عنها ، وربما أيضاً لأنها كانت سيدة عجوزاً مملة ، أو لأنها عجوز ذات ماض فاضح ، أو لأنها سليلة الفرع الأدنى من سائر الأسرة ، أو ربما أيضاً بدون سبب على الإطلاق . ولما وجدت نفسها بجوار سيدة لا تعرفها – فقد كانت فى هذه اللحظة جالسة بجوار مدام دى فرنكتو – لذا تألمت كثيراً لشعورها بأن قرابتها لآل جيرمنت لا يمكن إبرازها بحروف واضحة للعيان مثل تلك الحروف تسجل فى وضع عمودى فى رسوم الموزايكو بالكنائس البيزنطية بجوار الشخصية المقدسة لتعرف الناس بما يقوله هذا القديس . وهى فى هذه اللحظة كانت تفكر فى أنها لم تتلق قط دعوة، بل ولا زيارة من ابنة عمها الشابة الأميرة دى لوم Laumes فى غضون السنوات الست التى انقضت منذ زواج الأميرة : وملأها

هـذا الخاطر بالغضب وأيضاً بالزهو ، لأنهـا قالت لكل من أظهرن دهشتهن لعدم رؤيتها فى قصر مدام دى لام إنها لا تذهب إلى هناك تحاشياً للقاء الأميرة ماتيلد Mathilde هناك ، وذلك ما لا يمكن أن تغتفره لهـا أسرتها وهى أشد الأسرات تمسكاً بالملكية الشرعية ، ومن كثرة ما كررت ذلك صدقت أن هـذا هو السبب فى عـدم زيارتها لابنة عمها الشابة . أجل إنها تذكرت أنها سألت مدام دى لام عدة مرات كيف يمكنهما أن تلتقيـا ، ولكن هـذا التذكر كان غامضاً ، ثم طمست هذه الذكرى المذلة بعض الشىء بأن غمغمت لنفسها :

ــ لست مطالبة على أى حال أن أخطو الخطوة الأولى ، فأنا أسن منها بعشرين سنة على الأقل !

وتقوت بهذه الكلمات غير المسموعة فبسطت كتفيها بزهو إلى الخلف حتى أوشكتا أن تفارقا صدرها ، فى حين كان رأسها الذى يكاد يوازيهما أفقياً يذكر الرائى بالرأس الملصق لدراج الغابة حين يحمله الخدم إلى المـائدة مزيناً بالريش . وليس ذلك لأنها تشبه على الإطلاق طائر الدراج ، فقامتها قصيرة بدينة تنم على الذكورة ، ولكن المهانات المتكررة أمالتهـا إلى الوراء ، على نحو ما تميـل إلى الخلف شـجرة ضاربة الجـذور على حافة هاوية كى تحتفظ بهـذا الرجوع إلى الخلف توازنها . ولما كانت مضطرة كى تعزى نفسها عن عدم حظوتها بنفس مستوى سائر آل جيرمنت أن تعيد على نفسها باستمرار أن ذلك راجع إلى صرامة مبادئها التى لا تعرف الهوادة ،

وتزهو بأنها لا تكاد ترى أحداً منهم ، لذا صاغ هذا التكرار جسمها بالتدريج وأضفى عليها انتصابة يقبلها العامة على أنها علامة على العراقة ، بل وكانت تومض لهـا عيون السادة المسنين فى النوادى . فلو أن أحداً أخضع حديث مدام دى جلاردون لذلك النمط من التحليـل الذى يستنتج من كثرة استخدام ألفاظ معينة مفتاح رسالة مكتوبة بالشفرة ، لأدرك على الفور أنه ما من عبارة ترد فى كلامها أكثر من « فى بيت بنات عمى آل جيرمنت » و « فى بيت عمتى جيرمنت » و « صحة ألزيار Alzéar دى جيرمنت » و « مقصورة بنت عمى جيرمنت » . وإذا حدثها أحد عن شخصية ممتازة أجابته بأنهـا وإن لم تكن تعرفه شخصياً ، إلا أنها سبق لهـا أن رأته مئات المرات فى دار عمتها جيرمنت . ولكنها تنطق بهذه العبارة بنبرة باردة كالثلج وصوت أجوف ، بحيث يتضح للسامع على الفور أنها لئن لم تعرف هـذه الشخصية المشهورة شخصياً ، فبسبب مبـادئها العتيدة العنيـدة المتصلبة التى من أجلها تمد كتفيها للخلف كى تريحهما كما يفعل الذين يتدربون على اللياقة البدنية بمط الأجهزة التى تنمى اتساع صدورهم.

وفى هذه اللحظة وصلت الأميرة دى لوم التى لم يكن حضورها متوقعاً لدى مدام دى سانت إيفيرت هذا المساء . ولكى تظهر أنهـا لا ترغب فى أى انتباه خاص يوجه لمقامها العالى فى بيت جاءت إليه على سبيل التنازل ، لذا دخلت القاعة وقد ضمت ذراعيها إلى جنبيها حتى مع عدم وجود زحام يضغط عليها ، ولم يحاول أحد أن يمر بجوارها ، وتعمدت البقاء فى المؤخرة متظاهرة بأنها هكذا فى مكانها

الصحيح ، شأن الملك الذى يقف فى طابور الانتظار على أبواب المسرح الذى لم يسبق إخطار إدارته برغبته فى الحضور — حتى لا تبدو وكأنها تعلن عن وجودها وتطالب بالرعاية التى هى من حقها وحددت نطاق نظرها فى رسم على البساط تحت قدميها ، أو تطريز فى الجزء الأسفل من ثوبها ، وهى واقفة فى الموضع الذى بدا لها أشد ما يكون تواضعاً (مع علمها تماماً أن صيحة سرور وابتهاج ستند من مدام دى سانت إيفيرت بمجرد أن تلاحظ وجودها) فجاءت وقفتها بجوار مدام دى كمبريمير التى لم تكن تعرفها . ولاحظت العرض الحركى الصامت الذى تبديه جارتها بحركاتهامعربة عن ولعها بالموسيقى ، ولكنها لم تحذ حذوها . وليس معنى هذا على الإطلاق أنها إذ رضيت أن تقضى بضع دقائق فى دار مدم دىسانت إيفيرت لم تكن راغبة فى أن تبدو لطيفة وودوداً بقدر الإمكان لربة الدار ، وكل ما هناك أن الأميرة كانت تفرق من كل ما تسميه « مبالغة » ، وكانت تحرص على أن تبين للناس أنها لا يمكن أن تقدم على إظهار المشاعر بطريقة تجافى الأسلوب المتبع فى الدائرة الاجتماعية التى تخالطها وتعيش فيها . وإن كان إظهار المشاعر يترك فى نفسها دائماً أثراً ، شأن الطبائع الحيية التى تقترن بميل للمحاكاة ، حتى ولو كان ذلك فى بيئة دون بيئتها . ولذا بدأت تسأل نفسها : أفلا تكون هذه الإيماءات الإيقاعية سلوكاً لابد أن يلازم الإصغاء للموسيقى المعزوفة ، وهى موسيقى تختلف عن النوع الذى ألفت سماعه كل الاختلاف . وسألت نفسها أيضاً : أفلا يكون إحجامها

عن أداء هذه الحركات علامة على أنها عاجزة عن فهم هذه الموسيقى ، وفى ذلك إساءة إلى ربة الدار ؟ وتتيجة لهذا ، رغبة منها فى التوفيق بين اتجاهيها المتناقضين على التوالى ، راحت فى لحظة ما تسوى أربطة كتفها أو تتحسس فى شعرها الذهبى كرات زينته الثمينة من الحلى ، بينما هى تدرس باهتمام بارد جارتها المندمجة مع اللحن ، وفى لحظة أخرى تواكب إيقاع النغم بضربات من مروحتها . ولكنها تأكيداً لاستقلالها توقع نغمة أخرى غير التى يعزفها البيانو .

ولما فرغ العازف من معزوفة ليست وشرع فى افتتاحية لشوبان Chopin التفتت مدام دى كمبريمير إلى مدام دى فرنكتو بابتسامة رقيقة حافلة بالذكريات الحميمة وبالرضا عما سمعت (رضا قاض متخصص) . وكانت قد تعلمت وهى فتاة كيف تحب جمل شوبان الموسيقية الملتوية الطويلة العنق ، البالغة المرونة ، التى تلتمس مستقراً لها بعيداً عن نقطة انطلاقها بمسافة شاسعة ، ثم تعود إلى مسالكها المتعرجة بدقة بالغة ، تبتعث منك صيحة انتشاء عالية فيها قلق ممض يعتصر القلب ، ولرنينها رجع ، كأنك طرقت وعاء من البلور الرهيف فظل يهتز إلى آخر مدى .

لقد تربت فى بيت ريفى مع قلة من الأصدقاء أو الزوار ، ولا تكاد تدعى إلى حفل راقص ، فتشبع ذهنها وتشوش فى وحدتها بقصرها الريفى ، بتخيل خطوات راقصى الفالس الوئيدة حيناً والسريعة حيناً آخر ، وهى تتصور أزواج الراقصين ، وقد لهثت أنفاسهم ، وتجمعهم فى مخيلتها كباقات الأزهار ، وتغادر قاعة الرقص برهة لتصغى

لتأوهات الريح بين أشجار الصنوبر على شاطئ البحيرة ، وإذا بها ترى فجأة شاباً نحيلا يقترب منها ، شديد الاختلاف عن أى عاشق من البشر ، وله صوت رنان وغريب الوقع وقفازه أبيض اللون ، ولكن هذا الجمال العتيق الطراز لهذه الموسيقى يبدو أنه ذوى ، لأنها خسرت منذ بضع سنين تقدير « أهل الذوق الموسيقى » الحقيقى ، ففقدت امتيازها وسحرها ، بل إن فاسدى الذوق أيضاً لم يعودوا يجدون فيها إلا لذة معتدلة الجودة لا يحبون الإقرار بها . وألقت مدام دى كمبريمير نظرة مختلسة خلفها . وكانت تعرف أن زوجة ابنها الشابة (الشديدة الاحترام لأسرتها الجديدة النبيلة ، اللهم إلا فى الأمور المتعلقة بالذهن والثقافة ، فيما أنها ألمت بشىء من الهارمونى والأبجدية الإغريقية ، لذا كانت تعد نفسها بالغة الاستنارة) تمقت شوبان ، وتمرض عندما تسمع موسيقاه . ولما ألفت نفسها بعيدة عن أنظار هذه الفاجنرية الفاحصة لأنها كانت جالسة بعيداً بعض الشىء وسط مجموعة من بنات سنها ، لذا تركت مدام دى كمبريمير نفسها تطفو على تيار ذكريات وإحساسات لذيذة .

وتأثرت الأميرة دى لوم أيضاً ، فمع أنها كانت عاطلة من أى موهبة موسيقية خاصة ، فإنها قبل خمسة عشر عاماً تلقت تعليماً على يد معلمة موسيقى فى حى سان جيرمان ، وهى امرأة عبقرية عضها الفقر بنابه فى أخريات حياتها ، فشرعت وهى فى سن السبعين تعلم الموسيقى لبنات وحفيدات تلميذاتها القدامى : وقد توفيت الآن هذه السيدة ، ولكن طريقتها وأصداء من لمساتها الساحرة كانت

تبعث حية بين الحين والحين فى أصابع تلميذاتها ، حتى من كن منهن فى النواحى الأخرى هابطات المستوى فتركن الموسيقى ولم يكدن يفتحن البيانو . وهكذا استطاعت مدام دى لوم أن تترك العنان لرأسها كى يهتز جيئة وذهاباً ، واعية تماماً بالباعث لها على هذا ، وبتقدير تام للطريقة التى يؤدى بها العازف هذه الافتتاحية ، فقد كانت تعرفها عن ظهر قلب ، بل إن النغمات الختامية للجملة التى بدأها جعلت ترتسم بالفعل على شفتيها . وتمتمت : « ما أبدع هذا » فى أناقة ورومانتيكية جعلت شفتيها تتضاغطان كأنهما بتلات زهرة جميلة البرعم ، وتوافقت مع هذه الإيماءة نظرة انسجام أطلت من عينيها ، فومضتا بنظرة عاطفية يشوبها الغموض .

وفى هذه الأثناء كانت مدام دى جلاردون قد وصلت إلى حد أن قالت لنفسها : كم يضيق صدرها لقلة الفرص التى تلتقى فيها بالأميرة دى لوم ، لأنها انتوت أن تلقنها درساً بعدم رد انحناءتها ، ولم تكن تدرى أن بنت عمها فى القاعة . ولكن حركة من رأس مدام فرنكتو كشفت عن وجود الأميرة . وعلى الفور اندفعت مدام دى جلاردون نحوها ، مزعجة فى هذا الاندفاع جميع جاراتها ، وإن كانت مصممة على الاحتفاظ بتباعدها وبرودها الثلجى اللذين يذكران كل الحاضرين بأنها لا تريد الاحتفاظ بصلات الصداقة مع شخصية قد تجد نفسها فى بيتها ذات اليوم ملاصقة للأميرة ماتيلد ، كما أنه ليس عليها أن تتقدم منها لأنها ليست من جيلها ، فرأت أن تخلط مظهر الكرامة والتحفظ ذلك بملاحظة تبرز إقدامها

على المفاتحة بالكلام وتجبر الأميرة على مجاذبتها الحديث ، وهكذا عندما وصلت إلى ابنة عمها قالت مدام دى جلاردون بتجهم ممدودة اليد ، كأنما تحاول تقدم بطاقة : «كيف حال زوجك ؟ » بنفس النبرة المتلهفة التى كانت خليقة أن تستخدمها لو أن الأمير كان مصاباً بمرض خطير ، فانفجرت الأميرة فى ضحكة كانت من سماتها ، وقررت أن تبين للجمع كله أنها تسخر من محدثتها ، وفى الوقت نفسه تزيد من مظهر جمالها بتركيز ملامحها حول شفتيها ، وعينيها المتألقتين ، فأجابتها قائلة :

ـ إنه لم يكن أحسن حالا قط مما هو الآن !

وواصلت الضحك . وعندئذ شدت مدام دى جلاردون جسمها إلى أعلى ، وزادت من برودة سمتها ، ولعل السبب أنها لم تزل قلقة على صحة الأمير ، وقالت لبنت عمها : « يا أوريان ! » . وعلى الفور نظرت مدام دى لوم بدهشة باسمة صوب شخص ثالث غير مرئى كأنما تشهده على أنها لم تسمح قط لمدام دى جلاردون باستخدام اسمها الأول ، واستطردت الأخرى : لسوف يسرنى جداً لو حضرت ولو لدقيقة واحدة غداً مساء لتسمعى خماسية على الكلارينيت لموزار ، فكم أحب أن أعرف رأيك فيها .

ولم يبد عليها أنها توجه دعوة ، بل بدت كمن تطلب خدمة أو حظوة وأنها تريد رأى الأميرة فى خماسية موزار وكأنها طبق ابتكره طاه جديد ، يهمها جداً أن يحضر أبيقورى ليبدى حكمه عليه ، فأجابتها الأميرة :

ـ ولكنى أعرف هذه الخماسية تمام المعرفة ، ويمكننى أقول لك على الفور إنى أعبدها حباً ...

فأردفت مدام دى جلاردون قائلة جاعلة من قدوم الأمير لحفلتها عملا من أعمال البر :

ـ تعلمين أن زوجى ليست صحته على مايرام . يشكو من الكبد . ولكن سيسره أن يراك .

ولم تكن الأميرة تحب إطلاقاً أن تقول للناس إنها لن تذهب إلى دورهم . ولذا كانت فى كل يوم تكتب معتذرة بشواغل أخرى ، مثل حضور والدة زوجها المفاجئ ، أو بسبب تلقى دعوة من أخيه ، أو بالذهاب إلى الأوبرا ، أو برحلة إلى الريف ، أو بحفلة لم تفكر قط فى الذهاب إليها فعلا . وبهذه الطريقة منحت الكثيرين لذة الشعور بأنهم على علاقة حميمة بها ، وأنها كانت خليقة أن تحضر إلى بيوتهم بكل سرور ، لولا أن حال دون ذلك حائل جسيم يتملق غرورهم أن يكون منافساً لحفلاتهم المتواضعة . ثم إنها لما كانت تنتمى إلى « مجموعة جيرمنت » المتوقدة القريحة ـ التى بقيت لها بقية من القريحة اليقظة الخالية من كل التعبيرات الشائعة ، والمشاعر التقليدية العرفية ، التى ترجع إلى أيام ميريميه ووجدت تعبيرها النهائى فى مسرحيات ميلهاك وأليفى ـ لذا كانت تكيف صياغتها بحيث تتفق وشواغلها الاجتماعية ، بحيث يبدو تهذيبها المجامل إيجابياً ومحدداً وفى الوقت نفسه أقرب ما يكون إلى الحقيقة المجردة ، ولا يحدث مطلقاً أن تسهب فى التعبير لمضيفة

عن لهفتها على حضور حفلتها وترى من الألطف أن تكشف لها عن كل الأحداث المختلفة التى يتوقف عليها إمكان حضورها من عدمه .

ولذا قالت لمدام دى جلاردون :

ــ أصغ إلى وسأبين لك كل شيء . غداً مساء لابد لى من الذهاب إلى بيت إحدى صديقاتى ، لها مدة طويلة جداً تلح على لتحديد موعد . فإذا أخذتنا بعد ذلك إلى المسرح فلن أستطيع الحضور لديك مع أننى أود ذلك كثيراً . أما إن بقينا فى دارها فأنا أعرف أنه لن يكون هناك آخرون ، لذا سيتسنى لى أن أنصرف :

فسألتها :

ــ خبرينى . هل رأيت صديقك المسيو سوان ؟

فصاحت الأميرة :

ــ كلا ! عزيزى شارل ؟ لم أعلم قط أنه هنا . أين هو ؟ لابد أن أراه ...

فاستطردت مدام دى جلاردون :

ــ من المضحك أن يحضر إلى دار سانت إيفيرت ! أجل إنى أعرف أنه شديد البراعة (تعنى أنه شديد الدهاء) ومع هذا تصورى وجود يهودى هنا ، وهى شقيقة وبنت شقيق مطرانين !

فقالت الأميرة دى لوم :

ــ يخجلنى أن أعترف بأن هذا لايدهشنى على الإطلاق .

ــ أعلم أنه يهودى تنصر وما إلى هذا كله ، وكذلك والداه

وجداه من قبل . ولكن يقال إن المتنصرين من اليهود أشر استمساكاً بدينهم ممن يمارسون شعائره فعلا . وإن المسألة كلها تظاهر . أتظنين هذا صحيحاً ؟

ــ لا يمكننى على الإطلاق أن ألقى الضوء على هذا الموضوع .

وكان عازف البيانو قد شرع فى عزف مقطوعتين لشوبان بعد أن فرغ من الافتتاحية ، وبدأ من فوره فى عزف « البولونيتز » ولكن ما إن أخبرت مدام دى جلاردون ابنة عمها بوجود سوان فى الحجرة ، حتى صار قيام شوبان نفسه من قبره ليعزف كل مؤلفاته تباعاً عاجزاً عن لفت انتباه الأميرة دى لوم . فهى تنتمى إلى أحد فريقى الجنس البشرى الذى يخالف الفريق الآخر الشديد الفضول بإزاء من لا يعرفهم من الناس ، فهذا الفريق كل فضوله موجه إلى من يعرفهم فحسب . وهذا حال الكثيرات من نساء حى سان جيرمان ، فمتى وجدت الواحدة منهن نفسها فى حجرة واحدة مع عضو آخر من نفس (الشلة) حتى ولو لم يكن لديها شيء خاص تقوله له ، انصرف تفكيرها كله إليه دون أى شاغل آخر . فمنذ تلك اللحظة ، وعلى أمل أن يلمحها سوان ، لم ينصرف اهتمام الأميرة دى لوم إلى شيء آخر (وكأنها فأرة بيضاء أليفة وضعت أمام أنفها قطعة من السكر ثم أبعدتها عنها) سوى الالتفات بوجهها وقد ارتسمت عليه أمارات لاصلة لها بالمشاعر التى تعبر عنها موسيقى شوبان ، صوب مكان سوان ، ولو أنه غادر هذا المكان لتبدلت ابتسامتها الساحرة .

وأردفت مدام دى جلاردون التى لم تكن لتحجم عن التضحية بأشد طموحاتها الاجتماعية وبأملها فى الدخول إلى دائرة الأضواء التى تبهر أنظار الدنيا بأسرها ، فى سبيل إشباع شهوتها هذه اللحظة لقول شيء جارح أو مسيء :

ـ لا تغضبى منى يا أوريان **Oriane** يقول الناس عن صديقك المسيو سوان إنه من ذلك الطراز من الرجال الذى لايمكن استقباله فى البيوت . فهل هذا صحيح ؟

فأجابتها الأميرة دى لوم :

ـ لابد أنك ، من دون سائر الناس، تعرفين أن هذا صحيح ، لأنك لابد قد دعوته مائة مرة ، ولكنه لم يذهب إلى بيتك مرة واحدة !

وتركت بنت عمها غارقة فى الهوان وانطلقت مرة أخرى فى ضحكة أثارت استنكار كل من كان يحاول الإصغاء للموسيقى ، ولكنها فى الوقت نفسه استرعت انتباه مدام دى سانت إيفيرت التى كانت قد لبثت ـ على سبيل التهذيب ـ بالقرب من البيانو ، ولمحت الأميرة فى هذه اللحظة لأول مرة . وزاد فى سرور مدام دى سانت إيفيرت لرؤية مدام دى لوم أنها كانت تخالها لم تزل فى جير منت لرعاية والد زوجها الذى كان يعانى المرض :

ـ أأنت هنا يا أميرتى العزيزة ؟

ـ نعم ؛ وقد دسست نفسى فى هذا الركن وسمعت موسيقى جميلة للغاية .

ـ ماذا ؟ ألك فى القاعة فترة من الوقت ؟

ـ أجل . فترة طويلة بدت لى قصيرة جداً . ولم أشعر بطولها إلا لأنى لم أستطع أن أراك .

وقدمت مدام دى سانت إيفيرت مقعدها الخاص إلى الأميرة التى اعتذرت قائلة :

ـ لامن فضلك ! ولماذا أجلس فيه ؟ لا يهمنى إطلاقاً أين أجلس .

وعن عمد انتقت مقعداً منخفضاً بدون ظهر ، لتظهر مدى بساطة السيدة العظيمة وقالت :

ـ هذا المقعد الصغير حسى ، لأنه سيساعدنى على استقامة ظهرى . أوه ! يا للسماء ! ها أنذى أثير الضوضاء مرة أخرى ، وأخشى أن يطلبوا منك إخراجى !

وفى هذه الأثناء كان عازف البيانو قد ضاعف من سرعته ، فبلغت مشاعر محبى الموسيقى ذروتها ، وطاف خادم يحمل المرطبات فارتفع صليل الملاعق ، وراحت مدام دى سانت إيفيرت ـ كعادتها فى كل حفلاتها ـ تومئ إليه أن يخرج من القاعة ، ولكنه لم يفطن لإشارتها ..

وكانت هناك عروس حديثة الزواج قالوا لها إن الشابة المهذبة ينبغى ألا تبدى الضجر أبداً ، لذا كانت تبتسم ابتسامة عريضة وتحاول أن تلفت نظر مضيفتها لتنقل إليها ابتسامتها المشرقة وومضة من عرفانها لأنها « فكرت فيها » حين دعتها لهذه الحفلة البهيجة :

ومع أنها ظلت أشد هدوءاً من مدام دى فرنكتو ، إلا أنها وجدت صعوبة فى تعقب أصابع العازف المحلقة . فجل اهتمامها لم يكن منصباً على العازف ، بل على البيانو الذى أقلقها تراقص الشموع فوقه مع اهتزازاته ، فخشيت على الأقل — إن لم تشعل النار فيه — أن تسكب مصهوراتها على أبنوسه اللامع . وفى النهاية لم تستطع كبح قلقها فاندفعت صاعدة درجتى المنبر الذى يعلوه البيانو ، وارتمت على الشمعة المائلة تثبتها فى الشمعدان ، ولكنها ما كادت تصل إليهما حتى كان العازف قد انتهى من النغمة الختامية ونهض واقفاً . ولكن جرأة هذه العروس الشابة وما اعتراها من حمرة الخجل وساد من الارتباك بينها وبين العازف فى تلك اللحظة كان لها وقع حسن على الناس فى جملته .

وقال الجنرال دى فروبرفيل Froberville الذى كان قد أقبل على الأميرة دى لوم عندما غادرتها مضيفتها لحظة :

— أرأيت ما صنعته هذه الفتاة الآن يا أميرة ؟ غريب هذا . أليس كذلك ؟ أتراها من الفرقة المؤدية ؟

فأجابته الأميرة بدون مبالاة :

— لا . بل هى مدام دى كامبرمير Cambremer الصغيرة .

ثم أردفت بمزيد من الحرارة :

— إنما أردد ما سمعته تواً . ولا أذكر من الذى قال لى هذا . فقد كان شخصاً يقف خلفى وقال إنهن جارات مدام دى سانت إيفيرت فى الريف ، ولكنى لا أعتقد أن أى أحد يعرفهن على

الإطلاق . فلابد أنهما من قرويات الريف ! وعلى فكرة ! لا أحسبك تعرف معظم هذا المجتمع الباهر الذى نراه أمامنا الآن . لأنى لا أكاد أعرف أحداً من كل هؤلاء القوم المدهشين . ترى ماذا تظنهم يصنعون عندما لا يكونون ضيوفاً على حفلات مدام دى سانت إيفيرت ؟ لابد أنها « طلبت » هذه المجموعة من الضيوف خصيصاً عندما طلبت الموسيقيين والكراسى والطعام ! فهناك الآن كما تعلم موردون عموميون لكل شىء . ولابد أن تعترف ياجنرال أنهم رائعون . ولكن أتراها تجد الشجاعة حقاً على استئجار هؤلاء الضيوف على عشائها كل أسبوع ؟ هذا مستحيل !

فاحتج الجنرال قائلا :

— ولكن كمبريمير اسم أصيل وعريق أيضاً .

فأجابته الأميرة بجفاف قائلة :

— لامانع عندى أن يكون اسماً عريقاً ، ولكنه على كل حال ليس اسماً رخيماً .

وباعدت بين حروف كلمة « رخيم » كأنها تضعها بين قوسين أو علامتى تنصيص ، وهى طريقة فيها شىء من التصنع الذى يدمنه آل جيرمنت .

فقال الجنرال الذى لم تفارق عيناه قط مدام دى كمبريمير :

— أهذا رأيك ؟ ولكنها مع هذا خوخة صغيرة لطيفة ، ألا توافقيننى على هذا يا أميرة ؟

فأجابته الأميرة دى لوم :

– إنها تندفع إلى الأمام أكثر مما ينبغى فيما أظن ، وهذا ليس ظريفاً جداً ، ولكنها على كل حال ليست من جيلى .

وكانت هذه العبارة الأخيرة مشتركة فيما يبدو بين آل جلاردون وآل جيرمنت . ولما رأت أن الجنرال لم يزل معلق النظرات بمدام دى كمبريمير أردفت بشىء من الغمز للسيدة ممزوج بمجاملة الجنرال :

– أعنى أن هذا ليس ظريفاً جداً ... لزوجها ! ويؤسفنى أننى لا أعرفها ، ما دامت تجتذبك إلى هذه الدرجة العظيمة ، وإلا لقدمتك إليهـا !

مع أنها لو كانت تعرف هذه الشابة فعلا لما صنعت شيئاً من هذا فى الغالب . وأردفت قائلة فى تواضع وهى تصف فى الواقع ذلك الحفل زاعمة أنه مجرد مجاملة رسمية :

– والآن لابد أن أقول طابت ليلتكم ، فإحدى صديقاتى تقيم الليلة حفلا لعيد ميلادها ، ولابد لى من الذهاب لتهنئتها . ثم إننى يجب أن أمر فى طريقى لأخذ بازان Basin معى ، فقد انتهز فرصة وجودى هنا وذهب لزيارة بعض أصدقائه ... ولا شك أنك تعرفهم ، فهم يحملون اسم جسر معروف . آه . تذكرت : آل « يينا » :

فقال الجنرال :

– إنه اسم موقعة قبل أن يكون اسم جسر يا أميرة . وكانت

نصراً باهراً ، وأعنى أن هذا هو معنى الاسم فى نظر جندى قديم مثلى :

وراح يمسح مونوكله ويعيد تثبيته وكأنه يضع ضمادة جديدة فوق الجرح المفتوح تحتها ، وأشاحت الأميرة عنه بنظرها تلقائياً . وأردف هـو :

– إنهم من نبلاء الإمبراطورية . وهى طبعاً ليست الطبقة النبيلة الأصيلة ، ولكنهم على كل حال قوم ممتازون فى بابهم . وكم قاتلوا كالأبطال !

فوافقته الأميرة ، ولكن بشىء من السخرية فى نبرتها ، قائلة :

– ولكنى أحترم الأبطال أشد الاحترام . ولئن لم أذهب مع بازان لزيارة أميرة يينا ، فليس هذا هو السبب ، بل لأنى ببساطة لا أعرفها ، أما بازان فيعرفهما بل يعبدهما . أوه . لا . ليس الأمر كما تعتقد . فهو ليس عاشقاً لها ، وليس فى الأمر ما أعترض عليه ! ثم ماجدوى أن أعترض عليهما ؟

قالت العبارة الأخيرة بشىء من الأسى ، فالجميع يعلمون أنه منذ اليوم الذى تزوج فيه الأمير دى لوم ابنة عمه الفاتنة وهو دائم الخيانة لها . وأردفت :

– على كل حال ليس هذا هو الحال ، فهو يعرفهما منذ مدة طويلة جداً ، وهما يوافقانه تماماً . وهذا ما أعترض عليه . ولكنى لابد أن أخبرك عن بيتهما ، وهو فى حد ذاته كاف جداً . أتتصور أن كل أثاثهما من طراز الإمبراطورية !



ـ ولكن يا أميرتى العزيزة هذا أمر طبيعى جداً ، فهو أثاث جديهما !

ـ لست أقول إنه لم يكن أثاث جديهما ، ولكن ذلك لن يقلل من قبح شكله ، وأنا أفهم تماماً أن الناس يمكنهم دائماً أن يمتلكوا أشياء جميلة ، ولكنهم على الأقل لاحاجة بهم إلى الاحتفاظ بأشياء بشعة . ما قولك ؟ أنا لا أستطيع أن أفكر فى شىء أشد نكراً ولا أكثر بهرجة من ذلك الطراز البشع ـ الأثاث المغطى برءوس البجع ، مثل سدادات الحمام !

ـ ولكنى أعتقد على كل حال أن لديهم بضعة أشياء جميلة . آه ! لابد أن لديهم تلك المنضدة الشهيرة المصنوعة من الفسيفساء التى وقعت عليها معاهدة ...

ـ أوه ! لا أنكر أن لديهم أشياء جديرة بالاهتمام من الناحية التاريخية . ولكن مثل هذه الأشياء لايمكن أن تكون جميلة على الإطلاق ... لأنها ببساطة شديدة البشاعة . وأنا شخصياً عندى أشياء من هذا القبيل ورثتها بازان عن آل منتسكيو ، ولكنها موجودة فى العليات بجيرمنت ، حيث لايراها أحد مطلقاً . ولكن هذا ليس مربط الفرس بعد كل شىء ، فأنا مستعدة أن أخف لأراهما مع بازان ، وأزورهما وسط كل أثاثهما المزخرف بأبى الهول والنحاس ، لو أننى كنت أعرفهما . ولكنى لا أعرفهما ! أتعلم أنهم لقنونى وأنا مازلت فتاة صغيرة أن من سوء الأدب زيارة من لا أعرفهم من قبل !

وتصنعت الجد الطفولى ثم استطردت :

ـ وهكذا ترى أننى إنما أفعل ما علمونى أن أفعله . أيمكنك أن تتصور هؤلاء الناس الطيبين وقد اندفعت امرأة غريبة تقتحم عليهم بيتهم ؟ طبعاً سيسوء استقبالى إلى أقصى حد .

وبكل « غندرة » زادت من سحر ابتسامتها التى دفعت بها إلى شفتيها هذه الخواطر ، فبدت فى عينيها الزرقاوين نظرات رقيقة حالمة ، وهتف الجنرال :

ـ يا أميرتى العزيزة . أنت تعرفين جيداً أنهما سيستطير بهما الحبور لقدومك !

فسألته بحرارة بالغة ، إما لتتجاهل الواقع ، وهو أنها من أوائل عقيلات فرنسا ، أو لكى تسعد بسماع الجنرال يؤكد لها ذلك :

ـ ولم ؟ ومايدريك ؟ لعلهما سيظنان ذلك أسمج تصرف ممكن . أنا لا أعرف عنهما شيئاً ، ولكن إذا كانا على شاكلتى ، فأنا شخصياً أجد كثيراً من البرم لرؤية من أعرفهم ، فما بالك برؤية من لا أعرفهم ، حتى ولو كانوا قد حاربوا مثل الأبطال ! لوكنت مكانهم لجننت من الغيظ . ثم إنه فيما عدا حالة صديق قديم مثلك يعرفه المرء ، بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى ، فلست متأكدة أن « البطولة » يمكن أن تدعم مكانة المرء فى المجتمع . ولعمرى إنه ليضجرنى أن أقيم ولائم العشاء ، ولكن إذا كان على أن أقدم ذراعى إلى سبارتاكوس Spartacus ليقودنى إلى المائدة ! أؤكد لك



فبدت فى عينيها الزرقاوين نظرات رقيقة حالمة ، وهتف الجنرال :

– يا أميرتى العزيزة . أنت تعرفين جيدا أنهما سيستطير بهما الحبور لقدومك !

أننى لايمكن بحال أن أدعو فرسنجتوريكس Vercingetorix ليكون الضيف الرابع عشر ! ..

– آه يا أميرتى ! من اليسير أن يرى المرء أنك سليلة آل جيرمنت حقاً ؟ فأنت تتمتعين بنصيب كبير من سرعة بديهة آل جيرمنت !

– يتحدث الناس دائماً عن سرعة بديهة آل جيرمنت ، ولم أستطع قط أن أفهم الدافع لهم إلى هذا ، أتعرف حقاً أحداً غير آل جيرمنت لديهم سرعة البديهة هذه ؟

ومازحته بضحكة متدفقة رقراقة وتركزت ملامحها لإبراز هذه الحيوية ، ولمعت عيناها بشعاع دافق من المرح الذى لا يتوقد إلا بمثل هذه الأحاديث – حتى ولو كانت الأميرة هى التى تتفوه بها – التى تنطوى على امتداح لسرعة بديهتها وجمالها – ثم أردفت بخفة روح :

– انظر ! ها هو سوان يتحدث إلى الشابة كمبيرر التى راقتك ، هناك ، إلى جوار سانت إيفيرت . ألا تَرهما ؟ اطلب إليه أن يقدمك إليها . أسرع فهو فيما يبدو يهم بالانصراف .

فسألها الجنرال :

– ألاحظت كيف يبدو عليه المرض الشديد ؟

– صديقى العزيز شارل ؟ آه . هاهو قادم أخيراً . لقد بدأت أظن أنه لا يريد أن يرانى !

وكان سوان شديد الولع بالأميرة دى لوم ، وقد ذكره مرآها بجيرمنت ، وهى ضيعة قريبة من كمبراى ... كما ذكرته بكل ذلك

الريف الذى كان يحبه جداً وقد كف عن زيارته لكيلا يفارق أوديت . واندس فى أسلوبه نصف الفنى ونصف الغرامى الذى كان بوسعه دائماً أن يداعب الأميرة ويروقها . وهو أسلوب كان يواتيه بسهولة ويسر وبصورة طبيعية كلما غاص لحظة من الزمان فى جوه الاجتماعى القديم ، وساعده على هذا ميله إلى الإعراب بالكلمات عن سروره الخاص وشوقه إلى الريف . وهتف سوان ، بل ترنم بصوت مسموع لمدام دى سانت إيفيرت التى كان يتحدث إليها وللأميرة دى لوم التى كان يعنيها بكلامه فى آن واحد :

ـ آه ! انظرى إلى أميرتنا الفاتنة ! لقد حضرت خصيصاً من جيرمنت لكى تسمع « القديس فرنسيس يعظ الطيور » ولم يتسع أمامها الوقت إلا لقطف شىء من الزعرور البرى لتضعه فى شعرها ، بل هاهى بعض قطرات الندى لم تزل على هذه الأزاهير ، وشىء من بلورات الصقيع التى لابد أنها تجعل الدوقة ترتجف هناك . ما أجملها حقاً يا أميرتى العزيزة !

فقالت مدام دى سانت إيفيرت بسذاجة محببة ، لأنها لم تكن قد تعودت طريقة سوان فى الكلام :

ـ ماذا ؟ أحضرت الأميرة خصيصاً من جيرمنت ؟ ولكن هذا رائع جداً . لم أكن أعرف ! وكم يسعدنى هذا ويدهشنى !

ثم تأملت زينة رأس الأميرة وهتفت :

ـ أنت على صواب تماماً ... كأنها شجرة .. ليس الكستناء بالضبط .. أوه . إنها فكرة بديعة . ولكن كيف تسنى للأميرة أن

تعرف كيف سيكون برنامجى ؟ إن الموسيقيين لم يخبرونى شخصياً ..

ولما كان من عادة سوان عندما يكون فى صحبة امرأة تعود على أن يخاطبها بعبارة الإطراء والغزل أن يقول لها مالا يفهمه الآخرون كأنه شفرة خاصة ، لذا لم يتفضل بشرح مغزى كلامه لمدام دى سانت إيفيرت ، ولم يقل لها إنه يتحدث بالمجاز. أما الأمور فانطلقت فى نوبات من الضحك ، لأن فكاهة سوان كانت تروق (لشلتها) جداً ، ولأنها أيضاً لم تكن تسمع إطراء يوجه إليها إلا وتشعر أنه رقيق وباعث على أشد السرور ، وقالت :

ـ الحقيقة يا عزيزى شارل إنى مسرورة جداً لأن زهر الزعرور البرى فى شعرى راقك ، ولكن قل لى لماذا انحنيت لتلك الشابة كمبيرر ؟ أأنت أيضاً جارها فى الريف ؟

ولاحظت مدام دى سانت إيفيرت سرور الأميرة باندماجها فى الحديث مع سوان ، فانسلت مبتعدة . وقال سوان :

ـ بل إنك أنت أيضاً جارتها يا أميرة !

ـ أنا ؟ لابد أن هذه المخلوقات أرياف كثيرة فى كل مكان !

ـ لا . ليس آل كمبيرر بل أسرتها هى ، فقد كانت وهى آنسة من آل ليجراندان Legrandin ولكن كان من عادتها أن تأتى إلى كمبراى . ولا أدرى هل أنت متذكرة أنك كونتس دى كمبراى . وأن هذا الفرع يدين لك بالولاء .

ـ أنا لا أدرى ما يدين لى به هذا الفرع ، ولكنى أعرف أن قس كمبراى يطلب منى كل سنة مائة فرنك تبرعاً للكنيسة ، وهو

ولاء يمكنني جداً أن أستغني عنه . ولكن آل كمبيرر هؤلاء يحملون بلا شك اسماً غريباً في جرسه .

وانطلقت ضحكتها ، فجاراها سوان بنكتة لفظية من نفس النوع . فسرت جداً وأطرت روح فكاهته وسخريته بهذا الاسم وحسن ذوقه ، ثم قالت :

ـ كم أحب التحدث إليك يا عزيزي شارل . تخيل أني لم أستطع أن أجعل ذلك المعتوه فروبرفيل يدرك أن في هذا الاسم ما يبعث على الضحك ، لاشك أنك توافقني على أن الحياة مجهدة وفظيعة . ولا أكف عن الضجر إلا حين أراك .

ولعل هذا لم يكن صحيحاً ، ولكن سوان كانت تجمعه بالأميرة نفس النظرة إلى توافه الحياة ، وترتب على هذا ـ وإن لم يكن تسبب فيه ـ تشابه في تعبيراتهما ، بل وفي طريقة النطق . وهذا التماثل ليس غريباً مع أن صوتيهما كانا أشد ما يكونان اختلافاً . ولكن إذا تجسم المرء تجريد أقوال سوان من الرنين المألوف لديه ، ومن الشارب الذي من تحته تخرج هذه الأقوال ، لتبين أنها نفس العبارات ونفس النبرة المألوفة في (شلة) جيرمنت : ولكن في الأمور الهامة لم تكن هناك فكرة واحدة مشتركة بين سوان وبين الأميرة . أما وقد صار سوان شديد السوداوية ، وهو دائماً على شفا الانخراط في البكاء وذرف الدموع ، فهو بحاجة إلى الكلام عن أحزانه كحاجة القاتل إلى من يحدثه عن جريمته . ولما سمع الأميرة تقول إن الحياة بشعة ، أحس الراحة ، كما لو كانت قد حدثته عن أوديت ، وأجابها بقوله :

ـ نعم : الحياة بشعة ! ينبغي أن نلتقي مراراً ياصديقتي العزيزة ، وأحسن ما فيك أنك لست مرحة ، ولذا نستطيع أن نمضي معاً أمسية لطيفة :

ـ أنا واثقة من هذا ، فلماذا لا تأتي إلى جيرمنت ؟ ستطير أم زوجي فرحاً لوجئت . والمفروض أن المكان هناك شديد القبح ، ولكني أعترف بأني أجد المنطقة لابأس بها ولا تخلو من جاذبية ، وأنا أفزع من البقاع البالغة الجمال :

فأجابها سوان :

ـ أعرفها جيداً . إنها منطقة رائعة ـ إنها أجمل بكثير من أن تناسبني حيويتها حالياً ، فهي منطقة ريفية يسعد فيها المرء . ولعل السبب أنه سبقت لي المعيشة هناك ، ولكن الأشياء هناك تخاطبني على هذا النحو . وما إن يثور الهواء ، وتبدأ سنابل القمح في التناوح والاهتزاز حتى يخيل إلي أن شخصاً سيبرز لي فجأة ، وأنني على وشك أن أسمع أنباء . ثم تلك البيوت الصغيرة على حافة الماء ... كم هي خليقة أن تشعرني بالتعاسة !

ـ آه يا عزيزي الأعز شارل ، خذ حذرك ، فهناك تلك المرأة الفظيعة رامبيون Rampillon ، وقد رأتني . خبئني في مكان ما . وقل لي مرة ثانية ما الذي حدث لها ، فقد اختلط علي الأمر . لقد زوجت ابنتها لتوها أو عشيقها (لا أستطيع أن أتذكر) وربما كليهما ، زوجت كلا منهما للآخر ؟ أوه . لا ! لقد تذكرت الآن ! لقد هجرها أميرها .... تظاهر بالحديث حتى لاتأتي العجوز المسكينة

بيرنيس Berenice وتدعونى للعشاء . أنا ذاهبة على كل حال : اسمع يا عزيزى الأعز شارل ، أما وقد رأيتك الآن فجأة لحسن الحظ هلا تركتنى آخذك معى إلى بيت الأميرة دى بارم Parme التى سيسرها كثيراً أن تراك ـ كما تعلم ـ وكذلك بازان الذى سيقابلنى هناك . فلولا أننى أتلقى أنباء عنك أحياناً من ميمى Memé ... تذكر أننى لا أراك الآن على الإطلاق !

واعتذر سوان ، ذلك أنه كان قد قال للمسيو دى شارلى إنه بعد مغادرته قصر مدام دى سانت إيفيرت سيذهب مباشرة إلى بيته ، ولذا لم يقدم على المجازفة عند ذهابه الآن إلى قصر الأميرة دى بارم بأن تفوته رسالة كان يأمل طول الوقت فى وصولها إليه على يد أحد الحجاب أثناء الحفلة ، ولعله سيجدها مودعة لدى بواب بيته .

وفى تلك الليلة قالت الأميرة دى لوم لزوجها :

ـ يا لسوان المسكين إنه لم يزل ساحراً ، ولكنه يبدو غاية فى التعاسة . ولسوف ترى بنفسك ، لأنه وعد بالحضور للعشاء معنا فى يوم من الأيام القادمة ، وإنى لأشعر أنه فى منتهى السخافة أن يترك رجل فى مثل ذكائه نفسه يتعذب على يد مخلوقة من هذا النوع ، ليست جديرة حتى بإثارة الاهتمام وليست فيها طرافة ، فقد قيل لى إنها بلهاء تماماً !

وهكذا نطقت بتلك الحكمة التى يدلى بها من ليسوا عاشقين ، شاعرين أن الرجل البارع ينبغى ألا يشقى إلا بسبب أشخاص

يستحقون هذا العناء ، وما أشبه هذا بالدهشة من نزول شخص إلى مستوى الموت بالكوليرا نتيجة الإصابة بمخلوق فى تفاهة هذا الميكروب العادى ...

وأراد سوان أن يذهب الآن إلى بيته ، ولكن فيما كان يهم بالفرار أمسك به الجنرال دى فروبرفيل وطلب منه أن يقدمه إلى مدام دى كمبرمير ، فاضطر للعودة إلى القاعة للبحث عنها . وقال له الجنرال : أعتقد يا سوان أننى أفضل الزواج من هذه المرأة الصغيرة على أن يقتلنى المتوحشون . فما رأيك أنت ؟

واخترقت قلب سوان عبارة « يقتلنى المتوحشون » وعلى الفور شعر بالحاجة إلى مواصلة الحديث ، وقال :

ـ آه . لقد ضاعت أرواح كثيرة ممتازة عن هذا الطريق ... فقد كان هناك ، كما تذكر ، ذلك المستكشف الذى جاءنا ديمون ديرفيل Dumon d'Urville برفاته ، لابيروز La Pérouse (وعادت إليه السعادة كأنما ذكر اسم أوديت نفسها) وكان شخصية بديعة ، تثير اهتمامى جداً ، لابيروز هذا .

ونطق ختام العبارة بأسى ، وقال الجنرال :

ـ آه . نعم . بالطبع ، لابيروز . اسم معروف . وهناك شارع يحمل هذا الاسم .

فسأله سوان مستثاراً : أتعرف أحداً يقطن شارع لابيروز ؟

ـ لا أعرف إلا مدام دى شانليفو Chanlivault ، شقيقة الصديق شوسبيير Chaussepierre . وقد أقامت منذ أيام حفلة

مسرحية طريفة جداً. وسيكون بيتها من البيوت الوجيهة حقاً يوماً ما، وسترى !

– أوه . إذن فهى تسكن شارع لابيروز . إنه شارع جذاب وأنا أحبه كثيراً ، وهو شديد العتمة .

– ليس معتماً على الإطلاق الآن . لابد أنك لم تره منذ زمن طويل ، فقد بدءوا يبنون البيوت فى كل نواحيه .

ولما قام سوان فى النهاية بتقديم المسيو دى فروبر فيل إلى مدام دى كمبريمير الشابة وكانت هذه أول مرة سمعت فيها باسم الجنرال ، أسرعت برسم ابتسامة السرور والدهشة التى كانت خليقة أن تستقبله بها لو لم تكن سمعت فى حياتها باسم غير اسمه . ولما كانت لم تعرف بعد أسماء كل أصدقاء عائلتها الجديدة ، فقد ظنت كلما قدموا إليها أحداً أنه من أصدقاء الأسرة ، وأن من واجبها – على سبيل اللياقة – أن تقول إنها سمعت عنه كثيراً منذ زواجها ، وتمد يدها بشىء من التردد كأنما تقاوم تحفظها الفطرى الذى تقاومه تحت تأثير هذه المودة التلقائية . ولذا كان والدا زوجها وكل عائلته – وهى لم تزل على اتقادها أنهم أبرز نبلاء فرنسا – يعلنون أنها ملاك ، ولاسيما أنهم يفضلون التظاهر بأنهم حين زوجوها من ابنهم كانوا مجذوبين بسحرها الفطرى أكثر من ثروتها الضخمة .

وقال الجنرال ، مشيراً إلى حادثة الشمعة :

– ما أسهل أن يرى المرء أنك موسيقية قلباً وقالباً يا سيدتى :

وفى هذه الأثناء كان العزف قد استؤنف ، وأدرك سوان أنه

لن يستطيع الذهاب الآن قبل نهاية المقطوعة الجديدة. وتألم كثيراً لاحتباسه بين كل أولئك الناس الذين تجرحه غباوتهم وسخافاتهم بمزيد من القسوة ، لأنهم يجهلون حبه ولعجزهم – لو عرفوه – عن الاهتمام أو الاكتراث له ، أو عما هو أكثر من الابتسام على نحو ما يبتسمون ساخرين من نكتة طفلية ، أو لعلهم يستنكرون هذا العشق كأنه عمل جنونى ، فيبدو له عشقه كما لو كان حالة ذاتية لاتوجد إلا بالنسبة له وحده ، وليس لها أى مظهر خارجى يثبت وجودها . وبلغ من شدة معاناته أن صوت الآلات الموسيقية كاد يدفعه إلى البكاء لاضطراره لإطالة منفاه فى هذا المكان الذى لن يتسنى لأوديت أن تأتى إليه أبداً ، ولا أحد فيه عالم بوجودها ، فغيابها عنه تام من كل الوجوه .

ولكنه خيل إليه فجأة أنها دخلت القاعة ، ومزقه ظهورها فيه تمزيقاً عنيفاً ، حتى لقد رفع يده إلى موضع قلبه . والذى حدث أن الفيولينا صدرت عنها سلسلة من الأنغام العالية ثم ثبتت عليها كأنما تتوقع شيئاً ، وكان توقعها طويلا بلا انقطاع ، وارتفعت نغمة فرح كأنما قد اقترب الموضوع المنتظر ، وطالت هذه النغمة ربما يدخل هذا القادم المنتظر ، على نحو ما يمسك المرء بدفتى الباب مفتوحتين لدخول شخص غريب ، ولولا ذلك لظل الباب مغلقاً . وقبل أن يتسع الوقت أمام سوان ليفهم ما يحدث ويقول لنفسه :

– إنها تلك الجملة من سوناتة فانتى Vinteuil ، ويجب ألا أصغى !

وعادت إليه كل ذكريات الأيام التى كانت أوديت تعشقه فيها أو التى نجح حتى هذا المساء فى إخفائها بأعماق كيانه ، إلى أن فاجأته هذه الصورة المنعكسة من فصل الحب الذى أشرقت شمسه – فيما يقولون – من جديد ، فأيقظت هذه الذكريات من نعاسها وحلقت بأجنحتها وأطلقت غناءها فى مسامعه ، بدون رحمة لتعاسته الحالية ، مترنمة بسعادته المنسية .

وبدلا من العبارات المجردة من قبيل : « عندما كنت سعيداً » و « عندما كنت محبوباً » ، وهى عبارات كان كثيراً ما يستخدمها حتى الآن ، بدون معاناة جسيمة ، لأن ذكاءه لم يجسد فيها أى شىء من الماضى عدا العصارات الصناعية التى لا تحتفظ بشىء من الواقع ، استرد الآن كل شىء كان يجسد جوهر هذه السعادة المفقودة ، واستطاع أن يراها بأكملها : من تلك البتلات المتموجة الثلجية لزهرة الكريزنتيم التى ألقتها وراءه فى عربته ، والتى أبقاها مضغوطة على شفتيه ، ومن الورقة التى عليها عنوان « البيت الذهبى » التى قرأ فيها : « إن يدى ترتجف بشدة وأنا أكتب إليك » ، ومن قطوب حاجبيها عندما قالت له فى توسل : « لا تطل انتظارى إلى أن تبعث فى طلبى » ، واستطاع أن يشم رائحة الحديد المحمى الذى يستخدمه الحلاق الذى كان من عادته أن يستدعيه لترجيل شعره ، بينما لوردان يمضى لإحضار الفتاة العاملة ، واستطاع أن يحس انهمار المطر الذى كثر سقوطه ذلك الربيع ، وركوبه العربة فى صقيع البرد تحت ضوء القمر ، وكل شبكة عاداته العقلية ذات الانطباعات القوية ، وردود

الأفعال الحسية التى امتدت أسابيع حتى صار جسمه يشعر بأنه أسير قيودها التى لا ترحم .

وكان فى ذلك الحين يرضى فضولا شهوانياً لديه لمعرفة ألوان الملذات التى ينعم بها من يعيشون للحب وحده . وقر فى نفسه أنه يستطيع أن يكتفى بهذا ولا حاجة به لمعرفة أحزانهم أيضاً ، ولكم بدا سحر أوديت الفعلى ضئيلا الآن بالقياس إلى ذلك الروع المخيف الذى يكتنفها كالهالة ، بسبب قلقه الممض الهائل لعدم معرفته فى كل ساعة من ساعات النهار والليل ماذا تصنع ، ولعدم امتلاكه لها بأسرها ، فى جميع الأوقات وجميع المواضع !

واهاً له ! لقد تذكر نبراتها التى قالت له فيها :

– فى وسعى أن أراك فى أى وقت ، فأنا دائماً غير مشغولة ؟

وها هى الآن ليست خالية من الشواغل فى أى وقت . وتذكر فى أسى ذلك الاهتمام والفضول اللذين أبدتهما بصدد حياته ، ورغبتها المتقدة أن يتكرم عليها بالدخول إلى حجرة مكتبه ، بينما كان هو يتشكك فى جدوى ذلك ويجد فيه مضيعة قد تكون مسئمة لوقته وتشويشاً لجهوده وترتيباته . وتذكر كيف اضطرت إلى أن تتوسل إليه أن يدعها تأخذه إلى بيت آل فرديران . وتذكر كيف بدا عليها الابتهاج والحبور عندما سمح لها بالقدوم إليه مرة واحدة فى كل شهر ، واهتبلت الفرصة قبل أن يرجع عن قراره هذا وقالت له : إنها تتطلع إلى اليوم الذى يتلاقيان فيه يومياً ، ولكن ذلك بدا له ملهاة مضجرة ، وإذا بها هى التى تضجر اليوم وتتملص . فى حين

صار هو لايشبع من صحبتها ويجد فى بعده عنها حرماناً موجعاً ، ولم يخطر له كم كان صادقاً عندما أجابها وقد سألته فى لقائهما الثالث :

ـ ولكن لماذا لا تدعنى آتى إليك أكثر من هذا ؟

فقال لها ضاحكاً وفى تصنع للمجاملة إنه يخشى أن يتعود بذلك صحبتها وينشأ لديه ، قلق يائس بها .

ولم تزل تكتب إليه أحياناً من مطعم أو فندق ، على ورق عليه عنوان ذلك المكان مطبوعاً ، ولكن بحروف من نار تأكل قلبه : « أكتب إليك من فندق فويمون Vouillemont » ، فلأى سبب ذهبت إلى هناك ؟ ومع من ؟ وماذا حدث هناك ؟ وتذكر مصابيح الغاز التى انطفأت على امتداد بوليفار الإيطاليين عندما قابلها ، وقد فارقه كل أمل ، بين الظلال فى تلك الليلة التى بدت له وكأنها خارقة للطبيعة ، ولكنها الآن تنتمى إلى عالم خفى هيهات أن يعود إليه الإنسان متى أغلقت أبوابه (وهى ليلة من ليالى ذلك العهد الذى لم يكن يسائل نفسه فيه هل سيضايقها ببحثه عنها وعثوره عليها ، لشدة ثقته بأنها لاتعرف سعادة أعظم من رؤيته وتركه يأخذها إلى البيت) .

واستطاع سوان أن يتبين أمام مشهد هذه السعادة المبعوثة من مثواها شخصياً واقفاً لا يتحرك ملأه مرآه شفقة عليه ، لأنه لم يعرفه لأول وهلة ، واضطر أن يخفض رأسه حتى لايرى أحد أن عينيه مغرورقتان بالدمع . فقد كان الماثل له هو شخصياً .

ولما تحقق من ذلك زالت شفقته وشعر بالغيرة الآن من ذاته

الأخرى التى أحبتها أوديت فيما مضى ؛ وأحس الغيرة من الرجال الذين كثيراً ما قال عنهم بدون معاناة كثيرة :

ـ لعلها تحبهم !

فالآن وقد استبدل بفكرة الحب الغامضة الخالية من كل حب تلك الأوراق من زهرة الكريزنتيم واسم البيت الذهبي المطبوع على رأس ورقة خطاب ، فقد كان هذان الشيئان يفيضان بالحب ، ولما اشتد كربه مر بيده فوق جبينه ، وترك المونوكل يسقط عن عينه ومسح زجاجه . وما من شك فى أنه لوكان رأى نفسه فى تلك اللحظة لأضاف إلى مجموعة المونوكلات التى تبينها عند دخوله القاعة هذا المونوكل الذى خلعه وكأنه فكرة مزعجة ينزعها من رأسه ، وقد راح وهو يمسحه بمنديله يحاول إقصاء همومه .

وفى موسيقى الفيولينا ـ إذا لم ير المرء الآلة نفسها فلا يربط بين شكلها والصوت الصادر عنها ـ نبرات تشبه تمام الشبه بعض الأصوات البشرية الكونترالتو (النسائى الرنان) بحيث يحسب المرء أن مغنية أخذت مكانها وسط الأوركسترا . ويرفع المرء عينيه فلا يرى إلا الآلة الخشبية السحرية ، ولكن صوت حورية البحر يخدعه أحياناً بندائه الساحر ، بينما الأنغام ترتجف وسط الصندوق الرنان كالشيطان الحبيس فى قمقم .. وأحياناً أخرى تحسبه صوت كائن خارق للطبيعة يهمس للأذن عند مروره برسالة خفية .

وكأنما كان الموسيقيون لا يعزفون هذه الجملة الصغيرة ، بل يؤدون الطقوس التى تكتنفها قبل أن تطل هذه الجملة برأسها ، فكأنهم

يرتلون الأهازيج تحية لمقدمها الأعجوبى الخارق ، فانتاب سوان شعور بالتحول منعش وسط ذلك العمى الذى كان يرين عليه منذ شعر باقترابها . وأحس بوجودها مثل ربة حامية تؤكد له حبه وتدعمه متنكرة فى عباءة هذه الأنغام ، وتستدنيه منها بعيداً عن هذا الحشد كى تتحدث إليه وحده . وعندما مرت به فى خفة ورهافة كأنها عبير الأزهار ، قالت له ما تريد أن تقوله ، وهو يحتضن كل كلمة من كلماتها ويتمعن فيها ، آسفاً على انقضائها بهذه السرعة ، فزم شفتيه فى حركة تقبيل عند ما مرت الربة بجواره فى صورتها الهورمونية المفهافة .

وأحس أنه لم يعد فى المنفى وحيداً ما دامت تلك التى خاطبته تحدثت إليه همساً عن أوديت ، ولم يعد لديه – كما كان آنفاً – الانطباع بأنه وأوديت غير معروفين للجملة الموسيقية الصغيرة . أو لم تكن هذه الجملة شاهدة على أفراحهما ؟ أجل كانت هذه الجملة تنذره قديماً بما فيها من هشاشة . والحق أنه حدس فى ذلك العهد البعيد عنصراً من عناصر المعاناة فى ابتسامتها .. وفى ترنمها الأسيان ، وها هو الليلة تجد فيها سحر إذعان يكاد أن يكون مرحاً . ومن تلك الأحزان التى حدثتها عنها هذه الجملة الصغيرة والتى رآها تحملها معها وهى تمر به باسمة فى مسارها الرهيف ، وهى بعينها تلك الأحزان التى صارت الآن أحزانه ، ولم يعد لديه أدنى أمل فى تخلصه منها ، وبدا له أنها تقول له ، مثلما قالت له يوماً ما عن سعادته :

– وما قيمة هذا كله ؟ هذا كله هباء !

واعتلت لأول مرة خواطر سوان موجة من الشفقة والحنان صوب ذلك الموسيقى الشيخ فانتى ، صوب ذلك الأخ المغمور الذى لابد أنه شقى وتعذب كثيراً . ترى كيف كانت حياته ؟ ومن أى بئر من آبار الحزن استخرج هذه القوة الربانية ، قوة الإبداع التى لاحدود لها .

ولما كانت الجملة الموسيقية الصغيرة هى التى حدثته عن بطلان آلامه وتفاهتها ، وجد سوان عذوبة فى نفس تلك الحكمة التى كانت تبدو له منذ أمد قريب لاتطاق عندما خال أنه يستطيع أن يقرأها على وجوه الغرباء الذين كانوا يظنون عشقه لأوديت تسلية فراغ لا أهمية لها . ولأن هذه الجملة الموسيقية كانت على خلافهم ترى فى حالات النفس مالا يراه الآخرون الذين يحسبونها أقل أهمية من أحداث الحياة اليومية ، لأنها تراها على النقيض من ذلك أسمى بكثير من أحداث الحياة اليومية ، بحيث تستحق دون سواها عناء التعبير عنها ، فربات هذه الأحزان الحميمة هى التى تحاول هذه الجملة الموسيقية محاكاتها والتعبير عنها وخلقها من جديد ، وجوهرها غير قابل للنقل أو التوصيل ، ويبدو تافهاً إلا له لأنه خبره ، اقتنصته هذه الجملة الموسيقية وجسمته للعيان ، وبذلك أتاحت تذوق عذوبة هذه المشاعر الربانية لكل هؤلاء المشاهدين – بشرط أن تكون لديهم حاسة موسيقية – ولكنهم بعد لحظة سيتجاهلونها ويتنكرون لها فى الحياة الواقعية ، أى فى كل حب فردى يتجسد أمام أعينهم . ويقيناً أن الصورة التى صاغت فيها هذه الجملة وبعث الفن تلك

لايمكن تحليلها إلى عناصر منطقية . ولكن منذ أكثر من عام ، حين كشف فى نفسه عن كثير من كنوز روحه ، فولد فيه حب الموسيقى ولازمه فترة على الأقل ، بحيث صار سوان ينظر إلى الموتيفات (الموضوعات الرئيسية) الموسيقية على أنها أفكار بالفعل تنتمى إلى عالم آخر ، ومن نوع آخر . أفكار كامنة فى أشباح مجهولة لايمكن أن يتطرق إليها العقل البشرى ، وكل منها مع هذا متميزة تمام التميز عن الأخرى وليست متساوية فى حد ذاتها من حيث القيمة والمغزى :

وعندما جعل – بعد تلك الأمسية الأولى فى بيت آل فرديران – تلك الجملة الموسيقية الصغيرة تعزف له من جديد ، واجتهد أن يستخلص من انطباعاته المشوشة كيف تسنى لها ، وكأنها عطر أو مداعبة ، أن تغمره ، لاحظ أن انطباع العذوبة الفاتر راجع إلى تقارب الفترات بين النغمات الخمس التى تتكون منها ، وإلى تكرار نغمتين منها باستمراره ، ولكنه كان يعرف أنه فى الواقع أسس هذه النتيجة لا على الجملة الموسيقية نفسها بل على معادلات معينة لها قامت مقام كيانها الخفى الغامض الذى تيقظ حسه له قبل أن يعرف آل فرديران ، فى حفل سابق سمع فيه هذه السوناتة تعزف لأول مرة .

وكان يعرف أن تذكره للبيانو قد زيف وشوه النطاق الذى يرى فيه الموسيقى ، وأن المجال المفتوح أمام الموسيقيين ليس مجرد مدرج موسيقى محدود بسبع نغمات ، بل هو لوحة مفاتيح غير محدودة (مازال معظمها مجهولا) بعض هذه المفاتيح التى تعد

بالملايين مفاتيح حنان ، وهيام ، وبسالة ، وطمأنينة ، وكل منها يختلف عن سائرها جميعاً كما يختلف كون عن كون آخر ، وقد اكتشف هذه المفاتيح فنانون عظماء معينون يقدمون إلينا أجل خدمة حين يوقظون فينا العاطفة المتصلة بالموضوع الرئيسى الذى عثروا عليه ، ويريوننا أى ثراء وأى تنوع يكمن فى غفلة منا داخل هذا الليل الحالك المستعصى على الاستكشاف .. وهذا الليل هو أرواحنا التى تعودنا أن نعدها خاوية خلواً من كل قيمة ، وكان فانتى أحد أولئك العظماء القلائل . ففى جملته هذه الصغيرة ، وإن كانت تقدم لعين العقل سطحاً تغشيه السحب والغيوم ، توجد فى إحساس المرء مادة متماسكة جداً ، وفصيحة للغاية ، تمنحها هذه الجملة قوة بالغة الجدة والأصالة ، بحيث إن كل من سمعوها مرة ادخروا ذكراها فى خزانة عقولهم .

وإليها يلجأ سوان كما يلجأ إلى مفهوم للحب والسعادة يعرف على الفور خصائصه ومواضع تفرده على نحو ما يعرف أميرة كليف Clèves أو ريفيه متى خطر له أحد هذين العنوانين . وحتى عندما لم يكن يفكر فى هذه الجملة الصغيرة كانت موجودة مستكنة فى عقله ، على نحو توجد مفهومات أخرى ليس لها معادل مادى ، مثل فكرتنا عن الضوء وعن الصوت وعن الرغبة الجسدية ، وما إلى ذلك من الكنوز التى يحفل بها ويزهو معبدنا الداخلى . ولعل هذه جميعاً سوف نفقدها وتذهب هباء عندما نتحول نحن فى التراب إلى عدم . أما ونحن أحياء فلا يمكننا ألا نتعرف عليها يوماً ما ، كما أنه

لا يمكننا ألا نتعرف على إضاءة مصباح أوقد منذ لحظة ، بسبب ما حدث على إثر ذلك من تغير كل شىء فى الحجرة التى تلاشى منها الظلام .

وعلى هذا النحو امتزجت جملة فانتى – مثل موضوع من معزوفة تريستان التى تمثل أيضاً اكتساب عاطفة معينة – بحالتنا الفانية وغدت بالغة التأثير . وارتبط مصيرها فى المستقبل بأشد الحلى تميزاً . ولعل العدم هو حالتنا الحقيقية ، فحلمنا بالحياة قد لا يكون له وجود . ولكن إن صح هذا ، تكون هذه الجمل الموسيقية وهذه المفهومات التى توجد على صلة بحلمنا عدماً أيضاً ، أجل إننا سنفنى ولكن لدينا ونحن أحياء رهائن مقدسة سوف تتبعنا وتشاركنا مصيرنا . والموت فى صحبتها شىء أقل مرارة وأقل خلواً من المجد ، بل ولعله أيضاً أقل يقيناً .

لذا لم يكن سوان مخطئاً فى اعتقاده أن الجملة الموسيقية من السوناتا موجودة حقاً . ومع بشريتها إلا أنها كانت من وجهة نظره تنتمى مع هذا إلى نسق آخر من الكائنات الخارقة للطبيعة التى لم نرها قط ، ولكننا مع ذلك نتعرف عليها ونستقبلها بالنشوة عندما يجلى لنا إحداها أحد مكتشفى العالم غير المرئى ، وينزلها إلينا من ذلك العالم الإلهى الذى تشع علينا برهة قصيرة فى عالمنا الفانى . وهذا ما فعله فانتى للجملة الموسيقية الصغيرة ، وقد شعر سوان بأن المؤلف الموسيقى قد اكتفى (بالآلات الموسيقية الميسرة له) بإماطة اللثام عنها ، ويبديها للعيان ، متعقباً خطوطها العامة فى احترام ، بيد بالغة

الحب والحرص والرهافة والثقة ، بحيث كان الصوت يتغير فى كل لحظة لكى يشير إلى ظل . ثم يطفر عندما يتعقب استطارة الأعطاف .

ومن الأدلة على أن سوان لم يكن مخطئاً عندما اعتقد بحقيقة وجود هذه الجملة ، أن أى شخص له أذن رهيفة تتذوق الموسيقى كان من الممكن أن يكتشف الخداع لو كان فانتى كان أقل قدرة على رؤية هذا الكائن الإلهى والتعبير عن صورته ، فحاول يغطى عشى رؤيته أو وهن يده بإضافة خط هنا أو هناك من اختراعه .

واختفت الجملة ، وكان سوان يعرف أنها ستعود فى نهاية الحركة بعد فترة طويلة كان عازف بيانو مدام فرديران يحذفها دائماً . وفى هذه الفقرة بعض الأفكار البديعة التى لم يكن سوان قد تبينها أول مرة سمع فيها السوناتة ، والتى أدركها الآن وكأنها تزيت بأزياء جديدة فى حجرة الملابس الملحقة بذاكرته . وأصغى سوان إلى كل الموضوعات المتناثرة التى دخلت فى تكوين الجملة ، وكأنها المقدمات الداخلة فى نتيجتها الحتمية من القياس . لقد كان يشهد سر مولدها . وهتف قائلا لنفسه :

– يا للجسارة ! ولعلها شبيهة بجسارة لافوازييه أو أمبير جسارة فانتى هذه وهو يقوم بتجاريبه ويكتشف القوانين السرية التى تحكم قوة مجهولة ، مقتحماً منطقة لم يرتدها أحد نحو هدف ممكن بجوادين خفيين مشدودين إلى مركبته ، وفيهما وضع كل ثقته وإن كان لن يتبينهما !

وما أبدع ذلك الحوار الذى يسمعه سوان الآن بين البيانو

والفيولينا فى بداية الفقرة الأخيرة . وها هو إلغاء الكلام البشرى بدلا من ترك المخيلة تسيطر بلا ضابط (كما يظن المرء) وقد ألغت المخيلة تماماً . فاللغة المنطوقة لم تكن قط بهذه الضرورة الصارمة ، ولا عرفت قط أسئلة بمثل هذا الإلحاح ، ولا إجابات بمثل هذه البداهة والجلاء . ففى البداية بث البيانو شكواه وحده ، وكما يشكو طائر هجره أليفه . وسمعته الفيولينا وردت عليه ، وكأنها تجيبه من شجرة مجاورة . فكأنما هما عند أول بدء الخليقة ، وكأنه ليس هناك سواهما على وجه الأرض ، أو بالأصح فى هذا العالم المغلق الأبواب فى وجه ما عداهما ، وهو عالم هذه السوناتة . أهو طائر أم روح ، لم يصل بعد إلى الكمال فى هذه الجملة الصغيرة ، أم هو جنى متوار فى موضع ما لينوح ، فيسمعه البيانو ويكرر أنينه بحنان ورقة ؟ كانت صرخاته مفاجئة ، بحيث إن عازف الفيولينا ينبغى أن يجعل قوسه يعدو بسرعة ليدرك هذه الصرخات وهى منبعثة . ويا له من طائر رائع ! وبدا عازف الفيولينا وكأنه يحاول أن يسحره ويستأنسه ويتملقه ويكسبه . وها هو الطائر قد تسلل إلى داخل روحه ، وإذا الجملة الصغيرة التى تنبعث من الطائر تهز جسد عازف الفيولينا وكأنه وسيط روحانى تملكته روح من الجن فعلا .

وكان سوان يعرف أن الجملة سوف تتحدث إليه مرة أخرى ، وها هى شخصيته الآن وقد انقسمت شطرين ، بحيث إن توتر انتظار اللحظة المرتقبة التى سيجد نفسه فيها وجهاً لوجه مرة أخرى أمام الجملة هز أعماقه فى انتحابه من ذلك النوع الذى يبتعثه مناسبيت

من الشعر أو نبأ رهيب ، لا ونحن وحدنا ، بل عندما نكرره لصديق نرى فيه انعكاس شخصنا وكأنه شخص ثالث قد ترق له مشاعره .

وظهرت الجملة من جديد ولكن لتبقى معلقة فى الهواء كأنما جمدت فى مكانها ، ثم لا تلبث أن تتلاشى . وهكذا لم يخسر سوان شيئاً من الوقت الثمين الذى تلكأت فيه هذه الجملة ، لأنها لم تزل هناك كأنها فقاعة قزحية الألوان تطفو برهة وهى صامدة . وكما يبهت لمعان قوس قزح ويبدو أنه سيختنى ، ثم يظهر من جديد قبل أن يتلاشى . وفى ظهوره الأخير يزداد بهاؤه عن ذى قبل ، فهكذا أيضاً أضافت الجملة هذه المرة إلى لونيها السابقين ألواناً ودرجات من الألوان الأخرى كان لها صداح رائع .

ولم يجسر سوان أن يتحرك ، وتمنى لو استطاع إكراه جميع الحاضرين على الجمود فى أماكنهم أيضاً ، كأنما أى حركة يمكن أن تفسد هذا المثول السحرى الرقيق الهش الخارق للطبيعة الذى يمكن أن يزول بسهولة . ولكن يبدو أنه ما من أحد خطر له أن يتكلم ، ذلك أن ما فاه به رجل واحد غائب ، ولعله مات (فسوان لم يكن يعرف هل فانتى لم يزل حياً أم لا) ، عبرت عنه هذه الأنغام الثنائية بما كفى للاستيلاء على ثلاثمائة عقل ، وجعل من هذا المسرح الذى حضرت إليه هذه الروح مذبحاً من أنبل المذابح التى يمكن أن تؤدى عليها مراسم خارقة للطبيعة . وترتب على هذا أنه عندما انتهت الجملة وسبحت أصداؤها فى الهواء كشذى العطر بين الموضوعات التالية من السوناتة ، ضاق سوان ذرعاً حينما رأى الكونتيسة دى مونتريندر

Morteriender – المعروفة ببلاهتها – تميل عليه لتفضى إليه بانطباعاتها قبل ختام السوناتة ، إلا أنه لم يتمالك نفسه من الابتسام ، ولعله وجد أيضاً معنى كامناً فى الألفاظ التى استخدمتها . فقد قالت لسوان مبهورة بمهارة العزف :

– ما أبدع وأروع ما أسمعه ! لم أر قط شيئاً يفوق هذا ...

ثم تلفتت بحثاً عن مزيد من الدقة ، واستدركت قائلة :

– لم أر قط شيئاً يفوقه ... منذ المنضدة الدوارة .

ومنذ تلك الليلة أدرك سوان أن مشاعر أوديت نحوه يوماً ما لن تبعث حية ، وأن آماله فى السعادة لن تتحقق الآن . وفى الأيام التى – بالصدفة السعيدة – أظهرت له فيها الحنان والحب ، أو أولته أدنى اهتمام . كان يعزو تلك العلامات من جانبها نحوه إلى نفس الشعور الرقيق الذى يبديه الناس عندما يمرضون صديقاً فى أواخر أيامه مصاباً بمرض لا شفاء منه ، ويقولون مثلا بكل اهتمام :

– لقد راجع حسابات أمس بنفسه وصحح خطأ كناقد ارتكبناه فى عملية جمع ، وأكل بيضة اليوم وبدا عليه الاستمتاع بها ، وإذا هضمها سنجرب إعطاءه قطعة (كستليتة) غداً ...

مع أنهم يعرفون جيداً أن هذه الأمور كلها لا معنى لها بالقياس إلى الموت الذى لا مفر منه . وما من شك فى أن سوان كان موقناً أنه لو عاش الآن بعيداً عن أوديت فسوف يفقد بالتدريج كل اهتمام بها . لذا كان خليقاً أن يسره جداً أن يعلم أنها ستغادر باريس نهائياً،

وكان حرياً أن يجد الشجاعة على البقاء هناك . ولكنه لم يجد الشجاعة على الابتعاد .

ولقد فكر كثيراً فى الرحيل ، وما دام قد عاد مرة أخرى للعمل فى بحثه عن فرمير Ver Meer فهو يريد العودة – لمدة عدة أيام على الأقل – إلى لاهاى La Haye وإلى درسون Dresden وإلى برنزفيك Brunsvrick . فقد كان مقتنعاً بأن لوحة « زينة ديانا » التى كان قد اشتراها الموريشيوس Muritshius فى مزاد جولد شميدت Goldschmidt على أنها من أعمال نيقولا مايس Nicolas Maes كانت فى الواقع من أعمال فيرمير . وكان يتمنى أن يتمكن من فحص اللوحة فى موضعها ، ليدعم اقتناعه هذا . ولكن ترك باريس بينما أوديت هناك ، بل وأيضاً وهى ليست هناك – لأننا نحيى الألم القديم وننعشه فى المواطن الغريبة التى لم تقلل فيها العادة من إحساساتنا – كان مشروعاً قاسياً يشعر فى أعماق نفسه بأنه قادر على تقليبه بلا انقطاع فى ذهنه لا لشىء إلا لأنه يعلم عن نفسه أنه موطد العزم على عدم تنفيذه ! ولكن قد يحدث له وهو نائم أن تستيقظ فيه نية الرحيل (من غير أن يتذكر أن هذه الرحلة المعينة مستحيلة) وتوضع موضع التنفيذ . فحلم ذات ليلة أنه مسافر لمدة سنة ، وأنه مطل من نافذة القطار صوب شاب واقف على رصيف المحطة منخرطاً فى البكاء وهو يودعه ، ويسعى لإقناع هذا الشاب بالرحيل معه أيضاً .

وبدأ القطار فى التحرك ، فاستيقظ مرتاعاً ، وتذكر أنه ليس

مسافراً ، وأنه سوف يرى أوديت هذا المساء ، وفى اليوم التالى ، وفى كل يوم تقريباً . ومع هذا ظل متأثراً بحلمه هذا ، وشكر السماء على تلك الظروف الخاصة التى جعلته مستقلا ، فبفضلها يمكنه البقاء بقرب أوديت ، بل وفى وسعه أن ينجح فى إقناعها بالسماح له برؤيتها أحياناً . وعدد قائمة مزاياه هذه ، فإذا من بينها وضعه الاجتماعى ؛ وثروته التى كانت دائماً فى حاجة إلى الاستعانة بها بحيث لا تفكر فى القطيعة (بل يقول الناس إنها تخطط فى نفسها لاستدراجه إلى الزواج بها) وصداقته للمسيو دى شارلى التى لا مفر من الاعتراف بأنها لم تكسبه أى حظوة عظيمة من جانب أوديت ، ولكنها تتيح له الشعور المحبب إليه بأنها تسمع على الدوام ثناء طيباً عليه من فم هذا الصديق المشترك الذى تكن له تقديراً عظيماً . وهناك أيضاً ذكاؤه الذى يستخدمه بأكمله كى ينسج فى كل يوم خطة جديدة تجعل حضوره إن لم يكن لطيفاً فهو على كل حال ضرورى لأوديت .

وفكر فيما كان من الممكن أن يحدث له لو أن كل هذه المزايا كانت تنقصه ، فلو كان ـ ككثيرين غيره من الرجال ـ فقيراً وضيعاً وبلا موارد ومجبراً على القيام بأى مهمة تتيسر له ، أو كان مقيداً بوالدين أو بزوجة ، إذن لاضطر فى هذه الحالة لفراق أوديت . وعندئذ كان ذلك الحلم قريب العهد يمكن أن يكون حقيقة ، وقال لنفسه :

ـ إن الناس لا يعرفون متى يكونون سعداء . والحق أنهم ليسوا قط تعساء إلى الحد الذى يتوهمونه .

ولكنه راجع نفسه لأن هذه الحياة قد استمرت حتى الآن بضعة أعوام ، وأن كل ما يمكن أن يرجوه الآن أو يصبو إليه أن تدوم هكذا إلى الأبد ، وهو خليق أن يضحى بعمله وملذاته وأصدقائه ، بل وفى الواقع بكل حياته فى سبيل التوقع اليومى للقاء ، وهذا اللقاء متى تم لم يجلب له أى سعادة ، وسأل نفسه : أليس مخطئاً ، وهل هذه الظروف التى سهلت وواتت علاقتهما وحالت دون فرقة نهائية بينهما لم تضر فى الحقيقة مستقبله ، وهل الحصيلة التى ينبغى أن يصبو إليها ليست ما تراءى له فى الحلم ـ أى الرحيل . وعندئذ قال لنفسه إن الناس لايدرون متى يكونون تعساء ، وإنهم لا يكونون أبداً سعداء إلى الحد الذى يتوهمونه .

وكان فى بعض الأحيان يتمنى أن تموت(*) بلا ألم ، فى حادث ما ، وهى التى تقضى طول وقتها من الصباح حتى الليل فى الشوارع تعبر الطرقات المزدحمة ، ولما كانت تعود دائماً سليمة معافاة كان يتعجب لقوة هذا الجسد البشرى ومرونته بحيث يقوى دائماً على الإفلات من المخاطر التى تكتنفه (وهى فى نظر سوان مخاطر لاحصر لها ، لأن رغبته الباطنة كانت قد نثرتها فى طريقها) ، وبذلك

(*) ما أشبه هذا بقول جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يقابلنى ... من فن بلدتها ناع فينعاها!
كيما أقول فراق لا لقاء له ... ويضمر القلب يأساً ثم يسلاها!

[المترجم]

سمح هذا لجسد للنفس التى تقطنه أن تترك لذاتها العنان ، يوماً فى إثريوم ، وبدون أى عقاب تقريباً ، فى التوغل فى الأكاذيب والتهالك على اللذة .

وشعر سوان بتعاطف شديد من أعماقه نحو محمد الثانى الذى كان معجباً بصورته التى رسمها بللينى Bellini ، فذلك السلطان أحب إحدى زوجاته حباً جنونياً فطعنها بخنجر فقتلها لكى يسترد حريته الروحية ، كما يذكر الفينيسى مؤرخ حياته . ثم ينتابه الخزى من التفكير على هذا النحو فى نفسه فحسب ، فتبدو له عذابات غير جديرة بالرثاء ما دام قد استرخص حياة أوديت إلى هذا الحد .

وما دام غير قادر على إبعاد نفسه عنها بلا رجعة ، فلو أنه على الأقل رآها باستمرار وبلا فرقة لخفت لوعته فى النهاية ، ولعل حبه أيضاً أن يموت ، ومنذ أبت أن تبارح باريس مبارحة أبدية صار يتمنى ألا تبارحها إطلاقاً ، ولما كان يعلم أن غيبتها الوحيدة الطويلة كل سنة عن باريس تتم فى أغسطس وسبتمبر ، لذا تتسع أمامه الفرصة قبل ذلك ببضعة شهور كى يفصل عن هذا الفراق المحدود الصورة القائمة لغيبتها إلى الأبد ، تلك الصورة التى تستقر فى أعماقه ، وتتابع حلقاتها على شكل أيام شديدة المماثلة لهذه الأيام التى يقضيها الآن ، طافية فى ذهنه محفوفة بالشفافية المقرورة ، فيستولى عليه الحزن والاكتئاب ، من غير أن تتسبب له فى ألم لايطاق . ولكن هذا التصور للمستقبل ، ذلك الجدول الدافق الذى لا لون له ولا تخوم ، كانت كلمة واحدة من أوديت كافية لاختراق جميع دفاعات

سوان ، وتتخذ سيولة هذا الجدول ، ثم تحوله إلى ثلج من أوله إلى آخره . وشعر سوان بنفسه وقد امتلأ فجأة بكتلة هائلة صلدة تضغط على الجدران الداخلية ، لوجدانه أو وعيه حتى ليوشك أن ينفجر ، لأن أوديت كانت قد قالت عرضاً وهى ترمقه بابتسامة ماكرة .

ـ إن فورشفيل ذاهب فى رحلة بحرية ... ذاهب إلى مصر !

وفهم سوان على الفور أن هذه العبارة تعنى :

ـ أنا ذاهبة مع فورشفيل إلى مصر .

والواقع ، لو أن سوان بعد بضعة أيام شرع يقول لها :

ـ بصدد هذه الرحلة التى أخبرتنى أنك ذاهبة إليها مع فورشفيل ...

لأجابته فى عدم اهتمام :

ـ نعم يافتاى ، سنرحل يوم ١٩ ، وسنرسل إليك صورة للأهرام.

وعندئذ صمم أن يعرف أهى عشيقة فورشفيل أم لا ، وأن يوجه إليها هذا السؤال المباشر ، ويصر على أن تخبره . وكان يعلم أنها تحجم عن اليمين الكاذبة لأنها شديدة الاعتقاد بالخزعبلات ، ولكنه أيضاً يخشى أن يغضب أوديت إذا سألها ـ وكم كبح هذا الخوف فضوله ـ كما يخشى أن يجعله ذلك السؤال بغيضاً إلى أوديت ، ولكن هذا الخوف لم يعد له الآن وجود بعد أن فقد الأمل فى أن تحبه إطلاقاً .

*



وشعر سوان بنفسه وقد امتلأ فجأة بكتلة هائلة صلدة تضغط على الجدران الداخلية ، لوجدانه أو وعيه حتى ليوشك أن ينفجر ..

وكان قد تلقى ذات يوم خطاباً غفلا من التوقيع يتضمن أن أوديت كانت عشيقة لعدد لا يحصى من الرجال (ذكرت الرسالة أسماء بعضهم ومن بينهم « فورشفيل » والمسيو « دى بيوتيه » Bréauté والرسام) ومن النساء أيضاً ، وأنها كانت تتردد على بيوت سيئة السمعة . وعذبه اكتشاف أن من بين أصدقائه العديدين مخلوق يمكن أن يبعث إليه بمثل هذا الخطاب (لأن بعض التفصيلات نمت على معرفة الكاتب التامة بحياته الخاصة) . وتساءل من عساه يكون ؟ ولكنه لم يخامره أى شك بصدد الأعمال المجهولة للأشخاص الآخرين الذين لاعلاقة لهم منظورة بما قالوا . ولما أراد أن يعرف هل يمكن أن يعزى هذا العمل إلى منطقة خفية تحت الطباع الظاهرة للمسيو دى شارلى أو الأمير دى لوم أو المسيو دور سان D'Orsan ولكن ما من أحد من هؤلاء الرجال ألمح فى أحاديثه مع سوان إلى رضاه عن الرسائل الغفل من التوقيع ، بل كان كل ما قالوه له يشى بأنهم يدينون هذا الأسلوب بشدة . ولذا لم يجد ما يدعوه إطلاقاً لربط هذا العمل الخسيس بطباع أى واحد منهم دون الباقين . أجل إن المسيو دى شارلى كان ميالا بعض الشىء إلى غرابة الأطوار ، ولكنه كان فى صميمه طيباً وعطوفاً ، المسيو دى لوم كان جافاً بعض الشىء بيد أنه ذو طبع مستقيم . وأما المسيو دور سان فسوان لم يعرف أى أحد يمكن — فى أحلك الظروف — أن يقبل إليه بأقوال أشد من أقواله صدوراً من أعماق قلبه وكلما فكر فيه

أحس بأنه يجب أن ينحى جانباً كل سمعة سيئة ، لمجافاة ذلك لرهافته الصادقة وإخلاصه الأصيل .

وشعر سوان ــ لمدة لحظة ــ أن عقله تكتنفه الغيوم ؛ وفكر فى شىء آخر ليستعيد شيئاً من الضوء ، إلى أن واتته الشجاعة على العودة إلى تلك الخواطر الأخرى ، وإذا به بعد أن عجز عن الشك فى أى أحد يجد نفسه مضطراً إلى الشك فى كل من يعرفهم . فالمسيو دى شارلى بعد كل شىء ربما كان شديد الولع به ، وربما كان ذا طبيعة خيرة جداً ، ولكنه عصبى المزاج وربما انفجر فى غد باكياً عند سماعه بأن سوان كان مريضاً . إلا أنه اليوم إما بدافع الغيرة أو الغضب أو تحت تأثير فكرة طارئة قد تساوره الرغبة فى إيذائه عمداً . والحقيقة أن هذا النوع من الرجال هو أسوأ الأنواع ؛ والأمير دى لوم كان يقيناً أقل ولاءاً لسوان من المسيو دى شارلى، بكثير . ولكنه لهذا السبب عينه لا يكن نفس الحساسية من نحو سوان ثم إن طبيعته وإن كانت باردة بالقطع عاجزة عن أى فعل خسيس عجزها عن أى فعل كريم . وندم سوان على أنه لم يكوّن علاقات وثيقة طيلة حياته إلا مع أمثال هؤلاء الناس ، ثم تذكر أن ما يمنع الناس من إيذاء جيرانهم هو الشعور بالمشاركة ، وأنه لم يكن فى نهاية المطاف أن يضمن إلا سلوك أولئك الذين تشبه طبيعتهم القلبية طبيعته الخاصة ، مثل طبيعة المسيو دى شار لى . فمجرد التفكير فى التسبب فى مثل هذه التعاسة لسوان كان حرياً أن يكون مثيراً لاشمئزازه . أما فيما يتعلق برجل عديم الحساسية ، ومن نمط آخر

من البشرية ، مثل الأمير دى لوم ، فمن أين للمرء أن يتصور سلفاً الأفعال التى يمكن أن تقوده إليها إيحاءات طبيعته المختلفة ؟ فالمعول كله على أن يكون المرء طيب القلب ، والمسيو دى شارلى طيب القلب ، ولكن المسيو دورسان لا تنقصه هذه الصفة أيضاً ، وصلته بسوان ودية ، ولكنها لا تكاد أن تكون حميمة ، ومبعثها ما يجدانه من المتعة فى حديثهما معاً لتطابق آرائهما فى كل شىء . فعلاقتهما أهدأ من العلاقة الحارة الحماسية التى تربطه بالمسيو دى شارلى الذى كان من الممكن أن ينجرف إلى نشاط عاطفى خيراً كان أو شراً . ولئن كان هناك أحد يشعر سوان بأنه كان يحسن فهمه دائماً ويحبه فى رفق فهو المسيو دورسان . أجل ، ولكن الحياة التى يحياها لاتكاد توصف بالشرف .

وندم سوان على أنه لم يفطن قط إلى تلك الشائعات ــ التى أقرها شخصياً على سبيل الهزل ــ بأنه لم يكن أبداً فى حالة تعاطف شديد أو احترام إلا وهو فى مجتمع «ضار» تماماً . وراح يؤكد لنفسه: « ليس بلا مبرر أن الناس عندما يحكمون على جار لهم يقوم رأيهم فيه على أساس أفعاله ، فالأفعال وحدها ذات مغزى ، وليست كذلك أقوالنا ولا أفكارنا . وقد يكون فى شارلى أو دى لوم هذا العيب أو ذاك، ولكنهما من أهل الشرف بينما دورسان قد لا تكون فيه هذه العيوب ، ولكنه ليس رجلا شريفاً . ومن الجائز أنه تصرف بغير شرف مرة أخرى » . ثم ارتاب بعد ذلك فى ريمى Rémi الذى قد يكون الموحى بهذه الرسالة الغفل . وشعر برهة

بأنه على الأثر الصحيح . ثم إن لدى لوردان أسبابه الخاصة لتمنى الأذى والضرر لأوديت. ثم من أين لنا ألا نظن أن خدمنا الذين يعيشون دون مستوانا ويضيفون إلى ثرواتنا وحظوظنا كنوزاً ورذائل خيالية يحسدوننا عليها ويمقتوننا بسببها فى آن واحد ، لا يجدون أنفسهم مدفوعين بحكم الظروف إلى تصرفات يستبشعها أناس من طبقتنا ؟

وارتاب أيضاً فى جدى ، ففى كل مرة طلب منه فيها أن يؤدى له خدمة ، ألم يكن جدى يتنحى ؟ ويضاف إلى هذا أن جدى بما لديه من أفكار عن « أصول السلوك المحترم » لدى الطبقة الوسطى لما حسب أنه يعمل ما فيه صالح سوان . وارتاب أيضاً فى بيرجوت Bergotte الرسام، وفى آل فرديران . وتوقف برهة معجباً بحكمة أهل المجتمع الذين كانوا يرفضون الاختلاط بالأوساط الفنية التى يمكن أن تجرى فيها مثل هذه الأمور التى قد يعدونها أنواعاً من الهزل ممتازة . ثم تذكر علامات الأمانة التى يجب أن يراعيها هؤلاء البوهيميون ، وقارنها بحياة النفعيين أهل اللياقة التى كثيراً ما تتاخم الغش والخداع اللذين كثيراً ما يتورط فيهما أعضاء الطبقة الأرستقراطية بدافع الحاجة إلى المال والتعطش إلى البذخ والملذات المفسدة .

وقصارى القول أن هذه الرسالة الغفل أثبتت له أنه يعرف شخصياً إنساناً قادراً على أحط سلوك ، ولكنه لايجد سبباً للقول بأن هذه الزلة المعيبة تصدر بالضرورة من حيث لا تستطيع عين أن تكتشفها ، أى من أغوار قلب دافئ أكثر مما تصدر عن قلب بارد ،

ومن قلب فنان أكثر مما تصدر عن قلب رجل أعمال . ومن قلب نبيل أكثر مما تصدر عن خادم . فما هو المعيار الذى ينبغى للمرء أن يتخذه كى يحكم على رفاقه ؟ فليس هناك بعد كل شيء شخص واحد من بين جميع من يعرفهم يمكن أن يقطع بأنه لايقترف عملا شائناً فى ظروف معينة . فهل يجب عليه أن ينقطع عنهم جميعاً ؟

وتلبد عقله بالغيوم ، ومر بيديه مرتين أو ثلاثاً على جبينه ، ومسح نظارته بمنديله ، وتذكر أن الرجال الذين على شاكلته يخالطون بعد كل شيء مجتمع المسيو دى شارلى والأمير دى لوم ومن إليهما ، وأقنع نفسه أن ذلك إن لم يكن يعنى أنهم عاجزون عن الأفعال المخزية ، فهو يعنى على الأقل أن هذه المخالطة ضرورة بشرية لابد أن يخضع لها الكافة ، فيخالطون مجتمع قوم قد لا يكونون فوق مستوى هذا العمل . وهكذا ظل يصافح كل الأصدقاء الذين يرتاب فيهم ، ولكن مع تحفظ شكلى بأن كلا منهم ربما كان يريد أن يدفعه إلى اليأس .

أما عن المحتويات العقلية لتلك الرسالة الغفل . فهى لم تزعجه ، لأنه لم يجد فى أى تهمة من التى نسبتها إلى أوديت أقل أثر للحقيقة ، ذلك أن سوان ــ شأنه شأن رجال كثيرين ــ كان ذا عقل كسول بطبعه ، وكان أيضاً بطىء الاختراع . وكان يعرف جيداً ــ كحقيقة عامة ــ أن الحياة البشرية حافلة بالمفارقات . ولكن فى حالة أى كائن بشرى كان يتخيل أن الجانب الذى لا يعرفه من حياته أو حياتها مطابق تماماً للجانب الذى يعرفه منها . وفى الأوقات التى كان يقضيها

مع أوديت ، إذ ماتطرقت الأحاديث بينهما إلى عمل غير مستحب ارتكب ، أو إلى رأى غير مستحب أعرب عنه شخص ثالث ، كانت تنبرى لإدانة مرتكبه بلا رحمة اعتماداً على عين المبادئ التى كان سوان يسمعها من والديه شخصياً ، والتى ظل هو نفسه شديد الولاء لها . ثم بعد ذلك تنسق أزهارها وترشف شايها وتبدى اهتماماً بعمله ، فكان سوان يمد ويوسع هذه العادات بحيث تملأ سائر حياتها. وكان يعيد بناء هذه الأفعال عندما يريد أن يكون تصوراً للأوقات التى يكونان فيها مفترقين . ولو صورها له أحد كما هى ، أو بالأصح كما كانت معه لمدة طويلة ، ولكنه وضع فى محله رجلا آخر غيره شخصياً ، لاغتم جداً ، لأن هذه الصورة تبدو له مطابقة للواقع الحى . أما الزعم بأنها تذهب إلى بيوت سيئة السمعة ، وأنها تسلم نفسها لمباذل متهتكة مع نساء أخريات ، وأنها تتهالك على ملذات دنيئة مثل أراذل البشر ، لرأى فى ذلك خبالا للعقل غير مقبول ، لأن تحققه ليس له موضع ولله الحمد إلى جانب زهرة الكريزنتيم التى يستطيع أن يتخيلها ، وفناجين الشاى اليومية واستنكاراتها الفاضلة لكل ماهو غير لائق . وكل ما هناك أنه كان يوحى إلى أوديت ، بين الحين والحين ، أن الناس يحيطونه علماً بكل ما تفعله ، ويستخدم بعض التفصيلات التى نمت إلى علمه وهى على تفاهتها صادقة ، وكأنما هذه هى كل ما يسمح لها أن تخرج من شفتيه من بين المعلومات التى لا حصر لها عن البنية الكاملة لحياتها اليومية التى يحملها فى ذهنه ، ويحملها على الاعتراف بأن بعضها معلومات صحيحة

عن أمور لم يكن فى الواقع يعرف عنها شيئاً . ولئن كان يناشد أوديت ألا تغير شيئاً من معالم الحقيقة ، فإنما كان هذا لكى يحملها على أن تقول له كل شىء بدر منها .

ولا شك فى أنه — كما كان يؤكد دائماً لأوديت — كان يحب الصدق على نحو ما يمكن أن يحب قواداً يطلعه على الحياة اليومية لعشيقته . ولأن حبه للصدق لم يكن منزهاً عن الغرض ، لم يتحسن به طبعه وخلقه . فالصدق الذى كان يحبه هو الصدق الذى قد تخبره به أوديت . أما هو ، فلكى يستخرج منها هذا الصدق لم يكن يتحرج من الالتجاء إلى الكذب ، عين ذلك الكذب الذى لم يكف عن التأكيد لأوديت بأنه ينحط بقائله إلى الدرك الأسفل .

وقصارى القول أنه كان يكذب مثلما كانت أوديت تكذب ، لأنه مع أنه أشد شقاء منها إلا أنه ليس أقل منها أنانية ، وهى أيضاً عند ماتسمعه يكرر على أسماعها الأمور التى صنعتها تحدق فيه بنظرة عدم تصديق ، بل وباستنكار ، حتى لاتبدو فى عينه خجلانة من أفعالها .

وحدث ذات يوم بعد أطول فترة من الهدوء عاشتها بدون نوبات غيرة ، أنه قبل دعوة لقضاء السهرة فى المسرح مع الأميرة دى لوم . ولما فتح صحيفته اكتشف أن الرواية التى ستمثل هى « فتيات من الرخام » ليتودور بارييز Barrière ، فبدا له هذا العنوان أشبه بلطمة قاسية حتى أنه أشاح عنه متراجعاً إلى الوراء تلقائياً. فقد انعكست على هذا العنوان أضواء كأضواء المسرح ، فى بيئة

جديدة بحيث إن كلمة « الرخام » التى كان قد فقد القدرة على تمييزها ، لكثرة ما مرت تحت بصره وهى مطبوعة ، صارت الآن بارزة وقد أعادت إلى ذهنه قصة كانت أوديت قد روتها له منذ أمد طويل عن زيارة قامت بها لصالون (معرض) أقيم فى قصر الصناعات مع مدام فرديران التى قالت لها :

ـ حذار الآن ! فأنا أعرف كيف أذيبك كل الليل ، فأنت لست من الرخام !

وكانت أوديت قد أكدت له أن هذا القول لم يكن إلا مزاحاً ، فلم يعلق عليه أهمية فى ذلك الحين . ولكن ثقته بها فى ذلك الحين كانت أكبر مما هى الآن . والخطاب الغفل أشار صراحة إلى علاقات شاذة من هذا النوع . ومن غير أن يجسر على رفع بصره إلى الصحيفة التى فتحها ، وقلب الصفحة حتى لا يرى مرة أخرى « فتيات من الرخام » وشرع يقرأ أخبار الأقاليم آلياً . لقد ثارت عاصفة فى بحر المانش ، وحدثت خسائر فى دييب Dieppe ، وكابو Cabourg وبيزفال Beuzeval .. ومرة أخرى تراجع فى هلع .

فاسم بيزفال دفع إلى ذهنه باسم مكان آخر فى نفس المنطقة وهو بيزفيل Beuzeville التى يرتبط بها اسم آخر هو بريوتيه ، الذى كان كثيراً ما رآه على الخرائط ، ولكن من غير أن يلاحظ أنه نفس الاسم الذى يحمله صديقه المسيو دى بريوتيه الذى اتهمه الخطاب الغفل بأنه كان عشيق أوديت . وفيما يختص بالمسيو دى بريوتيه ليس هناك ـ بعد كل شىء ـ ما يجعل هذه التهمة غير متوقعة .

أما من حيث ما يتصل بمدام فرديران فالتهمة مستحيلة تماماً .

وليس من العدل أن يستخلص من مجرد إقدام أوديت أحياناً على الكذب أنها لم تكن صادقة أبداً فى أى وقت ، وتلك الأحاديث والثرثرات التى روتها أوديت له أنها جرت بينها وبين مدام فرديران يتوسم من تجربته فى الحياة أن تلك الأقوال المازحة من هذا القبيل تمس موضوعات خطرة ورذائل تصدر فى الواقع عن براءة هاتيك النساء وعدم خبرتهن بالحياة ، وبذلك تدل هذه الأقوال غير البريئة على فرط براءتهن ، وتدل على عدم وجود أى عاطفة دنسة بين أوديت وبين قائلتها . ولكن من ناحية أخرى كان الاستنكار الذى بددت به الريب التى خلقتها هى بدون قصد فى ذهنه بروايتها ، يتلاءم مع كل ما يعرفه من أذواق عشيقته ومزاجها الخاص . ولكن فى تلك اللحظة ، وبدافع من وحى غيرته شبيه بالإلهام الذى يكشف للشاعر أو الفيلسوف الذى لا يملك إلا شطرين من القوافى أو نتفاً من الملاحظات فكرة أو قانوناً طبيعياً يقدم لعمله القوة والسيطرة ، إذا بسوان يتذكر للمرة الأولى ملاحظة كانت أوديت قد ذكرتها له ، قبل ذلك الوقت بسنتين على الأقل ، وهى « أن مدام فرديران لا يمكن أن تسمع أن أى شىء الآن عداى . فأنا « حبها » من فضلك وهى تلثمنى وتطالبنى بالذهاب معها إلى كل مكان وأن أناديها باسمها الأول » بدلا من أن يرى فى هذه التعبيرات ما يبعث على الضيق أو أى علاقة بهذه التعريضات والتلميحات التى يقصد بها خلق جو من الرذيلة ، بل صار يرى فيها كما تترجمها عليه أوديت

أدلة على دفء قلب مدام فرديران وصداقتها الكريمة . ولكن هذه الذكرى القديمة لتعلقها بأوديت تداخلت فجأة مع الذكرى الحديثة لذلك الحديث غير المحتشم ، ولم يستطع أن يفرق بينهما فى ذهنه ، وصار يراهما ملتحمتين فى الواقع ، وأضفى هذا التعلق الجدية والأهمية على المزاح والمداعبات التى تجرد هذا التعلق من براءته .

وذهب لزيارة أوديت وجلس متباعداً عنها ، ولم يجسر على معانقتها ، غير عارف هل التعلق أم الغضب هو الذى سوف تثيره لديه ولديها القبلة . وجلس صامتاً يرقب حبهما وهو يلفظ أنفاسه . وفجأة حزم أمره وتكلم :

ـ أوديت يا حبيبتى ! أعلم أننى سأكون بغيضاً جداً ، ولكن لابد لى أن أوجه إليك بضعة أسئلة : أتذكرين ما كنت أظنه يوماً ما بينك وبين مدام فرديران ؟ خبرينى الآن . أكان ذلك صحيحاً ؟ هل كانت بينك فى أى وقت من الأوقات علاقة من هذا النوع معها أو مع أى واحدة أخرى ؟

فهزت رأسها ، وهى تمط شفتيها المزمومتين معاً ، وهى حركة أو إيماءة درج الناس عادة على الإتيان بها للتعبير عن عدم الرغبة فى الذهاب ، لأن ذلك يضجرهم ، حينما يسألهم أحد : « أذاهب أنت للفرجة على الموكب ؟ » أو « هل ستكون فى ساحة العرض ؟ » ، ولكن هذه الهزة من الرأس التى تستخدم عادة لرفض المشاركة فى حدث سوف يحدث ، تضفى لهذا السبب عنصراً من الشك على إنكار المشاركة فى حدث مضى زمنه ، ويدل فى الوقت نفسه على دواع

من الراحة الشخصية لا على الاستنكار ، ولا على الاستحالة من الناحية الخلقية . فلما رأى سوان أوديت تومئ إليه هكذا بأن هذا الاتهام أو التعريض غير صحيح ، أدرك أنه من الممكن أن يكون صحيحاً . وأردفت هى وهى بادية الغضب وعدم الارتياح :

ـ لقد قلت لك إننى لم أرتكب هذا قط ، وأنت تعرف هذا جيداً .

ـ أجل . أنا أعرف هذا جيداً ، ولكن أأنت متأكدة تماماً ؟ لا تقولى لى : « أنت تعرف هذا جيداً » ، بل قولى : « أنا لم أفعل قط أى شىء من هذا القبيل مع أى امرأة » .

فكررت كلماته كالدرس المحفوظ عن ظهر قلب ، وكأنها تريد بذلك أن تتخلص منه :

ـ أنا لم أفعل قط أى شىء من هذا القبيل مع أى امرأة .

ـ أفى وسعك أن تقسمى لى على ذلك على مدلاتك لاغيتو Laghetto

وكان سوان يعرف أنها لا يمكن أن تحلف كذباً على هذه المدلاة وصاحت وهى تهز بدنها كمن تريد أن تتحرر من ضغط سؤاله هذا :

ـ أوه ! لكم تتسبب فى تعاستى ! ماذا بك اليوم ؟ يبدو أنك حزمت أمرك على إجبارى على كراهيتك ولعنك ! اسمع ! لقد كنت متلهفة على صداقتك من جديد ، وأن نقضى وقتاً لطيفاً معاً ، كالأيام الخوالى ، وهذا كل ما تقدمه لى على سبيل الشكر !

ومع هذا لم يفلتها ، بل جلس هنالك كما يجلس الجراح فى انتظار

انقضاء تشنج اعترض الجراحة التى يجريها ، ولكنه لن يكفه عن إتمامها . وشرع يقول لها بلهجة الإقناع :

ـ أنت مخطئة إذ تظنين أنى أضمر لك أى نية سوء يا أوديت ، وأنا لا أكلمك قط إلا فيا أعرفه من قبل ، وأنا دائماً أعرف قدراً أكبر كثيراً مما أتفوه به . ولكنك أنت وحدك التى تستطيعين أن تخنقى باعترافك ما جعلنى أكرهك ، مما بلغنى عنك على لسان الآخرين . وليس غضبى منك راجعاً أبداً إلى أعمالك ـ فأنا يمكننى أن أغفر لك كل شىء ، وأغفر فعلا لك كل شىء لأنى أحبك ، بل غضبى كله من عدم صدقك . ذلك الكذب السخيف الذى يجعلك تصرين على إنكار أمور أعرف أنها صحيحة . وكيف يمكن أن تتوقعى أننى سأواصل حبى لك وأنا أراك تقسمين لى على شىء أعرف أنه غير صحيح ؟ لا تطيلى هذه اللحظة يا أوديت أكثر مما يجب ، فهى تعذبنى وتعذبك معاً ، فإن كنت تريدين إنهاءها على الفور ، فسوف تتحررين منها تحرراً أبدياً ، بأن تقسمى لى على مدلاتك هل فعلت هذه الأمور أم لا .

فقالت بغضب شديد :

ـ وكيف تريدنى أن أعرف ؟ فلعلنى فعلتها منذ زمن بعيد جداً ، عندما كنت لا أدرى ما أنا صانعة ، وربما حدث هذا مرتين أو ثلاثاً !

وكان سوان قد أعد نفسه لكل الاحتمالات ، ولكن الواقع شىء لا علاقة له بالاحتمالات إلا كعلاقة طعنة سكين فى جسم

المرء بحركة السحب التدريجية من فوق رأسه . فقولها : « مرتين أو ثلاثاً » حفرت بشفرة حادة على شكل صليب فوق أنسجة قلبه . ومن الغريب فعلا أن هذه الكلمات الثلاث « مرتين أو ثلاثاً » التى نطقتها فى الهواء ، وعلى مبعدة منه ، أمكنها أن تطعن قلب رجل ، كأنما هى شفرات اخترقته بالفعل ، وأمكنها أن تمرضه ، وكأنما قد تجرع كأساً من السم .

وبصورة تلقائية غريزية فكر سوان فى الملاحظة التى سمعها فى بيت مدام دى سانت إيفيرت :

ـ لم أر شيئاً يفوق هذا منذ المناضد الدوارة !

ولم يكن العذاب الممض الذى عاناه الآن يشبه ما تخيله . ليس فقط لأنه فى أحلك ساعات شكه فيها لم يتخيل كل هذه الذرى من الشر ، بل لأنه حتى عندما تخيل هذه الجريمة ظلت غامضة غير مؤكدة ، وليست متلبسة بهذه البشاعة التى طفرت من فمها عند قولها « ربما مرتين أو ثلاثاً » ، ولم تكن مزودة بكل هذه القسوة التى تختلف عن كل ما عرفه من قبل ، وكأنها مرض جديد يهاجم المرء لأول مرة .

ومع هذا ، فأوديت هذه ، التى طفر منها كل هذا السوء لم تكن أقل قيمة عنده ، بل هى على النقيض من هذا أعظم قيمة ، كأنما ازدادت مع زيادة آلامه فى الوقت نفسه قيمة المسكن والترياق الذى تملكه هذه المرأة دون سواها . وأراد أن يوليها اهتماماً أعظم ، مثلما ينكب المرء على مرض جديد اكتشف أن خطورته زادت فجأة

وتمنى أن يكون من الممكن كبح هذا الشىء الفظيع الذى باحت له به والذى مارسته « مرتين أو ثلاثاً » بحيث لا يحدث بعد ذلك ، ولكى يضمن هذا لابد له من السهر على أوديت .

وكثيراً ما يقول الناس : إنك بإبلاغ رجل آهات عشيقته له لا تفلح إلا فى تقوية ارتباطه وتعلقه بها ، لأنه لا يصدقك . ولكن ما أشد تعلقه بها بالأكثر إن هو صدقك ! ولكن سوان سأل نفسه إلى أى حد يمكنه أن يحميها ؟ ربما استطاع أن يصونها من أن تلوثها امرأة واحدة . ولكن هناك مئات غيرها من النساء ، وهو قد تحقق مدى جنون طموحه عندما بدأ (فى تلك الليلة التى فشل فيها فى العثور على أوديت فى بيت آل فرديران) يشتهى امتلاك امرأة أخرى ، كأنما كان هذا ممكناً . ومن حسن طالع سوان أنه تحت كتلة العذاب الذى اجتاح روحه كجحافل الغزاة البرابرة كان هناك أساس طبيعى أقدم وأصلب راح يعمل بنشاط وفى صمت ، مثل خلايا أى عضو مصاب التى تعمل على الفور لإصلاح الأنسجة المعطوبة ، أو مثل عضلات طرف من الأطراف مصاب بالشلل فى اتجاهها إلى استعادة قدرتها السابقة على الحركة . فهذه الكوامن الأصلية القديمة فى روحه امتصت كل قوى سوان برهة ، ذلك أن مهمة التعويض الذاتى هذه تبدو فى صورة فترة من الراحة فى حالة النقاهة أو بعد إتمام الجراحة وفى هذه المرة لم يحدث هذا التراخى ــ كالعادة ــ فى ذهن سوان ، بل فى قلبه بالأكثر . ولكن كل أمور الحياة التى جرت مرة من قبل تميل إلى التكرار ، وكالحيوان المحتضر الذى تعاوده انتفاضة تشنجية

هكذا أيضاً عادت إلى قلب سوان بعد لحظة همود لواعج العذاب ، لتتحرى ذلك الصليب الذى رسمته الطعنات . فتذكر تلك الأمسيات المقمرة فى فصل الربيع ، التى كان يتكئ فيها داخل عربته وهى تقله إلى شارع لابيروز ، وتتواثب فى نفسه المتع الشهوانية التى تفيض بها مشاعر رجل عاشق ، غافلا عن الثمرة المسمومة التى لابد أن تثمرها هذه المشاعر . ولكن كل هذه الخواطر لم تلبث أكثر من ثانية واحدة ، وهى المدة التى استغرقتها يده وهو يرفعها إلى قلبه وشهقت أنفاسه من جديد وحاول أن يبتسم ، كى يدارى عذابه . وشرع من جديد يلقى مزيداً من الأسئلة ، ذلك أن غيرته ــ التى كانت قد تجشمت الكثير من العناء أكثر من أى عدو يصر على أن يوجه إليه الضربة القاضية ويجرعه أشد الآلام قسوة ــ هذه الغيرة لم تكن قد اقتنعت بأنه نال كفايته من العذاب ، فآلت على نفسها أن تعرض صدره لجرح أعمق . ومثل ربة من ربات الشر راحت غيرة سوان توحى إليه وتدفع به نحو الدمار . ولم يكن الذنب ذنبه بل ذنب أوديت وحدها إذا كان عقابه فى البداية ليس أقسى وأعنف وقال لها من جديد :

ــ يا حبيبتى ! لقد انتهى كل شىء الآن . فهل حدث ذلك مع أى امرأة ممن أعرفهن ؟

ــ لا . لم يحدث وأقسم لك . ثم إننى أحسبنى بالغت ، فأنا فى الواقع لم أذهب قط إلى كل هذا المدى .

فابتسم ، واستأنف كلامه قائلا :



ـ كما تحبين ، فالأمر ليس هاماً حقاً . ولكن من سوء الحظ أنك عاجزة عن ذكر أى اسم . فلو استطعت أن أكوِّن فكرة عن شخصية ما لحال ذلك دون تفكيرى فيها مرة أخرى . وأنا أقول هذا من أجلك أنت ، لأننى عندئذ لن أزعجك بشأنها بعد ذلك : فاستطاعة المرء تكوين صورة واضحة عن الأمور فى ذهنه تساعد على تهدئة باله جداً . فالرهيب حقاً هو ما لا يستطيع المرء تخيله . ولكنك كنت لطيفة جداً معى ولا أريد أن أجهدك . وأنا شاكر لك من صميم قلبى على كل ما صنعته معى من جميل . وها أنا ذا قد فرغت الآن ، وبقيت كلمة واحدة . كم مرة حدث هذا ؟

ـ أوه يا شارل ! ألست ترى أنك تقتلنى هكذا ؟ لقد انتهى هذا كله منذ زمن طويل جداً . ولم أعره أى التفات أو تفكير . وكأنى بك تريد الآن أن تضع هذه الأفكار فى ذهنى مرة أخرى . وعندئذ لا تلومن إلا نفسك !

قالت هذه العبارة الأخيرة ببلادة لا شعورية ، ولكن بخبث مقصود . فقال :

ـ إنما أردت فقط أن أعرف هل حدث هذا منذ عرفتك . وهذا طبيعى جداً . فهل حدث هذا هنا ، إطلاقاً ؟ ألا يمكنك أن تحددى أمسية معينة كيما أذكر نفسى بما كنت أصنعه فى ذلك الحين ؟ وقطعاً ليس ممكناً أنك لا تتذكرين يا أوديت مع من حدث هذا يا حبى !

ـ ولكنى لا أعرف حقاً . لا أعرف . أظن أن ذلك حدث

فى الغابة ذات مساء عندما أتيت أنت كى تقابلنا فى الجزيرة ، وكنت ليلتها تتناول العشاء مع الأميرة دى لوم .

وقد أسعدها أن تذكر هذه التفصيلات الدقيقة التى تشهد بمصداقيتها ، وأردفت :

ـ وكانت على المائدة المجاورة امرأة لم أكن رأيتها منذ زمان طويل ، فقالت لى : « هيا معى إلى خلف الصخرة هناك وانظرى إلى ضوء القمر المنعكس على الماء ! » . وفى البداية تثاءبت وقلت لها : « لا . أنا متعبة جداً ، وأنا سعيدة جداً حيث أنا ، شكراً لك » . فأقسمت لى أنه لا شىء يضارع ضوء القمر المنعكس هناك فقلت لها : « لقد سمعت هذه الحكاية من قبل ! » . فها أنت ترى أننى كنت أعرف تماماً ما ترمى إليه هذه المرأة !

وكانت أوديت تسرد هذه الواقعة وكأنها فرحة ، إما لأنها بدت لها طبيعية جداً ، أو لأنها ظنت أنها بهذه الطريقة تقلل من أهميتها ، أو ربما لكى لا تبدو مستخزية . ولكنها لما لمحت سحنة سوان غيرت لهجتها وقالت :

ـ يا لك من شيطان ! أنت تتلذذ بعذابى ، وتحملنى على أن أروى لك أكاذيب كى أجعلك تتركنى آمنة فى سربى !

وكانت هذه الضربة الثانية أشد وقعاً على سوان من الأولى . فلم يكن قد خطر له قط أن تلك المسألة حديثة العهد إلى هذا الحد ، وأنها توارت عن نظره الذى كان أشد سذاجة وبراءة من أن يتبينها . فهى ليست من أحداث الماضى الذى لم يعرفه ، بل وقعت فى أمسيات

يذكرها جيداً ، وعاشها مع أوديت وكان يحسب أن معرفته بها حميمة جداً وتامة الشمول ، ولكنها الآن قد اكتسبت وطرفه يرتد إليها طابع الخبث والغش والقسوة . ووسط هذا كله فغرت هاوية فاها فى تلك اللحظة فوق الجزيرة فى غابة بولوينا . وكانت أوديت فى سردها خالية من الذكاء ، ولكنها كانت طبيعية بصورة فاتنة . أجل لقد أدت هذا المشهد الصغير بمنتهى البساطة حتى أن سوان لهثت أنفاسه وقد تراءى المشهد لعينيه . نعم رأى أوديت تتثاءب وسمعها تجيب مغويتها بخفة قلب وا أسفاه قائلة : « لقد سمعت هذه الحكاية من قبل ! » وشعر بأنها لن تخبره الليلة بما هو أكثر من هذا ولم يتوقع مزيداً من التكشف فى الوقت الحاضر ، فلاذ بالصمت برهة ثم قال لها :

ـ يا حبيبتى المسكينة . اغفرى لى . فأنا أعرف أنى أؤلمك كثيراً جداً ، ولكن ها قد انتهى الآن كل شىء ، ولن أفكر فى الأمر بعد ذلك .

ولكنها رأت عينيه ما زالتا مثبتتين على الأمور التى لم يعرفها ، وعلى تلك الحقبة من ماضى حبهما ، وهى فى ذاكرته رتيبة وادعة ، لأنها غامضة ، وإذا به الآن كأنما طعنه سيف بنبأ هذه الدقيقة العابرة فوق الجزيرة فى الغابة فى ضوء القمر ، بينما هو يتناول العشاء مع الأميرة دى لوم . ولكنه كان قد اكتسب عادة الإحساس بأن الحياة جديرة بالاهتمام والتعجب من الاكتشافات الغريبة التى يصادفها فيها لدرجة أنه وهو يعانى كل هذا العذاب الممض بحيث لم يكن ليصدق

أنه فى مقدوره أن يتحمل كل هذا القدر من العذاب الأليم لأى فترة من الزمن ، كان مع هذا يقول لنفسه :

ـ ما أعجب الحياة ، وما تكشفه لنا خفاياها من المفاجآت . وها هى الرذيلة يتضح أنها أشيع مما كان يعتقد المرء . فها هى امرأة كنت أثق بها ثقة مطلقة ، وتبدو بسيطة جداً ، وأمينة صادقة جداً ، وحتى مع إقرارنا بأن خلقها ليس بالغ الاستقامة ، إلا أنها كانت تبدو سوية جداً وسليمة جداً من حيث أذواقها وميولها . وأتلقى بشأنها اتهاماً غير متوقع فأسألها عنه ، وإذا بالقليل الذى تعترف به يكشف عن أكثر مما كنت قد ارتبت فيه !

ولكنه لم يستطع أن يتوقف عند هذه الملاحظات المتناثرة ، وسعى إلى تكوين تقدير دقيق لأهمية ما قالته له الآن ، لكى يعرف هل بوسعه أن يستنتج أنها ارتكبت هذه الأمور مراراً ، وهل من المتوقع أن تعود لارتكابها وكرر لنفسه أقوالها : « كنت أعرف تماماً ما ترمى هى إليه » و « مرتين أو ثلاثاً » و « لقد سمعت هذه الحكاية من قبل » ، ولكن هذه العبارات لم تبرز ثانية إلى ذاكرته مجردة من السلاح ، بل كانت كل منها شاهرة سكيناً راحت تطعنه بها من جديد .

ولوقت طويل كان أشبه بمريض لا يمكنه أن يكبح نفسه من محاولة فى كل دقيقة للإتيان بالحركة التى يعلم تماماً أنها ستوجعه ، فظل يغمغم لنفسه : « أنا سعيدة تماماً حيث أنا . شكراً لك ! » ، و « لقد سمعت هذه الحكاية من قبل » . ولكن الألم كان من الشدة

بحيث اضطر للكف عن هذا . وأدهشه أن الأعمال التى كان قبل الآن يراها هينة بحيث يصرفها من ذهنه ضاحكاً ، ها هى قد صارت الآن فى نظره فى مثل خطورة المرض الذى قد يتضح بسهولة أنه قتال . وكان يعرف أى عدد من النساء اللواتى يمكنه أن يطلب إليهن مراقبة أوديت ، ولكن كيف يتسنى له أن يتوقع منهن أن يكيفن أنفسهن بوجهة نظره الجديدة ، وألا يلبثن محتفظات بوجهة نظر كوجهة نظره السابقة التى طالما استرشد بها فى حياة الشهوانية وألا يقلن له باسمات الثغور :

— يا لك من وحش غيور ! أتريد أن تسلب الآخرين متعتهم؟

وبأى باب سرى خفى فغرفاه تحت قدميه (وهو الذى لم يجد فى الماضى فى حبه لأوديت إلا أرهف المتع والملذات) فألفى نفسه يتدهور إلى هذه الدائرة من الجحيم التى لا يعرف كيف يفر منها . يا للمسكينة أوديت ! إنه لا يتمنى لها سوءاً ولا أذى . وليست ملومة لوماً كاملا . ألم تقل له إن أمها هى التى باعتها وهى لم تتجاوز الطفولة بعد فى نيس إلى إنجليزى ثرى ؟ ولكن أى حقيقة معذبة الآن تمثلها له تلك السطور من « يوميات شاعر » لألفريد دى فينى Alfred de Vigny التى كان قد قرأها فيما مضى بدون انفعال : « عندما يشعر المرء أنه مطعون بحبه لامرأة ، فعليه أن يقول لنفسه : ماذا كانت بيئتها وماذا كانت حياتها ، فكل سعادته المقبلة رهن بهذا الجواب » .

ودهش سوان لأن مثل هذه العبارات البسيطة كانت ترجمتها

فى ذهنه هى : « لقد سمعت هذه الحكاية من قبل » أو « كنت أعرف تماماً ما الذى ترمى إليه » فيكون لها صدى فى نفسه مؤلم إلى هذا الحد . ولكنه أدرك أن ما خاله عبارات بسيطة كانت فى الواقع أجزاء من حلة دروع كاملة فى وسعها أن تصب عليه العذاب الذى ذاقه وأوديت تسرد عليه قصتها ، لأنه نفس العذاب الذى يشعر به الآن من جديد . ولا جدوى الآن لكونه قد نسى جزئياً زلتها وغفرها لها نهائياً ما دام ترداد كلماتها يجدد عذابه ويرده إلى الحالة التى كان عليها قبل أن تبدأ أوديت فى الكلام . يرده جاهلا واثقاً غافلا . فها هى غيرته التى لا ترحم ترتد إليه كرة أخرى ، لكى يطعنه اعتراف أوديت وكأنه لم يعرف الحقيقة بعد . وبعد عدة شهور ظلت هذه القصة القديمة تذهله وكأنما هى اكتشاف مفاجئ . وعجب لقدرة ذاكرته على إعادة خلق الموقف وعذاباته . ولا أمل له فى الراحة من عذاباته هذه إلا عندما تضعف القوة الخلاقة ويصيبها الوهن مع التقدم فى السن . ولكن ما إن تبدو قوة أى عبارة من عبارات أوديت التى جعلت سوان يتعذب وكأنها استنزفت ، حتى تنبرى عبارة أخرى من عباراتها لم يكن قد ألقى إليها باله فتحل محل العبارة الأولى وتنهال عليه بالطعنات بقوة لا تنضب . وكانت ذكرى الأمسية التى تعشى فيها مع الأميرة دى لوم مؤلمة له ، بيد أنها لم تكن إلا مركز هذا الألم ولبابه الدفين ، أما الألم نفسه فكان يشع منها فى غموض ويفيض على الأيام السابقة لتلك الأمسية واللاحقة لها . وأيا كانت النقطة التى يريد من ذاكرته أن تتوقف عندها حتى يتجلى

له ذلك الموسم بأكمله الذى أكثر فيه آل فرديران من الذهاب لتناول العشاء على الجزيرة فى الغابة ، ويؤلمه ألماً شديداً ، حتى أن فضوله الذى كانت غيرته تستثيره فيه دائماً أخذ يتحيد بالتدريج تحت تأثير خوفه من ألوان العذاب الجديدة التى ربما صبها على نفسه لو أنه أرضى هذا الفضول وانقاد له . وأدرك أن كل الفترة من حياة أوديت التى انقضت قبل أن تقابله أول مرة ، وهى فترة لم يسع قط إلى تكوين أى صورة لها فى ذهنه لم تكن تجريداً بلا ملامح يمكنه أن يبصره فى غموض ، بل كانت مكونة من سنوات كثيرة محددة ، وكل سنة منها مزدحمة بأحداث معينة . ولكنه لو عرف المزيد منها ، فهو يخشى أن يتخذ ماضيها الذى يبدو الآن بلا لون ، ولا قوام صورة ملموسة بذيئة ، ذات ملامح متفردة شيطانية . وظل يتحاشى البحث عن تصور لها ، ولم يكن هذا التحاشى عن كسل فى عقله بل فزعاً من وطأة العذاب : وتمنى أن يتسنى له يوماً ما أن يسمع اسم الجزيرة فى الغابة ، أو اسم الأميرة دى لوم يذكر أمامه من غير أن يحس أى وخزة من وخزات ألمه الموجع . وفى الوقت نفسه رأى من الرعونة استثارة أوديت كى تزوده بعبارات جديدة وبأسماء مزيد من الأماكن والأشخاص وبمزيد من الأحداث ، فإذا بدائه الذى لم يكد يبرأ منه يتفجر فى صورة أخرى .

ولكن كثيراً ما كانت أوديت نفسها هى التى تكشف له تلقائياً وبدون تفكير فيما هى صانعة تخبره بالأمور التى لم يكن يعرفها عنها وكان يخشى الآن أن يعلم عنها شيئاً ، ذلك أن الفجوة التى حفرتها

رذائلها بين حياتها الفعلية والحياة البريئة نسبياً التى كان سوان يعتقد وما زال فى أوقات كثيرة يعتقد أنها تحياها ، كانت فجوة أوسع مما تعلم . والشخص المتمرغ فى الرذيلة يتظاهر دائماً بالفضيلة أمام أناس يتلهف على عدم ارتيابهم به وبرذائله ، ولكن هذا الشخص ليس لديه سجل ولا مقياس يعرف بالرجوع إليه إلى أى مدى هذه الرذائل (فهو لم يفطن إلى نموها الخفى لديه) قد فصلته عن أساليب الحياة السوية . ففى سياق معاشرتهما الجنسية ، كانت ذكرى أفعال أوديت التى أخفتها عن سوان تصطبغ بها فى ذهنها أفعالها الحميدة ويسرى إليها الفساد منها ، من غير أن تجد فى هذا الفساد أى غرابة ، ومن غير أن يسبب ذلك أى انفجار فى تلك المنطقة من سريرتها التى تعيش فيها هذه الذكريات . ولكنها عندما ترويها لسوان يدهش ويصدم باكتشافه مبلغ ريائها الذى توحى به هذه الذكريات .

وذات يوم كان يحاول ــ من غير أن يؤذى أوديت ــ أن يكتشف منها هل كانت لها أى معاملة مع القوادات . والواقع أنه كان مقتنعاً فى دخيلة نفسه بأنه لم تكن لها هذه المعاملات معهن ، إلا أن الرسالة الغفل أوحت إليه بذلك . ولكنه لم يصدق هذا ، إلا أن الاتهام كان لم يزل قائماً ، فأراد سوان أن يتخلص من أعبائه التى لم تكن باهظة ، ولكنها أعباء على كل حال ، وتوقع أن تقضى أوديت على هذا الشك بصورة نهائية . فقالت له :

ــ لا عزيزى ــ لا . ولكن ليس معنى هذا أنهن لا يطاردننى كى أذهب إليهن !

وكشفت ابتسامتها عن زهو شديد ، لم تفطن إلى أنه لا يمكن أن يبدو شعوراً مشروعاً من جانبها . واستطردت قائلة بنفس هذا الزهو :

– لقد انتظرتني إحدى القوادات بالأمس أكثر من ساعتين وقالت إنها مستعدة أن تعطيني أى مبلغ من المال أطلبه . إذ يبدو أن أحد سفراء الدول كان قد قال لها : « سأقتل نفسي إن لم تجيئيني بها » ، وكان يعنيني أنا بذلك الكلام . وقالوا لها إني خرجت ، ولكنها انتظرت وانتظرت ، وفى النهاية اضطررت أن أخرج إليها أنا كي تنصرف . ولكم كنت أود أن ترى كيف تعاملت معها . وكانت خادمتي فى الحجرة المجاورة تصغي لحديثنا ، وقد قالت لى بعد ذلك : إني كنت أصيح وكأني أريد أن أهدم البيت بصياحي ، وأنا أقول لها : « ماذا تنتظرين ، وقد سمعتني أقول إني لا أريد هذا ! إن مجرد التفكير فى هذا شيء لا أحبه على الإطلاق . وأظنني ما زلت حرة فى أن أصنع ما أشاء متى شئت وأين شئت ! ولو كنت بحاجة إلى نقود ، لكان الأمر مفهوماً ... » ، وأصدرت أمري للبواب كي لا يسمح لها بالدخول بعد ذلك . وسيقول لها دائماً أني فى سفر خارج المدينة . آه ! كم كنت أتمنى لو كنت مختبئاً فى مكان ما بالحجرة وأنا أتحدث إليها ، فأنا أعلم أنك كنت ستسر جداً يا عزيزي . ففي عزيزتك الصغيرة أوديت بعض الخير بعد كل شيء وإن كان الناس يقولون عنها أبشع الأشياء .

ثم إن اعترافاتها نفسها – إذا ما أفضت بشيء منها – بالأخطاء التى يخيل إليها أنه اكتشفها ، كانت تفضي عند سوان إلى شكوك

جديدة بدلا من القضاء على شكوكه القديمة . ذلك أن اعترافاتها لم تكن تتطابق قط مع شكوكه . وعبثاً كانت أوديت تنقي اعترافها من الجوهر الأساسي ، لأنه كان يتبقى بعد ذلك فى الحواشي شيء ما لم يكن قد تخيله سوان بعد ، فيسحقه هذا العنصر الجديد سحقاً ، ويتيح له أن يعدل فى محتوى مشكلة غيرته . ولم يكن بمقدوره قط أن ينسى هذه الاعترافات ، لأن فكره كان يحملها معه على الدوام ولئن نبذها أحياناً ، إلا أنه سرعان ما يحتضنها من جديد ، فكأنها جثث فى مجرى نهر تعمل على نفث سمومها فيه .

وحدث أنه حدثته يوماً عن زيارة جاءها فيها فورشفيل فى يوم عيد باري – ميرسي Paris-Mercie . فصاح بها :

– كيف ؟ أكنت تعرفينه كل هذه المدة ؟ آه . نعم . طبعاً كنت تعرفينه !

وقد أسرع بهذا الاستدراك حتى لا يظهر لها أنه كان يجهل هذا الواقع . وفجأة بدأ يرتجف عندما خطر له أنه فى يوم عيد باري – ميرسي قد تلقى منها ذلك الخطاب الذى احتفظ به بكل إعزاز ، ولعلها كانت تتناول الغداء يومئذ مع فورشفيل فى « البيت الذهبي » . وأقسمت له أن لا ، فاستطرد قائلاً لها على أمل أن يروعها :

– ومع هذا يذكرني البيت الذهبي بشيء أو آخر كنت فى ذلك الحين أعلم أنه غير صحيح .

فأجابته وقد أدركت من سحنته أنه يعرف

– أجل . وهو أنني لم أكن هناك على الإطلاق ذلك المساء

عندما قلت لك إنى جئت لتوى من هناك ، وكنت أنت تبحث عنى فى محل بريفو Prevost

قالت ذلك بحزم قائم على التهيب أكثر من قيامه على الاستهتار ، فقد خافت أن تغضب سوان ، ولكن احترامها لنفسها دفعها إلى إخفاء ذلك ، ورغبة منها فى إشعاره بأنها تستطيع أن تكون صريحة متى شاءت . وهكذا أصابته بكل الحدة والقوة التى يمكن أن ينهال بها جلاد وهو يضرب بفأسه ، ولكنها مع ذلك لا تتهم بالقسوة لأنها كانت غير واعية أنها تؤذيه بما قالت : بل لقد ضحكت ، وإن كان هذا الضحك ربما كان بدافع منعه من الاعتقاد بأنها تشعر بالخزى على الإطلاق أو بالارتباك . وأردفت :

— إننى حقاً لم أذهب إلى البيت الذهبى ، بل كنت قادمة من بيت فورشفيل . وكنت قد ذهبت فى الحقيقة إلى محل بريفو — فذلك لم يكن أكذوبة — وقابلنى هو هناك وطلب منى أن أذهب إلى بيته وأنظر إلى صوره المطبوعة . ولكن شخصاً آخر حضر لزيارته . وقد قلت لك إنى قادمة من البيت الذهبى لأنى كنت أخشى أن تغضب منى : أليس هذا تصرفاً حسناً منى فى الحقيقة ؟ أليس كذلك وأنا أعترف بأنى ارتكبت خطأ ، ولكنى على الأقل ها أنا أخبرك الآن بكل شىء . أليس كذلك ؟ وماذا يمكن أن أكسب من عدم إخبارك بصراحة أننى تناولت معه الغداء فى يوم بارى — ميرسى ما دام هذا حقاً ؟ ولا سيما ونحن فى ذلك الوقت لم يكن كل منا يعرف الآخر جيداً كما نحن الآن . أليس كذلك يا عزيزى ؟

وابتسم لها بذلك الضعف الجبان الذى أصابته به كلماتها الساحقة وهكذا — حتى فى الشهور التى لم يجرؤ قط على إعادة التفكير فيها ، لأنها كانت شهور سعادة تامة ، حتى فى هذه الشهور التى كانت تحبه فيها . كانت أيضاً تكذب عليه . وإلى جانب تلك اللحظة (تلك الأمسية الأولى التى « صنعا فيها الكاتليا » وهى كنايتهما الخاصة عن ممارسة الجنس) التى أخبرته فيها أنها قادمة من البيت الذهبى ، كم من الأكاذيب الأخرى كانت هناك . وكل أكذوبة منها تغطى على خدعة كان سوان لا يرتاب فيها . وتذكر كيف قالت له ذات مرة :

— لست بحاجة إلا إلى أن أقول لمدام فردبران : إن ثوبى لم يكن جاهزاً بعد ، أو إن مركبتى قد تأخرت . فهناك دائماً عذر من نوع ما .

وبالنسبة له هو أيضاً من المحتمل أن تلك المرات الكثيرة التى تفوهت فيها بمثل هذه الكلمات من قبيل تفسير تأخر أو تبرير تعديل فى موعد محدد من قبل للقاء ، كانت تخفى أيضاً (من غير أن يكون لديه أى شك فى ذلك الحين) موعد لقاء بينها وبين رجل آخر ، رجل قالت له أيضاً :

— لست بحاجة إلا أن أقول لسوان : إن ثوبى لم يكن جاهزاً أو إن عربتى قد تأخرت . فهناك دائماً عذر من نوع ما .

وتحت أحب ذكرياته إلى نفسه ، وتحت أبسط الكلمات التى تفوهت بها أوديت له فى تلك الأيام الغابرة — وهى كلمات كان فى حينها يصدقها كأنما هى من التنزيل [illegible] اليومية التى

كانت تسردها عليه ، وتحت جميع الأماكن العادية ، مثل شقة خياطتها ، وشارع الغابة ، وميدان السباق ، استطاع أن يشعر (لأن فيض الوقت بين هذه التفصيلات لكيفية قضاء نهارها يترك دائماً ثغرة ما تصلح مخبأ لأعمال لم تعترف له بها) بوجود تيار خفى من الأكاذيب يرخص أثمن ما كان يعتز به من أمسياته السعيدة . بل ويرخص شارع لابيروز نفسه الذى لابد أن أوديت كانت تغادره فى ساعات أخرى غير التى حدثته عنها ، وبذلك يتسع مدى الارتياع الحالك الذى استولى عليه عندما سمع اعترافها المتعلق بالبيت الذهبى ورآها (على منوال تلك المخلوقات البذيئة الفاحشة فى « خراب نينوى ») تنقض حجراً وراء حجر من صرح ماضيه كله ...

فلئن أشاح الآن بوجهه كلما كررت عليه ذاكرته اسم البيت الذهبى القاسى ، فلأن هذا الاسم لم يعد يعيد إليه كما حدث فى حفل مدام دى سانت إيفيرت حسن الطالع الذى نعم به ثم فقده من زمن طويل ، بل يذكره بكارثة علم بها الآن لأول مرة . وبذلك حدث للبيت الذهبى مثلما حدث للجزيرة فى الغابة ، إذ كف هذا الاسم عن إزعاجه تدريجياً . ذلك أن ما نظنه حبنا وغيرتنا ، ليس أحد منهما عاطفة واحدة متصلة . بل هما فى الحقيقة مركبان من عدد لا متناه من الحب المتعاقب ، ومن الغيرة المتباينة الوجوه . وكل حلقة فى هذه السلاسل عابرة زائلة ، ولكن كثرة هذه الحلقات توهمنا باتصالها فيما بينها وبوحدة كيانها .

إن حياة حب سوان وإخلاص غيرته مكونان من ميتات

وخيانات ورغبات لا تحصى وشكوك لا تحيط بها حصر ، كانت أوديت موضوع كل منها . فلو ظل فترة من الزمن من غير أن يراها ، لما حلت مشاعر أخرى محل المشاعر التى ماتت . ولكن مثول أوديت تكفل ببذر بذور العشق والشك على التوالى فى قلب سوان .

وفى أمسيات معينة قد تستأنف فجأة رقة أو حناناً تنذره بأنه ينبغى أن ينتهز فرصتها على الفور ، وإلا تعرض لعقوبة عدم رؤيتها تتكرر لسنوات قادمة . فتقول له : إنه يجب أن يصحبها فوراً إلى بيتها كى يجامعها ، والحق أن رغبتها فيه التى زعمت أنها استولت عليها فجأة ، وبغير تمهيد أو تفسير كانت رغبة عارمة ، والقبلات التى أمطرته بها كانت صارخة التعبير غير مألوفة ، بحيث أن هذا الولع الوحشى غير الطبيعى جعل سوان يشعر بالتعاسة وكأنه حيال أى أكذوبة أو عمل غير ودى :

وفى إحدى الليالى ، وكان قد انصاع لها وذهب معها إلى بيتها وبينما هى تمطره بقبلاتها وألفاظها الملتهبة (فى مفارقة مذهلة مع برودها المألوف منها) شعر كأنه قد سمع فجأة صوتاً غريباً ، فنهض من الفراش وفتش فى كل مكان فلم يجد أحداً . ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للعودة إلى مكانه بجوارها ، فاستشاط غضبها وحطمت زهرية وهى تصيح :

ـ لن أستطيع مطلقاً أن أفعل معك شيئاً كما ينبغى ، أنت شخص مستحيل الإرضاء ، ولا جدوى منه

وظل هو نهب الشك ، أهناك فعلا رجل كان مختبئاً فى الحجرة أرادت هى أن تهيج غيرته وتجرح شعوره ، أو تلهب حواسه .

وكان يلجأ أحياناً إلى بيوت المتعة الراقية ، لعله يعرف من مومساتها شيئاً عن أوديت ، وإن لم يجسر على التفوه باسمها . وتستقبله « المعلمة » مرحبة وتقول :

– عندى لك هنا بنية صغيرة لا شك أنها ستروقك !

ويظل هناك ساعة أو نحوها ، يتحدث بأسى إلى فتاة مسكينة جالسة قبالته فى دهشة من أنه لا يتجاوز معها مرحلة الأحاديث : وذات مرة قالت له إحدى العاهرات هناك وهى فتاة لم تزل صغيرة السن جذابة :

– طبعاً أنا أتمنى أن أجد صديقاً حقيقياً ، وعندئذ فى وسعه أن يطمئن إلى أننى لن أعرف أحداً غيره من الرجال بعد ذلك أبداً .

فسألها سوان بقلق ولهفة :

– أتعتقدين حقاً أنه من الممكن أن تتأثر امرأة بحب رجل لها فلا تخونه ؟

فأجابته :

– يقيناً ! وكل شىء يتوقف على طباعهما !

فلم يكن يسع سوان أن يكبح نفسه عن التوجه بهذه الأسئلة التى يمكن أن تسر الأميرة دى لوم إلى تلك النعيات ، فقال مثلا للفتاة التى كانت تتمنى صديقاً وهو يبتسم



شعر كأنه سمع فجأة صوتا غريبا ، فنهض من الفراش وفتش فى كل مكان فلم يجد أحدا ..

– ما ألطفك . فقد اتخذت عينين زرقاوين لتتناسبا مع لون وشاحك !

فأجابته :

– وأنت أيضاً طرفا كميك زرقاوان !

– ما ألطف هذه المحادثة التي نتجاذب أطرافها ! وفى مكان كهذا ! ألست أضجرك أو أضيع وقتك ؟ وأعطلك !

– ليس أمامى عمل أعمله شكراً لك . ولو كنت تضجرنى لقلت لك هذا . ولكنى أحب سماعك وأنت تتكلم ...

– إن هذا يتملق غرورى .

والتفت يسأل « المعلمة » التى كانت قد أطلت من الباب برأسها :

– أليس سلوكنا لطيفاً ؟

– آه . طبعاً . لقد كنت أقول لنفسى ما ألطف سلوكهما ولكن هذا هو الحال الآن ! فعلية الناس يحضرون الآن إلى بيتى لمجرد الكلام . ولقد قال لى الأمير منذ عدة أيام : إنه يشعر هنا بارتياح أعظم كثيراً مما يشعر به مع زوجته . ويبدو أن كل سيدات المجتمع الراقى هذه الأيام على هذا المنوال . فضيحة كبرى ؟ هذا هو رأيى . وسأترككما الآن وحدكما ، فأنا أعرف متى لا يكون مرغوباً فى وجودى .

وغادرت سوان مع الفتاة الزرقاء العينين . ولكنه سرعان ما نهض وقال للفتاة وداعاً ، لأنها لم تعد تثير اهتمامه ، لأنه اتضح له أنها لا تعرف أوديت .

* * *

ولأن الرسام كان مريضاً ، لذا نصحه الدكتور كوتار بالذهاب فى رحلة بحرية ، ورغب كثيرون من « الخلصاء » فى أن يصحبوه . ولم يستطع آل فردبران مواجهة تركهما وحيدين فى باريس ، لذا استأجرا أولا ، ثم اشتريا بعد ذلك يختاً . وهكذا ذهبت أوديت معهم فى الرحلات البحرية . وكانت كلما قضت بعيداً عن سوان فترة طويلة ، أحس أنه بدأ يتحرر منها ، ولكن كأنما كانت هذه المسافة المعنوية تتناسب مع ما بينهما من مسافة مادية ، لذا ما أن كان يسمع أن أوديت عادت إلى باريس حتى لا يتمالك نفسه من زيارتها .

وحدث ذات مرة أنهم ذهبوا فى رحلة كان المفروض أن تستمر شهراً واحداً ، ولكن إما أنهم انقادوا لسلسلة من الإغراءات أو أن المسيو فرديران كان قد رتب كل شىء بدهاء من قبل ، لكى يسر زوجته ، ولم يفض بالحقيقة إلى الخلصاء إلا بعد فترة من الزمن . المهم على كل حال أنهم بعد الجزائر ذهبوا إلى تونس ، ثم إلى إيطاليا وبلاد اليونان والقسطنطينية وآسيا الصغرى . وطالت غيبتهم قرابة العام ، وشعر سوان بتمام الارتياح ، بل كاد يشعر بالسعادة .

ومع أن المسيو فرديران حاول إقناع عازف البيانو والدكتور كوتار ، بأن خالة الأول ومرضى الآخر ، لا حاجة بهم إليهما ، وأنه من التهور على كل حال السماح لمدام كوتار بالعودة إلى باريس حيث ـ كما أكدت مدام فرديران للطبيب ـ قد اندلعت الثورة ، إلا أن المسيو فرديران اضطر لتركهما وأطلق سراح هذه المجموعة الصغيرة فى القسطنطينية ، وجاء مع ثلاثتهم الرسام أيضاً .

وذات يوم بعد عودة هؤلاء الأربعة بوقت قصير ، أبصر سوان سيارة عامة (حافلة) تقترب منه مكتوب عليها « لوكسمبور » ، وكانت لديه مهمة هناك ، فوثب إلى الحافلة ووجد نفسه جالساً قبالة مدام كوتار ، التى كانت تقوم بدورة زيارات لصواحبها اللواتى كان اليوم يوم استقبالهن ، وهى فى كامل زينتها ، وقد رشقت ريشة فى قبعتها ، وارتدت ثوباً حريرياً ، ووضعت يديها فى دثار ، ومعها مظلة (تصلح لوقايتها من الشمس إذا لم تمطر السماء) ، وحافظة بطاقات ، وقفاز أبيض جاءت به لتوها من محل التنظيف . وكانت وهى فى هذا الحفل من زخرفها خليقة أن تسير على قدميها لتستعرضه حين يكون البيت التالى فى نفس المنطقة ، أما حين تنتقل إلى حى آخر فهى تستخدم بطاقة اشتراك فى الحافلة .

وفى الدقيقة أو الدقيقتين الأوليين ، وإلى أن نفذت دماثة المرأة من السطح المنشى لزوجة الطبيب (وهى لا تدرى على كل حال هل يجوز لها أم لا أن تذكر آل فرديران أمام سوان) فراحت تخوض فى موضوعات شتى بصورة طبيعية بصوتها البطىء النبرات الذى لا يخلو من رخامة (كانت تغرق بين الحين والحين فى ضوضاء محرك الحافلة) ، وهى موضوعات كانت قد أعدتها سلفاً كى تكرر سردها فى كل صالون ستدخله فى يومها هذا .

ـ لست بحاجة إلى أن أسألك يا مسيو سوان ، وأنت الرجل الكثير الخبرة بجم النشاط هل ذهبت إلى معارض ميرليتون Mirliton كى ترى الصورة التى رسمها ماشار Machard ، والتى تتسابق

باريس بأسرها إلى هناك لتراها . وما رأيك فيها ؟ وفى أى المعسكرين أنت : معسكر من يمجدونها أم معسكر من يلعنونها ؟ فلا حديث فى كل بيوت باريس الآن إلا عن صورة ماشار ، ولن تعد أنيقاً وجيهاً ولا مثقفاً حقاً ولا على آخر طراز ما لم تدل برأيك فى صورة ماشار .

وأجابها سوان بأنه لم ير هذه الصورة ، فخشيت مدام كوتار أن تكون قد جرحت شعوره بإرغامه على الإقرار بهذا التقصير . وقالت :

ـ أوه . لا بأس ! لديك على الأقل شجاعة هذه الصراحة . ولا تعد نفسك منقوص القدر لأنك لم تر صورة ماشار . وهذا فى حد ذاته شىء لطيف جداً من جانبك . أما أنا فقد رأيتها ، والرأى فيها منقسم كما تعلم ، فهناك فريق من الناس يرونها مفتعلة ، كأنها القشدة المخفوقة كما يقولون . أما أنا فأراها رائعة . إنها طبعاً ليست مطلقاً كالسيدات اللواتى يرسمهن صديقنا بيش Biche باللونين الأصفر والأزرق . هذا واضح لذى عينين . ولكننى أقول لك بكل صراحة (وقد تظننى « دقة قديمة » ولكنى أقول دائماً ما اعتقد) : إننى لا أفهم عمله . وأنا أدرك مواضع الحسن فى الصورة التى رسمها لزوجى ، طبعاً . وهى أقل غرابة من صوره الأخرى التى يرسمها ، ولكنه مع هذا جعل لزوجى المسكين شارباً أزرق ! أما ماشار ! وانصت جيداً من فضلك لما سأقوله الآن : إن زوج صديقة لى التى أنا الآن فى طريقى لزيارتها (وهذا ما أتاح لى الصدفة السعيدة جداً

بلقائك) وعدها بأنه إذا انتخب لعضوية الأكاديمية (وهو أحد زملاء الدكتور) فسوف يكلف ماشار أن يرسم صورتها . وها هى تتطلع إلى هذا اليوم بلهفة ! ولى صديقة أخرى تصر على أنها تفضل ليلوار Leloir . وأنا امرأة متعلقة بالقديم ، ولا شك عندى فى أن ليلوار لديه معرفة بالرسم أكثر من ماشار ، ولكنى أعتقد أن أهم شىء فى الصورة (ولا سيما إذا كانت ستتكلف عشرة آلاف فرنك) أن تكون مشابهة لموضوعها مشابهة سارة ، وأظنك فهمت ما أعنيه !

ولما كانت قد استنفدت موضوعها الذى ألهمها إياه ارتفاع ريشة قبعتها ، والموتوجرام الذى على حافظة بطاقاتها ، والرقم الصغير المكتوب بالحبر داخل كل من قفازيها بيد عامل التنظيف ، وصعوبة الكلام مع سوان عن آل فرديران ، وقد لاحظت مدام كوتار أنه ما زالت أمامها مسافة طويلة قبل الوصول إلى ناصية شارع بونابرت حيث تنزل من الحافلة ، لذا لبت نداءات قلبها التى أوحت إليها بكلمات من نوع آخر ، فغامرت بقولها :

— لابد أن أذنيك شعرتا بسخونة الاحتراق ونحن على اليخت مع مدام فرديران . فقد كنا نتحدث عنك طول الوقت .

وشعر سوان بدهشة حقيقية ، لأنه كان يظن أن اسمه لم يذكر قط فى حضور آل فرديران . وواصلت مدام كوتار كلامها قائلة :

— أنت تعلم أن مدام دى كريسى كانت معنا هناك ، فهل ترانى بحاجة إلى مزيد من القول ؟ فمتى كانت أوديت فى مكان فلن

يمضى وقت طويل قبل أن تشرع فى الكلام عنك . وأنت تعلم جيداً أن ما تقوله عنك ليس كلاماً مذموماً ..:

ولما لاحظت أن سوان بدا متشككاً قالت بكل حماسة وحسن نية :

— عجباً ! أراك لا تصدقنى ! بل إنها تعبدك ! ولعمرى لا يمكن لأحد أن يقول أى شىء ضدك فى حضورها ، لأنها تلزمه حدوده على الفور ! فأياً كان ما نصنعه ، كأن نكون ناظرين مثلا إلى صورة ، نسمعها تقول : « لو كان معنا هنا ! فهو الرجل الذى بوسعه أن يقول لنا : أهى صورة أصيلة أم لا . فلا أحد يباريه فى هذا » . وتظل طول اليوم تقول : « ترى ماذا يصنع الآن ؟ أتمنى أن ينجز عملا من أعماله ، ولو بعض الشىء ! فما أفظع أن يكون رجل له مثل موهبته كسولا إلى هذا الحد ! » (وأرجوك أن تغفر لى هذا القول) : « إنى أراه فى هذه اللحظة مستغرقاً فى التفكير فينا ويتساءل الآن : أين نحن » . والواقع أنها استخدمت تعبيراً وجدته ظريفاً جداً فى حينه . فقد سألها المسيو فرديران : « كيف يمكن أن ترى ما هو صانع بينك وبينه قرابة ألفى كيلومتر ؟ » فأجابته أوديت : « لا مستحيل على عين صديقة » . كلا . أؤكد لك أننى لا أقول ذلك كى أتملقك . فالحق أن لك فى أوديت صديقة مخلصة ، يندر وجود نظيرها اليوم . بل وأؤكد لك (إن كنت لا تدرى ذلك) أنك الوحيد فى قلبها . وقد قالت لى مدام فرديران نفس الشىء فى آخر يوم لنا معهم (فالإنسان يتكلم بمزيد من الصراحة

قبيل الفراق (، قالت : « لست أقول : إن أوديت ليست متعلقة بنا ، ولكن كل ما يمكن أن نقوله لها لا قيمة له فى مقابل ما يقوله لها سوان » . أوه . ها هى الحافلة تقف كى أهبط منها ، وأنا ماضية فى الثرثرة معك ، حتى كدت أتجاوز شارع بونابرت من غير أن أفطن لذلك... هل لك أن تتكرم بإخبارى هل ريشتى مستقيمة ؟

وانسحبت يدا مدام كوتار من دثارهما لكى تقدم لسوان يداً فى قفاز أبيض تفوح منها ـ مع بطاقة الاشتراك ـ رائحة أنيقة عبقت جو الحافلة ممزوجة برائحة جلد القفاز الحديث التنظيف . وشعر سوان بفيض من العرفان لها ، ولمدام فرديران أيضاً (ويكاد يشعر بمثل ذلك أيضاً لأوديت ، لأن شعوره نحوها الآن لم يعد مشوباً بالألم ، بل يكاد يوصف بالحب) بينما هو يتعقب بنظره مدام كوتار وهى تشق طريقها بأناقة فى شارع بونابرت ، وريشتها منتصبة ، وذيلها مرفوع بإحدى يديها ، بينما اليد الأخرى تقبض على مظلتها وحافظة بطاقاتها بحيث يبدو مونوجرامها للعيان ، ودثار يديها يتراقص فى الهواء أمامها وهى ماضية فى طريقها .

ولكى تستثير المشاعر الهاجعة التى يكنها سوان لأوديت كانت مدام كوتار فى هذه « الحالة » بالذات طبيباً أحكم مما يمكن أن يصنعه زوجها ، فقد طعمت هذه المشاعر وغرست بينها مشاعر أخرى عادية هى مشاعر العرفان والصداقة التى تجعل أوديت تبدو فى ذهن سوان أكثر إنسانية (أى أشبه بغيرها من النساء ، لأن غيرها من النساء يمكنهن أن يوحين إليه بعين هذه المشاعر) ، ويسارع ذلك

بتحويلها النهائى مرة أخرى إلى أوديت التى كان يحبها قديماً بإعزاز غير مشوب ، والتى أخذته ذات ليلة بعد القصف فى مرسم الرسام لكى يحتسى عصير البرتقال مع فورشفيل ، أوديت التى كان سوان يحسب أنه يمكن أن يعيش معها فى سعادة .

وفى الأيام الخوالى عندما كان يكثر من التفكير فى فزع فى أن يوماً ما لابد سيحل فيجد أنه لم يعد يحب أوديت ، كان قد قرر أن يشحذ انتباهه ومتى شعر أن الحب بدأ يفر منه ، تشبث به كى يسترجعه ويستبقيه . أما الآن فمع ضعف حبه ضعفت لديه أيضاً الرغبة فى أن يظل عشيقها . ذلك أن المرء لا يمكن أن يتغير ، أى أن يغدو شخصاً آخر ، بينما هو مستمر فى إطاعة أوامر الذات التى كف عن أن يكونها . وأحياناً ، إذا ما وقعت عينه فى إحدى الصحف ، على اسم أحد الرجال الذين حسب أنهم كانوا عشاقاً لأوديت ، كانت غيرته تستيقظ من جديد ، ولكنها كانت غيرة هينة جداً بحيث تثبت له فحسب أنه لم يتجاوز تماماً الحقبة التى اشتد فيها عذابه ـ وإن كانت فترة العذاب الشديد قد صحبها أيضاً شعور بالسعادة الشديدة ـ وأن أحداث مساره من الممكن أن تتيح له حتى الآن لمحة يسيرة وعن بعد لألوان الجمال التى منحته إياها تلك الغيرة ، كتلك الهزة التى يشعر بها الباريسى الحزين بعد أن غادر البندقية وتعين عليه أن يعود إلى باريس ، وإذا ببعوضة تثبت له أن إيطاليا والصيف لم يبعد عهده بهما بعد .

ولكن غالباً ، عندما يبذل جهداً إن لم يكن للبقاء فى هذه الفترة

من حياته التى هو الآن بسبيل الخروج منها، بل على الأقل للحصول قبل فوات الأوان على لمحة منها ، كان يكتشف أن الأوان قد فات بالفعل . وقد ينظر خلفه كمن يريد أن يتبين منظراً يوشك أن يختفى ، أى ليتبين الحب الذى فارقه ، ولكن من الصعب جداً الدخول فى حالة مزدوجة تمام الازدواج وأن يمثل لنفسه منظر إحساس لم يعد مستولياً عليه ، بل سرعان ما تتراكم السحب فى ذهنه فلا يستطيع أن يرى منه شيئاً . فيتخلى عن المحاولة ويرفع منظاره عن أنفه ويمسح الزجاجتين ، ويقول لنفسه : إنه خيراً يصنع إذا أخلد للراحة قليلا وأنه سيتسع الوقت لذلك فيما بعد ، ويستقر فى ركنه المفضل هامد الفضول شاعراً بالخدر كالمسافر الوسنان الذى يجذب قلنسوته فوق عينيه ليحظى بشىء من النعاس فى عربة قطار يشعر بأنها تقله بمزيد من السرعة إلى خارج القطر الذى عاش فيه طويلا ، والذى آلى على نفسه ألا يدعه يفلت منه من غير أن يطل عليه إطلالة وداع أخيرة :

ومثل هذا المسافر الذى لم يستيقظ إلا بعد عبور الحدود وقد صار مرة أخرى فى فرنسا ، كذلك أن اتفق لسوان أن يقع على شىء يثبت له أن فورشفيل كان عشيق أوديت ، كان يكتشف أن ذلك لا يسبب له أى ألم ، وأن الحب صار الآن بعيداً عنه تمام البعد ويأسف لأنه لم يكن لديه نذير باللحظة التى فارقه فيها إلى الأبد ، ومثلما سعى قبل أن يقبل أوديت القبلة الأولى أن يطبع فى ذاكرته ذلك الوجه الذى كان قد صار مألوفاً له أمداً طويلا قبل أن يتغير بالذكرى الإضافية لهذه القبلة التى يتبادلانها لأول مرة ، كذلك كان

يتمنى – ذهنياً على الأقل – أن يكون فى وضع من يودع أوديت التى ألهمته الحب والغيرة ، أوديت التى كانت سبب عذابه ، والتى لن يراها بعد الآن •

ولكنه كان مخطئاً . فقد كتب له أن يراها مرة أخرى بعد عدة أسابيع . وكان ذلك وهو نائم ، فى غسق الحلم . كان ماشياً مع مدام فرديران والدكتور كوتار وشاب يرتدى طربوشاً ولم يستطع أن يتبين من هو ، والرسام وأوديت ونابليون الثالث ، وجدى أنا ، فى ممر يحاذى الشاطئ ، ويعلو فوق سطح البحر آناً على ارتفاع كبير وآناً آخر على ارتفاع عدة أمتار فقط ، بحيث كانوا على الدوام مرتفعين هابطين . وأولئك الذين كانوا قد بلغوا منهم المنحدر الهابط لم يعودوا فى مجال بصر من كانوا لا يزالون صاعدين . وكانت البقية الباقية من ضوء النهار آخذة فى الخفوت . وبدا كأن ليلا حالكاً سيخيم عليهم فجأة . وبين الحين والحين كانت الأمواج تضرب الجرف ، حتى أن سوان أحس على خده رشاشاً من الرذاذ الثلجى . وطلبت منه أوديت أن يمسح هذا الرذاذ ، ولكنه لم يستطع فشعر بالارتباك وقلة الحيلة فى صحبتها ، ولا سيما لأنه كان يسير معهم فى قميص نومه . وتمنى ألا يظهر هذا للعيان جلياً فى الظلام . ولكن مدام فرديران ثبتت عليه نظرة دهشة برهة طويلة جداً ، رأى فيها وجهها يتغير شكله ، فطال أنفها ، ومن تحته انبعث شارب كثيف ، واستدار مشيحاً عنها ليفحص أوديت فوجد خديها شاحبين ، وفيهما بقع نارية صغيرة ، وملامحها مطوطة تحف بها الظلال ، إلا أنها

بادلته النظر بعينين تفيضان بالعاطفة ، وكأنهما تهمان أن تنفصلا عن وجهها كالدموع لتسقطا على وجهه . وشعر بأنه يحبها كثيراً جداً حتى لقد ود أن يحملها معه ويبتعد بهما على الفور . وفجأة أدارت أوديت معصمها ونظرت إلى ساعة صغيرة وقالت :

ـ لابد لى من الانصراف .

وحيت مودعة كل فرد منهم بنفس النمط الرسمى من غير أن تنتحى بسوان جانباً ومن غير أن تخبره أين سيلتقيان ذلك المساء أو فى اليوم التالى . ولم يجسر على السؤال . وكان يود لو تبعها ، واضطر من غير أن يستدير ناحيتها أن يرد بابتسامته على سؤال لمدام فرديران ولكن قلبه كان يدق دقاً عنيفاً . وأحس أنه يكره الآن أوديت ، حتى لقد تمنى لو سحق هاتين العينين (اللتين كان منذ لحظة واحدة يحبهما جداً) وأن يمزق هذين الخدين حتى يدميهما .

وواصل الصعود مع مدام فرديران ، أى أن كل خطوة كانت تزيده بعداً عن أوديت التى كانت تهبط التل فى الاتجاه الآخر . ومرت ثانية واحدة وكانت قد انقضت ساعات منذ فارقته . وقال الرسام لسوان : إن نابليون الثالث اختفى بعد أوديت مباشرة . ثم أردف :

ـ ولابد أنهما كانا قد رتبا هـذا فيما بينهما . لابد أنهما اتفقا على اللقاء عند سفح الجرف ، ولكنهما لم يسلما منصرفين معاً حتى لا يبدو الأمر غريباً . فهى عشيقته .

فانفجر الشاب الغريب باكياً ، وحاول سوان التسرية عنه

وقال للشاب وهو يجفف له عينيه وخالعاً عنه طربوشه ، وقال له :

ـ إنها على حق بعد كل شىء ، وقد نصحتها شخصياً عشر مرات بأن تصنع هذا ، فلماذا تبتئس هكذا ؟ إنه قطعاً الرجل الذى يستطيع أن يفهمها !

وراح سوان يحاور نفسه على هذا النحو ، ذلك أن الشاب الذى لم يعرف من هو فى البداية كان هو أيضاً . فهو مثل روائيين معينين قد وزع شخصيته بين شخصين ، بين ذاته التى كانت الشخص الأول فى الحلم ، وبين آخر رآه أمامه لابساً طربوشاً .

أما نابليون الثالث فهو رمز إلى فورشفيل صنعه اقتران أو تداعى المعانى الغامض ، بتبديل شىء من سحنة البارون ، وبحكم وشاح الليجيون دونير العريض عبر صدريهما ، وهكذا منحه سوان فى الحلم ذلك الاسم . ولكن الشخص الذى بدا له فى الحلم كان يمثل فورشفيل ويذكره به حقاً . ذلك أن سوان كان فى نومه يقوم بعمليات تزييف ويتمتع بقوة إبداعية إلى درجة توزيع نفسه بين شخصين بعملية قسمة ذاتية كتلك التى تمارسها بعض الأحياء الدنيا : ومن الدفء الذى كان يحسه فى راحة يده كان يصوغ راحة يد أخرى يخيل إليه أنه يصافحها ، ومن مشاعر لم يحسها بعد يخلق الشخص الذى يتلقى حبه أو ينبهه من منامه :

وفى لمحة احلولك الظلام حوله وجلجل نذير ، وجرى السكان من حوله فارين من بيوتهم المشتعلة ، وسمع هدير الأمواج الثائرة وهدير قلبه أيضاً الذى كان يدق فى صدره بعنف . وفجأة تضاعفت

هذه الدقات ، وأحس ألماً وغثياناً لا تفسير لهما ، وصاح به فلاح محترق وهو يمرق بجواده :

– تعال واسأل شارلى أين قضت أوديت الليل مع صاحبها : فقد كان من عادته أن يصحبها وهى تخبره بكل شىء ، وهما اللذان أشعلا الحريق .

وكان خادمه الخاص قد جاء لإيقاظه قائلا :

– سيدى الساعة الآن الثامنة . والحلاق هنا ، وقد طلبت منه الحضور مرة أخرى بعد ساعة .

ولكن هذه الكلمات عندما غاصت فى أمواج النوم التى كان سوان غارقاً فيها لم تصل إلى وعيه من غير أن يحدث لها ذلك الانكسار الذى يحول شعاع الضوء فى قاع إناء به ماء إلى شمس أخرى. فكذلك كان جرس الباب منذ برهة هو الذى تحول فى أعماق نومه إلى جلجلة نذير الحريق ، وتولد من ذلك حلم الحريق . وفى هذه الأثناء تبدد منظر مسرح حلمه فى التراب ، وفتح عينيه وسمع لآخر مرة طنين موجة فى البحر عن بعد سحيق . ولمس خده فإذا هو جاف : ومع هذا استطاع أن يحس لذعة الرذاذ البارد وطعم الملح على شفتيه.

ونهض وارتدى ثيابه . وكان قد أمر الحلاق بالحضور مبكراً لأنه كان قد كتب فى اليوم السابق إلى جدى قائلا : إنه سيذهب بعد ظهر اليوم إلى كمبراى ، لأنه علم أن مدام دى كمبرمير – التى كانت سابقاً الآنسة لجراندان – ستقضى بضعة أيام هناك . وكان أن اقترنت فى ذاكرته صورة وجهها الناضر الفاتن بمكان فى الريف

لم يزره منذ أمد طويل ، فتضاعفت الجاذبية التى جعلته يقرر أخيراً مغادرة باريس فترة من الزمن :

ولما كانت التغيرات المختلفة والفرص التى تجمع بيننا وبين أشخاص آخرين معينين فى هذه الحياة لا تتطابق مع الفترات التى نعشق فيها هؤلاء الناس ، ولكنها تتراكب فوقها بتفاوت ، فقد تحدث قبل بداية العشق ، وقد تتكرر بعد انتهاء العشق . فأول ظهور فى حياتنا لكائن كتب له أن يمنحنا اللذة والمتعة فيما بعد يكتسب بأثر رجعى فى أعيننا قيمة معينة بمثابة مؤشر أو نذير أو بشير . وعلى هذا النحو رجع سوان بذهنه مراراً إلى صورة أوديت عندما قابلها فى المسرح فى أول ليلة ، ولم تكن لديه أى فكرة بأنه سيراها بعد ذلك إطلاقاً . وها هو الآن على هذا النحو يسترجع الحفل الساهر فى دار مدام دى سانت إيفيرت ، الذى قدم فيه الجنرال دى فروبرفيل إلى مدام دى كمبرمير .

إن اهتماماتنا فى الحياة شديدة التنوع ، بحيث أنه لا يندر فى مناسبة واحدة يوضع أساس سعادة لم توجد بعد فى آن واحد مع مضاعفات حزن لم نزل نعانى منه . وما من شك فى أن هذا كان من الممكن أن يحدث لسوان فى مكان آخر غير بيت مدام دى سانت إيفيرت . فمن ذا الذى يستطيع حقاً لو أنه ذهب ذلك المساء إلى مكان آخر ، إن سعادة أخرى وأحزاناً أخرى ما كانت لتوافيه ، ثم تبدو له فيما بعد كما لو كان لا مناص منها ؟ ولكن ما بدا له لا مناص منه هو ما حدث فعلا ، وكاد يرى فى أنه قرر الذهاب إلى

بيت مدام دى سانت إيفيرت ذلك المساء قدراً مقدوراً ، لأن عقله الملتهف على الإعجاب بثراء الإبداع الذى تبديه الحياة ، مع عجزه عن مواجهة مشكلة صعبة لفترة من الزمن ، من قبيل اكتشاف ما هو أحب ما يصبو إليه ، لذا انتهى إلى أن العذاب الذى مر به ذلك المساء ، والمسرات التى لم تخطر له فى ذلك الحين ، ولدت فى آن واحد ، وأن من الصعوبة بمكان إقامة التوازن بينها ،ولكنها مترابطة فى تسلسل ضرورى .

ولكن بينما هو – بعد ساعة من يقظته – يصدر التعليمات إلى الحلاق حتى لا يتشعث شعره أثناء الرحلة ، راح يفكر مرة أخرى فى حلمه . ورأى مرة أخرى لون بشرة أوديت الشاحب ، وخديها النحيلين ، وملامحها المستطيلة ، وعينيها المكدودتين ، وكل الأشياء التى كانت تفجرات إعزازه التى تكوّن منها عشقه لها قد جعلته يتناساها ويتناسى الانطباع الذى كونه عنها من قبل ، حتى أنه كفّ عن ملاحظتها بعد الأيام القليلة الأولى لتوطد علاقتهما . ولا شك أن ذاكرته رجعت فى الحلم إلى تلك الفكرة السابقة على العشق لتحيى فيه الإحساس الدقيق بهذه الأشياء . وبهذه الصورة القديمة المنقطعة التى عادت للظهور لديه الآن بعد أن زايلته التعاسة، وخفضت فى الوقت نفسه مستوى حاسته الخلقية ، صاح بفؤاده :

– وأنا الذى أضعت سنوات من عمرى، بل وتمنيت الموت، وكان أعظم عشق عرفته إطلاقاً لامرأة لا تروقنى ، وليست من نوعى وطرازى !

أسماء ومواضع : الاسم

من بين الحجرات التى كانت تتخذ فى العادة أشكالها فى ذهنى أثناء الليالى الطويلة من الأرق ، لم يكن هناك ما هو أشد اختلافاً عن حجرات كمبراى (التى تضمخها رائحة غبار الطلح وفرط التقوى) من حجرتى فى الجراند أوتيل دى لابلاج فى بلبك Balbec فجدرانها تضم (وكأنها جوانب حوض مغسول يتوهج فيه الماء بلهب أزرق) هواء نقياً مشوباً باللازورد ورائحة الملح . وكان المنجد البافارى الذى كلف بتأثيث الفندق ، قد نوّع الديكور فى كل حجرة . فالحجرة التى ألقيت نفسى فيها صف حول ثلاثة جوانب منها سلسلة من خزانات الكتب ذات الواجهات الزجاجية ، بحيث أن قانون الطبيعة الذى لعله لم يدخله فى حسابه كان يعكس هذا القطاع أو ذاك من مناظر البحر الدائمة التغير . وبذلك كانت الجدران مبطنة بإفريز من المناظر البحرية ، لا يفصل بينها إلا الرفوف المصنوعة من خشب المجنة المصقول . وكان هذا بالغ التأثير بحيث أن الحجرة بأسرها كان لها مظهر نماذج حجر النوم التى تشاهد اليوم فى معارض الأثاث ، وقد زينت بأعمال الفن التى يفترض فيها أن تنعش أنظار من ينام فى هذه الحجرات ، وموضوعات هذه المناظر تتفق مع البيئة المحلية للبيوت التى صممت لها هذه الحجرات .

ومع هذا لم يكن هناك شىء أشد اختلافاً بالكلية من بلبك الحقيقية من بلبك الأخرى التى كثيراً ما كنت أحلم بها ، فى الأيام العاصفة التى كانت الريح فيها تشتد حتى أن فرنسواز وهى تأخذنى

إلى الشانزليزيه تحذرنى من المشى عن كثب شديد من الشارع وإلا تعرضت لسقوط شريحة من الإردواز فتطيح برأسى ، وكانت تسرد علىّ بكثير من التحسر والولولة الكوارث الرهيبة وتحطم السفن التى أوردتها الصحف . ولم أكن أصبو إلى شىء أكثر مما أصبوا إلى مشاهدة عاصفة بحرية ، لا كمشهد عنيف ، بل كاكتشاف لحياة الطبيعة الحقيقية ، فلم تكن هناك فى نظرى مشاهد قوية سوى تلك المشاهد التى أعرف أنها غير مصطنعة لتسليتى ، بل هى أحداث ضرورية ، مثل جمال منظر طبيعى أو عمل عظيم من أعمال الفن . ولم أكن فضولياً ، لذا لم أكن متعطشاً لمعرفة أى شىء اللهم إلا ما اعتقد أنه أصدق من نفسى ، وله المزية العظمى ، وهى مزية اطلاعى على جانب من عقل عبقرى عظيم ، أو جانب من قوة أو لطف الطبيعة عندما تترك لنفسها بالكلية من غير تدخل بشرى . أما صوتها الحبيب عندما أسمعه من الحاكى الذى يحاكيها محاكاة آلية فإنه يجد منى بروداً تاماً ، كبرود مشاعرى أمام نوافير المعرض المضاءة صناعياً . لذا كنت أود ــ إذا ما كانت العاصفة حقيقية تماماً ــ أن يكون الشاطئ الذى أرقبها منه شاطئاً طبيعياً وليس مرسى شيدته البلدية أخيراً . يضاف إلى هذا أن الطبيعة ، بكل ما تثيره فى نفسى من مشاعر ، تبدو لى على طرف النقيض من المخترعات البشرية الآلية . فكلما قل ما فى الطبيعة من التدخل البشرى ، كانت أدنى إلى امتلاك فؤادى . والذى حدث أنى احتفظت فى ذهنى باسم بلبك

(الذى كان لجراندان قد ذكره لنا) على أنه المكان المطل على شاطئ البحر الشهير بأكبر عدد من تحطم السفن على صخوره ، ويظل ستة أشهر فى السنة ملتفعاً بالضباب والزبد المتطاير من الأمواج .

وكان قد قال لى :

ــ إنك تشعر هناك ، تحت قدميك ، أكثر مما تشعر بذلك فى فينيستير Finistère (مع أن الفنادق تشاد الآن فوقها من غير أن تقوى مع هذا على تغيير تلك العظمة التى تعد أقدم العظام فى هيكل الأرض العظمى) ، أجل تشعر هناك بأنك فعلا فوق نهاية أرض فرنسا ، بل أرض أوربا والعالم القديم . فهى المعسكر الأقصى لصيادى الأسماك ، وهم بالضبط مثل صيادى السمك الذين عاشوا منذ بداية العالم ، فى مواجهة مملكة ضباب البحر اللامتناهية وأشباح الليل .

وذات يوم ، وأنا فى كبراى تحدثت عن هذا الشاطئ ، شاطئ بلبك هذا أمام المسيو سوان ، على أمل أن أعرف منه أهى أفضل موضع أشاهد منه أعتى العواصف فأجابنى :

ــ أحسبنى أعرفك بلبك جيداً ! إن الكنيسة التى فى بلبك بنيت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وما زالت نصف رومانسكية ولعلها أعجب نموذج يمكن العثور عليه للنمط النورمندى القوطى ، وهو نموذج استثنائى بحيث يكاد المرء يصفه بأنه مستوحى من العمارة الفارسية .

وهـذه المنطقـة كانت تبدو لى حتى ذلك الحين مجرد جزء من الطبيعة القديمة ظلت معاصرة لنا بظواهرها الجيولوجية العظيمـة ،

وتبعد عن التاريخ البشرى كبعد المحيط نفسه ، أو كبعد الدب الأكبر ، بما فيها من سلالة متوحشة من صيادى السمك الذين لم يكن للقرون الوسطى وجود بالنسبة لهم ، تماماً كما لم يكن لها وجود بالنسبة لحيتانهم – لذا كان فرحى عظيماً وأنا أراها فجأة تأخذ مكانها فى الترتيب المعهود للقرون ، وأن تعى ذاكرتها الحقبة الرومانسكية ، وأن أعرف أن الحلية القوطية الثلاثية الورق رقشت تلك الصخور أيضاً فى الساعة المعلومة ، مثل تلك النباتات الهزيلة الصلبة العود التى تنشر نجومها فوق الثلوج فى المناطق القطبية متى عاد الربيع .

ولئن كان الفن القوطى قد جلب إلى تلك الأماكن وهؤلاء الناس تصنيفاً كانوا لولا هذا الفن يفتقدون إليه ، إلا أنهم أيضاً أضفوا على هذا الفن تصنيفاً من جانبهم . وحاولت أن أكون صورة فى ذهنى لكيفية حياة هؤلاء الصيادين ، ومحاولاتهم المتهيبة لإنشاء صلات اجتماعية وهم متجمعون هكذا فوق نتوء جبلى على شواطئ الجحيم ، عند سفح جروف الموت ، فبدا لى الفن القوطى كياناً حياً الآن – وقد سلخته عن البلدان التى كنت دائماً أتخيله فيها – حتى استطعت أن أتبين كيف ضرب بجذوره فى طنف من الصخور الوحشية ونما إلى أن ازدهر فى صورة برج مستدق الطرف وشاهدت نسخاً وصوراً لأشهر تماثيل بلبك التى تمثل رسلا شعثاً ، وتمثال العذراء على الشرفة ، وكدت ألهث فرحاً لمجرد التفكير فى أننى قد يتاح لى شخصياً يوماً ما أن أرى هذه التحف فى حقيقتها الصلدة على

خلفيتها الأبدية من الضباب ؛ ومنذ ذلك اليوم وأنا فى ليالى فبراير العاصفة والريح تهز قلبى مثلما تهز مدخنة مدفئة حجرة نومى، أحلم بزيارة بلبك وقد اندمجت فى أمنيتى الرغبة فى مشاهدة المعمار القوطى واشتهاء معايشة عاصفة على البحر .

وكم كنت أتمنى أن أستقل فى اليوم التالى مباشرة ذلك القطار الكريم السمح الذى يقوم فى الساعة الواحدة واثنتين وعشرين دقيقة، الذى لم أكن أقرأ موعده فى جدول سكة الحديد أو إعلانات السياحة فقد كان يخيل لى أنه يشق فى لحظة معينة بعد ظهر كل يوم أخدوداً سحرياً أو يخط علامة غامضة تتسلسل منها الساعات تباعاً إلى المساء ، ثم إلى الصباح التالى ، ولكنهما مساء وصباحاً لايمكن أن يشهدهما المرء فى باريس ، بل فى إحدى البلدان الكثيرة التى يمر بها القطار ويترك لك الخيار بينها ، لأن ذلك القطار يقف فى باييه **Bayeux** ، وفى كوتانشى **Coutances** وفى فيتريه **Vitré** وفى كستمبير **Juestambert** وفى بنتورسن **Panterson** وفى بلبك **Balbec** وفى لينون **Lannion** وفى لمبال **Lamballe** وفى بنوديه **Benodet** وفى بنتافين **Pont Aven** وفى كمبرليه **Quimperlé** ، ويمضى محملا بالأسماء التى يقدمها لى ، بحيث كنت لا أدرى ماذا أختار منها ، لأنه من المستحيل أن أضحى بواحد منها .

ولكن حتى بدون انتظار قطار اليوم التالى ، كان باستطاعتى بالنهوض وارتداء ثيابى بكل سرعة أن أغادر باريس فى ذلك المساء

نفسه – إن سمح لى والداى – كى أصل إلى بلبك والفجر ينشر أضواءه صوب الغرب فوق البحر الثائر الذى ألوذ من زبده فى تلك الكنيسة ذات الطابع الفارسى . ولكن ها هى عطلة عيد الفصح تقترب ، حيث وعدنى والداى بتركى أمضيها فى شمال إيطاليا . ويحى ! فبدلا من أحلام العواصف التى كانت مستولية على كل الاستيلاء ، غير راغب فى رؤية أى شىء خلا الأمواج الصاخبة القادمة من كل اتجاه ، عالية كالجبال دائماً فوق صخور الشاطئ الوحشى ، وعن كثب منى كنائس متجهمة وعرة كالجرف الساحلى ، وفى أبراجها تصرخ طيور البحر ، إذا بهذا كله يمحى لتحل محله فجأة نقيضه تماماً من صور الربيع المرقش . وهو ليس ربيع كمبراى الذى لم تزل تخذه إبر الشتاء المثلوجة ، بل هو ربيع تفترشه الزنابق وشقائق النعمان فى مروج فيزول Fiesole ، والتى تضفى على فلورنسه خلفية ذهبية لألاءة كالتى تشاهد فى صور فرا انجليكو Fra Angelico . ومن هذه اللحظة لم تعد هناك أى قيمة إلا لضياء الشمس والعطور والألوان ، لأن توالى هذه الصور بدل تماماً رغبتى وأمنيتى فتغيرت حساسيتى فجأة كما تتغير الموسيقى أحياناً فجأة .

وهكذا كان مجرد تغير الجو كافياً لإحداث هذا التغير النفسى عندى من غير انتظار لعودة الفصل ذاته ، ذلك أننا أحياناً نجد فى أحد الفصول يوماً تسلل إليه من فصل آخر ، ويجعلنا نعيش فى هذا الفصل الآخر ، ويستدعى فينا على الفور الرغبة فى ملذاته ، ويقطع

علينا الأحلام التى كنا بسبيل نسجها بإقحام ورقة من فصل مختلف . وهكذا كفت أحلام المحيط الأطلنطى وأحلام إيطاليا عن التوقف على تغيرات الفصول والأجواء ، فكل ما أحتاج إليه كى تعود للظهور أن أستثير صورها فى ذهنى بذكر هذه الأسماء : بلبك والبندقية وفلورنسه التى تراكمت بالتدريج فى مقاطعها كل أشواقى التى تمثلها عندى هذه المواضع . فحتى فى فصل الربيع يكفى أن تقع عينى فى كتاب على اسم بلبك كى تستيقظ عندى الرغبة فى العواصف البحرية والعمارة النورمندية القوطية . وحتى فى الأيام العاصفة يكفينى اسم فلورنسه أو البندقية لإيقاظ اشتهائى لضياء الشمس الدافئ والزنابق وقصر الدوج وسانتا ماريا ديل فيورى Canta Maria Del Fiore .

ولكن لئن استوعبت على الدوام أسماء هذه البلدان الصور التى كونتها لها ، فقد تم هذا بتحويل تلك الصورة وإخضاع عودتها للظهور لدىّ لقوانينها الخاصة ، وترتب على هذا أن ذلك الاستيعاب جعلها أكثر جمالا ، ولكنها فى الوقت نفسه أشد اختلافاً من أى شىء يمكن أن تكوّنه بلدان نرمنديا أو تسكانيا فى الواقع . ومع زيادة مسرات خيالى التعسفية زاد تحررى من السحر الذى كان مدخراً لى عندما أشرع فى أسفارى . فهذه الأسفار ضخمت الفكرة التى كونتها لبعض مواضع سطح الأرض ، فصارت ذات طابع خاص . وبالتالى أشد واقعية . وصرت لا أمثل البلدان والمناظر والأبنية التاريخية على أنها صور متفاوتة الجاذبية ، مشتقة من مادة مشتركة

فيا بينها جميعاً ، بل كنت أنظر إلى كل منها نظرتى إلى شىء مجهول ، مختلف عن سائرها ، شىء كنت متعطشاً إليه تواقاً إلى الانتفاع بمعرفته .

وما كان أشد تفرد هذه المواضع بفضل ما اكتسبته بإطلاق أسماء متميزة عليها ، لأنها أسماء أعلام مثل أسماء الأشخاص . فالألفاظ تقدم لنا صوراً صغيرة للأشياء ، مشرقة صافية عادية ، مثل الصور التوضيحية المعلقة على جدران قاعات الدرس فى المدرسة لتدل التلاميذ على مفهوم أسماء الأشياء : فهذا طائر ، وهذا بيت للنمل ، وهذه خلية نحل ، وهذا منشار .. إلخ . وتخيار الصورة نموذج لخواص هذه المسميات أما الأسماء (أسماء الأعلام) فتمثل لنا ــ سواء أكانت أسماء أشخاص أو بلدان ما يوحى بأنها كائنات متفردة ولها شخصية كالبشر ــ ولكن الصورة التى تبعثها فى ذهننا مشوشة ، تعتمد على إشراق أو عتمة صوتها ، واللون الذى تكتسبه فى كل تفصيلاتها ، مثل ألوان الملصقات التى تكون كلها حمراء أو زرقاء بحيث لاتكون السماء وحدها هى الزرقاء ، بل البحر والسفن والكنيسة والمارة فى الشوارع أيضاً . فمثلا اسم بارما Parma ــ وهى من البلدان التى تقت لزيارتها بعد مطالعة « شارتريز دى بارم » ــ بدت لى مدمجة مصقولة ذات لون بنفسجى ، ولو تكلم أحد عن هذا البيت أو ذاك فى بارما حيث يمكن أن أقطن ، لتصورت أنى سأقطن بيتاً محكماً مصقولا لاعلاقة بينه وبين البيوت فى البلدان الأخرى بإيطاليا لأنى لا أتصوره إلا تحت تأثير ذلك المقطع الثقيل فى بارما ، وتحت

تأثير عذوبة أسلوب ستندالى Stendhal وانعكاس ألوان البنفسج . وعندما كنت أفكر فى فلورنسة Plorence كنت أتصور بلدة مضمخة بالعطر ، أشبه بالزهرة ، لأنهم يسمونها مدينة الزنبق ، وكاتدرائيتها تسمى عذراء الزهرة :

أما بلبك ، فاسمها من تلك الأسماء التى تشبه قطعة عتيقة من الفخار النورمندى لم تزل محتفظة بلون الأرض التى صيغت منها ، وعليها يرى المرء صورة عادة قديمة مندثرة ، أوحقاً إقطاعياً منسوخاً ، وطريقة منقرضة للنطق . أجل كنت أحسب أنى سوف أجد تلك اللهجة المندثرة لم تزل تجرى على لسان رب الخان الذى سيصب لى القهوة واللبن عند وصولى ، ويصحبنى لأشاهد البحر الصاخب الذى انطلق من أغلاله أمام الكنيسة ، وكنت أضفى على رب الخان هذا بعض سمات شخصيات القصص القديمة :

ولوكانت صحتى قد تقدمت تقدماً حاسماً ، وكان والداى قد سمحالى إن لم يكن بالذهاب للإقامة فعلا فى بلبك ، فعلى الأقل بأن أستقل ولو مرة واحدة ــ لكن أتعرف إلى معمار ومناظر نورمنديا أو بريتانيا ــ قطار الساعة الواحدة والدقيقة الثانية والعشرين الذى كثيراً ما صعدت إليه فى عالم الخيال ، لكنت آثرت الوقوف والنزول إلى أجمل بلدانه ، ولكن عبثاً أحاول المقارنة بينها فكيف للمرء أن يختار بين بابيه الشامخة فى تاجها النبيل ، وبين فيتريه التى تتميز ألواح زجاجها بالمعينات الخشبية ، وبين لمبال Lamballe اللطيفة التى يتراوح بياضها بين صفرة قشرة البيضة والرمادى اللؤلؤى ، وبين كوتانس

Coutance وبها كاتدرائية نورمندية يعلوها برج من الزبد ، وبين لنيون Lannion ذات الطين الذى ينبعث من عجلة العربة فى شارع قريتها ، وبين كستمبير وبونتورسن البسيطتين ، بما فيهما من ريش أبيض ومناقير صفراء متناثرة فى تلك البقاع الجيدة الرى ، وبين بينوديه Benodet التى تبدو وكأنها تناضل لجذب النهر إلى غابة أعشاب البحر ، وبين بونتافن التى تشبه طيران جناح قلنسوة خفيفة تنعكس فى مياه القناة المخضرة ، وبين كمبرليه الراسخة منذ العصور الوسطى بين النهيرات ذات الخزير ، وكأنها تنظم لؤلؤها فوق خلفية رمادية مثل النسق الذى ترسمه أشعة الشمس من خلال نسيج العنكبوت فوق نافذة فتتحول إلى نقط من الفضة الحائلة اللون .

لقد كانت هذه الصور زائغة لسبب آخر أيضاً ، وهو إسرافها فى التبسيط . فما من شك فى أننى عهدت بموضوع أشواق مخيلتى الذى استوعبته حواسى بصورة غير كاملة وبغير لذه مباشرة ، إلى رعاية وكفالة أسمائها ، لأنى كنت بلاشك قد كرست فيها مخزوناً من الأحلام فصارت هـذه الأسمـاء تجتذب الآن رغبـاتى . ولكن الأسمـاء فى حد ذاتها ليست تامة الاستيعاب ، فكان أقصى ما أستطيعه أن أضمن كل اسم منها عنصرين أو ثلاثة من العناصر المثيرة للفضول فى البلدة تظل راقدة هناك جنباً إلى جنب بدون فواصل : فى اسم بلبك استطعت ـ وكأننى أنظر فى العدسة المكبرة التى يركبونها فى مقابض الأقلام التى يبيعونها فى أماكن الشواطىء ـ أن أتبين الأمواج التى

تتواثب حول كنيسة بنيت على الطراز الفارسى . والواقع أنه لعل البساطة الشديدة لهذه الصور كانت من أسباب سلطانها على نفسى : وعندما قرر والدى ذات عام أن نذهب لقضاء عطلة عيد الفصح إلى فلورنسة والبندقية ، لم أجد متسعاً أدس فيه داخل اسم فلورنسه العناصر التى تتكون منها البلدة عادة ، فاضطررت إلى استحداث مدينة خارقة للطبيعة من تلاقح مناظر النضارة الربيعية التى حسبتها لباب عبقرية جيوتو Giotto ، على غرار بعض صور جيوتو نفسه التى توزع على قسمين نفس الشخصية ، فنراه فى قسم راقداً على فراشه وفى الآخر يهم بركوب حصانه . وهكذا انقسم عندى اسم فلورنسه إلى قسمين ، فى أحدهما أبصرت فوق منصة معمارية صورة جصية مسدلة على جانب منها ستارة من ضوء الشمس المائل المغبر ، وفى القسم الآخر أشد الملذات والمتع مادية فى مشاهد بسيطة . ورحت أصبو بلهفة وأتحرك بسرعة نحو هذه المائدة الحافلة بالفاكهة وزجاجة الكيانتى عبر الجسر العتيق المكدس بالنرجس وشقائق النعمان . وكان هـذا ما تراءى لى وأنا لم أزل فى باريس ، وليس ما هو محيط بى فعلا .

وحتى من أبسط وجهات النظر وأشدها واقعية ، تشغل الأقطار التى نصبو إليها فى أى لحظة معينة مكاناً أكبر فى حياتنا الحقيقية من القطر الذى يتفق أن تكون فيه . ومما لاشك فيه أننى لوكنت أوليت مافى ذهنى مزيداً من الانتباه فى ذلك الحين وأنا أنطق هذه الكلمات : « سأذهب إلى فلورنسه وإلى بارما وإلى بيزا وإلى البندقية » ، لأدركت

أن ما أراه ليس بلدة إطلاقاً بل شيئاً أشد اختلافاً عن أى شىء أعرفه ، شيئاً فى حلاوة وروعة صباح فى الربيع لسلالة بشرية قضت عمرها كله فى سلسلة من أصائل الشتاء . وهذه الصور غير الواقعية مشتقة دائماً من الصور التى سبقتها (وربما اختلطت بسهولة فيما بينها على من ينظر إلى الأمور من الخارج ، أى الذى لايرى شيئاً) كما تدخل ميلوديا جديدة فى إحدى الأوبرات مناخاً ما كان المرء ليظن أنه موجود لو اكتفى بقراءة الكتيب . ومن باب أولى يجهله من يقف خارج المسرح مكتفياً بعدّ الدقائق ، بل إن الأيام من وجهة النظر الكمية فحسب ليست متساوية فى حياتنا . فالطبائع العصبية نوعاً ما – مثل طبعى – تستخدم سرعات متعددة مختلفة للوصول إلى نهاية النهار . إذ هناك أيام متعبة كالجبال ، يجد المرء عناء فى عبورها ويستغرق وقتاً طويلا جداً ، وهناك أيام أخرى كالمنحدرات يستطيع الإنسان أن يقطعها بأقصى سرعته وهو يغنى .

وأثناء هذا الشهر الذى رحت أستعيد فيه الرؤى كما يعيد الإنسان نغمة مرات لا تحصى لأنه لا يستطيع أبداً أن يخرجها كما ينبغى – فراجعت رؤى فلورنسه والبندقية وبيزا التى كانت لها خواص حميمة فى نفسى كأنها مشاعر العشق لشخص آخر ، ولم أكف قط عن الاعتقاد بأنها تطابق واقعاً مستقلا عن ذاتى ، وجعلنى ذلك شاعراً بأمل مجيد كالأمل الذى يكنه مسيحى فى العصر البدائى للإيمان عشية دخوله الفردوس .

وعن غير أن ألقى بالى إلى التناقض بين رغبتى فى النظر إلى ما صورته

لى أحلامى وألمسه بأعضاء حسى ، وهو بالطبع لايدرك بالحس أبداً ، إلا أنه مع هذا شديد الاختلاف عن كل ما عرفته حواسى بالفعل ، فكان ذلك يلهب رغبتى ويجسم لى واقعية هذه الرؤى ويجزل لى الوعود بأن رغبتى هذه سوف تجد ما يشبعها . وكانت القوة الدافعة وراء حبورى هى الشوق والتطلع إلى المتع الجمالية التى كانت كتب الإرشاد السياحى أكثر إذكاء لها من كتب عن الجماليات ، وكان الأقوى تأثيراً من كتب الإرشاد السياحى جداول الخطوط الحديدية التى تحوى أسماء تلك البلدان . فما كان يحرك وجدانى هو التفكير فى فلورنسه هذه التى كنت أراها شديدة القرب منى فى خيالى وأن استعصت على حواسى ، لأن الشقة التى تفصلها عنى فى خيالى إن تكن بعيدة ، فيمكننى عبورها بالاستطراد فى التفكير والتخيل . وكنت كلما قلت وأعدت على نفسى ما سوف أراه زادت قيمته جداً كنت أعيد على نفسى أن البندقية كانت « مدرسة جورجونى Giorgione وموطن تيتيان Titien وأكمل متحف لعمارة القرون الوسطى » فأشعر بسعادة حقيقية . وكنت أشعر بسعادة أكبر عندما كنت أخرج فى مهمة فأسير بسرعة بسبب الطقس الذى يرتد إلى أحوال الشتاء بعد بضعة أيام من الربيع المبكر (على النحو الذى كنا نعهده فى كمبراى فى أسبوع الفصح المقدس (فأرى فى البولغارات أشجار الكستناء غارقة فى جو ثلجى سائل كأنه الماء ومع هذا لا يمنعها هذا الهواء المثلوج من الشروع فى إبراز خضرتها التى لا يستطيع أن يقاوم ميقاتها الداخلى أى عامل خارجى . عندئذ كنت

أفكر أن الجسر القديم « بونتى فيكيو » قد تكدست فوقه أزهار الياقوتية وشقائق النعمان ، وأن شمس الربيع قد صبغت أمواج القنال الكبير فى البندقية بلا زورد غسق وزمرد رائع ، حتى أنها متى قورنت بتصاوير تيتيان نافستها فى ثراء ألوانها . وعندما يصل تفكيرى إلى هذا الحد لا أستطيع أن أكبح جبورى ، عندما أرى والدى فى الفترات التى ينقر فيها على البارومتر ويتذمر من البرد يشرع فى البحث عن أفضل القطارات. ويستخفنى الجذل حين أعلم أن المرء يمكنه أن يأخذ سبيله بعد الغداء إلى ذلك المعمل السحرى الملطخ بسواد الفحم ودخانه ، فيتكفل بتبديل الأمور المحيطة بنا ، بحيث نستيقظ فى الصباح التالى فإذا بنا فى مدينة الرخام والذهب ، حيث « الجدران من اليشب وأساسها الغائر فى الماء من الزمرد » ؛ وبذلك لا تكون مدينة المرمر والذهب ومدينة الزنابق مجرد منظرين صناعيين أستطيع على هواى أن أضعهما أمام مخيلتى ، بل هما موجودتان فعلا على مسافة معينة من باريس لابد لى من اجتيازها إذا أنا شئت أن أراهما فى مكانهما المحدد فوق سطح الأرض ، لا فى أى موضع آخر . وقصارى القول أنهما حقيقيتان تماماً . بل وصارتا أكثر تحققاً بالنسبة لى عندما قال أبى :

— سيكون فى وسعنا البقاء فى البندقية من يوم ٢٠ حتى يوم ٢٩ ثم نصل إلى فلورنسه صباح عيد الفصح .

فجعلهما قوله هذا تبرزان لا من المكان المجرد فحسب ، بل ومن الزمان المتخيل أيضاً الذى نضع فيه عدداً من أسفارنا فى آن

واحد ، لأنها لا تكلفنا شيئاً من حيث هى محض إمكانات ، ذلك الزمان الذى يتجدد تلقائياً بحيث يستطيع المرء أن يعيد قضاءه مرة أخرى فى بلدة بعد أن كان قد أمضاه فى بلدة أخرى : أما الزمان الحقيقى فتى قضينا منه يوماً لم نستطع إعادة تمضيته فى تفرده الذى يتميز به : فهو زمان لا يمكن للمرء أن يعيشه هنا متى عاشه فى مكان آخر : وهكذا شعرت أننا نقترب من الأسبوع الذى سيبدأ يوم الاثنين الذى ستأتى فيه الغسالة بالصدار الأبيض الذى كنت قد لطخته بالحبر ، وأن الجميع سينهمكون فى استخراج هذا الزمان الحقيقى من أحشاء هذا الزمان المثالى الذهنى ، الزمان الحقيقى الذى سوف توجد فيه هاتان المدينتان ، بل هاتان الملكتان بين المدائن ، وإذا بى أستطيع أن أقيس قبابهما وأبراجهما وأسجلها فوق إحدى صفحات حياتى :

ولكنى كنت بعد فى الطريق إلى الذروة العليا لسعادتى ، (فحتى ذلك الحين لم يكن قد تكشف لى ذلك الإلهام بأن فى الشوارع المزدحمة التى تنعكس عليها الحمرة من صور جورجونى الجصية لم يكن هناك (كما توهمت) « رجال عليهم جلالة ومهابة كأنهم البحر ، لابسين دروعاً يلمع نحاسها الأصفر تحت طيات عباءاتهم الحمراء بلون الدم » ، يسيرون فى البندقية عشية الفصح ، بل وتوهمت أننى شخصياً سأكون ذلك الشخص الضئيل الذى أظهره المصور الفوتوغرافى على صفحة صورة مكبرة لكنيسة القديس مرقس ، لابساً قبعة مستديرة سوداء أمام المدخل) . وعندئذ سمعت أبى يقول :

– لابد أن الجو سيكون ما زال بارداً على القنال الكبير ، فلا تنس أن تأخذ معك معطفك الشتوى وحلتك السميكة .

فعندئذ ارتفعت إلى سماء النشوة وبلغت ذروتها ؛ فحتى هذه اللحظة كنت أخال أنه من المستحيل أن أجوس فعلا بين هذه الصخور الأرجوانية والبنفسجية ، التى « كأنها حاجز مرجانى فى المحيط الهندى » وخلت أنى أجرد نفسى من صدفة لم تعد ذات موضوع ، وأتجرد حتى من الهواء الذى يحيط بى فى حجرتى . وحل محله مقدار بديل من هواء البندقية البحرى الذى له خواص مميزة لا توصف حشدتها مخيلتى فى أحلامى بالبندقية . وأحسست على الفور بالرغبة فى القىء التى يحسها المرء عندما تلتهب حنجرته ؛ فاضطروا لحملى إلى الفراش مصاباً بحمى شديدة ، وقرر الطبيب الذى عادنى أن الرحلة هذا الربيع إلى فلورنسه والبندقية مسألة لا محل للتفكير فيها بالنسبة لى . ليس هذا فحسب . بل إنه أنذرهم بأننى بعد شفائى التام يجب أن أقضى عاماً على الأقل بعيداً عن كل إثارة وعن مشاق السفر .

وحرّم على الطبيب – للأسف الشديد – تحريماً قطعياً الذهاب إلى المسرح لأسمع بيرما Berma ، تلك الفنانة الرائعة التى مجد بيرجوت عبقريتها . وكانت مشاهدتها هى العزاء الوحيد لى عن عدم الذهاب إلى فلورنسة والبندقية ، ولا إلى بلبك . فكان على والدىّ أن يقنعا بإرسالى – بعد شفائى – كل يوم إلى الشانزليزيه Champs Elysées فى رعاية شخص يمنعنى من كل ما يتعبنى ويجهدنى .

ولم يكن هذا الشخص إلا فرنسواز ، التى دخلت خدمتنا بعد وفاة عمتى ليونى Léonie . وكنت أجد الذهاب إلى الشانزليزيه لا يطاق . ولو كان بيرجوت وصف المكان فى أحد كتبه كنت حرياً ولا شك أن أتوق إلى رؤيته ومعرفته ، مثل أشياء كثيرة كانت الصورة الزائفة قد سبقتها إلى مخيلتنا بحيث يحفها الدفء ويبعث فيها الحياة ويمنحها الشخصية ، فيدفعنى ذلك إلى البحث عن نظائر هذه الخواص فى الواقع . ولكن هذه الحديقة العامة لم يكن فيها أى شىء يربطها بأحلامى :

* * *

وذات يوم ، وفيما كنت سأمان من مكاننا المعتاد بجوار الأحصنة الخشبية ، أخذتنى فرنسواز فى رحلة : عبر التخوم التى تحرسها على مسافات منتظمة المعاقل الصغيرة لبائعات السكر النبات إلى مناطق غريبة وإن كانت مجاورة ، كانت فيها وجوه المارة مستغربة ، وتمر بها عربة يجرها الماعز . وذهبت فرنسواز لتضع أشياءها على كرسى ظهره إلى ناحية أشجار الغار . وفيما أنا أنتظرها رحت أذرع المرج العريض بحشائشه الهزيلة المقصوصة الذى تواجهه الشمس ويشرف عليه فى طرفه الأقصى تمثال يتوسط نافورة ، وأمامه فتاة صغيرة شعرها محمر تلعب الكرة الطائرة . ومن الممر صاحت بها فتاة أخرى صغيرة كانت تهم بلبس عباءتها وتغطية مضربها ؛ بصوت حاد النبرات :



وأمامه فتاة صغيرة شعرها محمر تلعب الكرة الطائرة ..

– إلى اللقاء يا جيلبرت Gilberte ، أنا عائدة الآن إلى البيت . ولا تنسى أننا قادمون لديكم هذا المساء بعد العشاء .

ومرق هذا الاسم : « جيلبرت » بجوارى : ولم يكن إشارة إليها كما يذكر اسم شخص غائب ، بل كان موجهاً إليها مباشرة . لذا كان مرور هذا الاسم بجوارى مشحوناً بقوة تزايدت مع قوس انقذافه وقربه من هدفه ، حاملا فى أثره – هكذا أحسست – المعرفة والانطباع الخاصين بتلك التى وجه إليها هذا الاسم ، لا فى وجدانى بل فى وجدان الصديقة التى نادتها ، فلا شك أنها استعرضت – وهى تتفوه بهذه الكلمات – ما فى ذاكرتها من ذكريات حميمة لعلاقتهما اليومية ، والزيارات التى تتبادلانها ، وذلك الوجود الذى أجهله والذى كان خارج متناول يدى ، وهو أشد ما يكون إيلاماً لى لأنه فى الوقت نفسه متاح تماماً لهذه الفتاة المجدودة التى احتكت رسالتها بى من غير أن أنفذ إلى ما وراء سطحها ، وهى تلقى بها على الهواء بصيحة خلية البال ، ففاح من حولى عطر مضمونها الذى صمختها به جوانب خفية من حياة الآنسة سوان ستعيشها الفتاتان فى المساء بعد العشاء فى بيتها . لقد كونت هذه الرسالة الطائرة فى الهواء وسط الأطفال ومربياتهم سحابة صغيرة بديعة الألوان ، مثل السحابة التى تشاهد فى الأوبرا حافلة بالعربات الحربية والخيول لتعكس حياة الآلهة فى إحدى جنان بوسان Poussin . فهذا ما أضفته هذه السحابة على هذا العشب المزيل ، حيث وقفت جيلبرت تضرب كرتها الطائرة ثم تلقفها إلى أن نادتها مربية تثبت فى قبعتها ريشة زرقاء

كى تنصرفا . أحسست أن هـذه السحابة الإلهيـة ألقت على هـذا العشب الحائل حزمة من الضياء بلون الهليوتروب ، فافترشت المرج كبساط لم أسأم من ذرعه جيئة وذهاباً وكلى حنين دافق ، بينما فرنسواز تصيح بى :

ـ هيا ! زرر معطفك ، ولننصرف !

ولاحظت لأول مرة كيف كان كلامها سوقياً ، وأنه ليست فى قبعتها ـ واأسفاه ؟ ـ ريشة زرقاء !

أتراها تأتى ثانية إلى الشانزليزيه ؟

فى اليوم التالى لم تكن هناك . ولكنى رأيتها فى الأيام التى أعقبته وقضيت وقتى كله ألف وأدور حـول البقعة التى تلعب فيهـا مع صديقاتها ، حتى أنها ذات مرة ، عندما وجدت أن عددهن غـير كاف لإحدى اللعبات ، أرسلت إحدى صديقاتها لتسألنى أأحب أن أكمل فريقهن . ومنذ ذلك اليوم صرت ألعب معها كلما جاءت . ولكنها لم تكن تجىء كل يوم ، فهناك أيام كانت تعوقها دروسها عن الحضور ، أو يعوقها حفل غداء ، أو أى لون من ألوان حياتها المنفصلة عن حياتى التى تكثفت مرتين فقط لتصير اسم جيلبرت الذى شعرت بمروره أول مرة إلى جوارى وأنا أتألم ألماً شديداً فى ممر الزعرور البرى قرب كمبراى ، والمرة الثانية على حشائش الشانزليزيه . وفى مثل تلك الأيام كانت تخبرنا سلفاً أننا سـوف لا نراها فى الغد ، فإذا كانت دروسها هى السبب قالت لنا :

ـ كم هذا مسئم ! سوف لا أستطيع الحضور غداً ، وستستمتعون كلكم باللعب هنا غداً بدون وجودى !

وتقول هذا بنبرة أسف كنت أجد فيها شيئاً من العزاء . أما إن كانت مدعوة إلى حفل ، وسألتها (وأنا لا علم لى بذلك) : أتأتى غداً لتلعب معنا ، أجابت :

ـ أتمنى ألا أحضر ! لأنى أتمنى أن تسمح لى ماما بالذهـاب إلى بيت صديقتى !

ولكنى على الأقل كنت أعلم فى تلك الأيام أننى سوف لا أراها. أما فى الأيام الأخرى فقـد يحدث أن تأخذها أمها ـ بدون سابق إنذار ـ لتتنزه معها فى العربة ، أو ما يشبه ذلك من الأغراض ، وفى اليوم التالى تقول :

ـ آه . نعم ! لقد خرجت مع ماما !

كأنما هو أمر طبيعى جداً وليس أكبر مصيبة يمكن أن تحل بسواها ! وكانت هناك أيضاً الأيام السيئة الطقس التى تخاف عليها مربيتها من هطول المطر ، فلا تأتى بجيلبرت إلى الشانزليزيه . وهكذا فى الأيام التى تبدو فيها السماء منذ الصباح الباكر غير مطمئنة ، أروح طول النهار أرصدها بقلب واجف وأستطلع كل النذر . فإذا رأيت السيدة التى تسكن فى مواجهتنا داخل نافذتها مرتدية قبعتها ، قلت لنفسى :

ـ هذه السيدة تهم بالخروج . ومعنى هذا أن الطقس يسمح بالخروج . فلماذا لا تصنع جيلبرت ما تصنعه هذه السيدة ؟

وإذا اكفهر وجه النهار قالت أمى : إن الجو يحتمل أن يصفو بعـد قليل ، ويكفى لذلك دفقة واحدة من شعاع الشمس ، ولكن

الأرجح أن المطر سينهمر ، وإذا حدث هذا فما جدوى الذهاب إلى الشانزليزيه ! ولذا لم تكف عينى منذ وقت الإفطار عن تفحص السماء الملبدة بالغيوم . وظل الظلام مخيماً ، وكانت الشرفة تبدو لى رمادية اللون . وفجأة أحسست ميلا فى لونها إلى الخفة ، ونبض شعاع متردد يناضل لصب ضيائه . وبعد برهة وجيزة رأيت الشرفة مضيئة كالماء الراكد عند الفجر وانطبعت على صفحة هذا الإشراق ظلال أعواد سياج الشرفة الحديدية . ولكن لفحة هواء بددت هذه الأشباح ، وغدت الحجارة معتمة مرة أخرى ، ولكن الظلال عادت مرة أخرى ، وزادت الشفافية تدريجاً كما تتزايد النغمات المتصاعدة حتى تصل إلى أقصى شدتها ، ورأيت الشرفة تكتسب فى النهاية اللون الذهبى المعهود فى أيام الطقس البديع ، وارتسمت أعواد السياج حاسمة السواد محددة ، وظهرت أدق تفصيلاتها ، ورأيتها مزهوّة بدقة صناعتها وكأنها تدرى أنها بشائر سعادتى وراحة بالى ، فى انعكاسها على بحيرة ضوء الشمس فى الشرفة .

واللبلاب المتسلق ، الذى يبدو لكثيرين أشد النباتات التى تتسلق الجدران أو تزين النوافذ بهاء ألوان ، يبدو لى أنا أعز أنواع النبات المتسلق ، منذ ذلك اليوم الذى بدا فيه فوق شرفتنا ، وكأنه نفس ظل وجود جيلبرت التى لعلها كانت بالفعل فى الشانزليزيه : وبمجرد وصولى إلى هناك سأسمعها ترحب بى قائلة :

ـ هيا بنا نبدأ اللعب على الفور . فأنت فى فريقى .

فهذا اللبلاب الهزيل الذى يكفى التنفس للتلاعب به ، متسق فى

الوقت نفسه لا مع الفصل من السنة ، بل مع الساعة ، لأنه وعد باللذة الفورية التى سيرفضها هذا النهار أو يتيحها : لذة أن أحب ، وأن أكون محبوباً . وأنه لا دفء على الصخر حتى من الطحلب ، وهو حى يكفى شعاع واحد من الشمس لولادته وولادة الحبور ، حتى فى قلب الشتاء .

وفى تلك الأيام التى اختفت فيها النباتات الخضراء الأخرى ، عندما تكون الحاءات التى تغطى جذوع الأشجار مختفية تحت الجليد ، بعد أن يكون الثلج قد كف عن التساقط ، ولكن السماء لم تزل شديدة التلبد بحيث لا آمل أن تغامر جيلبرت بالخروج ، إذا بأمى فجأة وقد واتاها الإلهام فقالت لى :

ـ انظر ! إن الجو بديع الآن ، وأحسبك تستطيع الذهاب إلى الشانزيليزيه على كل حال !

ذلك أن الشمس برزت وأرسلت خيوطها الذهبية فوق الثلج الذى يغلف الشرفة ، ورصعته بظلال داكنة متناثرة .

وفى ذلك النهار لم نجد أحداً هناك ، أو على الأصح فتاة وحيدة على أهبة الانصراف ، أكدت لى أن جيلبرت سوف لا تحضر : وكانت الكراسى التى هجرتها المربيات المهيبات خاوية . ولكن قرب العشب كانت سيدة متقدمة فى السن جالسة ، ومن عادتها أن تأتى فى كل فصول السنة ، مرتدية دائماً ثياباً من طراز لا يتغير ، ثياباً فخمة وقاتمة ، وكنت أتوق توقاً شديداً إلى التعرف بها ، لأن جيلبرت كانت تذهب إليها كل يوم كى تتحدث معها ، وكانت تسأل

جيلبرت عن أخبار « أمها العزيزة جداً » ، فحظر لى أننى او عرفتها لصرت فى نظر جيلبرت شخصاً مختلفاً تماماً : شخصاً يعرف أناساً من عالم والديها . وبينما أحفاد هذه السيدة يلعبون معاً على مسافة قريبة منها ، تجلس هى وتطالع صحيفة « ديبا » Debats التى كانت تسميها « صحيفتى العزيزة » بأرستقراطية تفيض بالألفة ، وتقول عن رقيب الشرطة أو المرأة التى تؤجر الكراسى « صديقى القديم رقيب الشرطة » أو « عاملة الكراسى وأنا صديقتان قديمتان ».

وقررت فرنسواز أن الجو أبرد من أن نقف فيه ، لذا مشينا إلى جسر الكونكورد كى نرى نهر السين الذى تجمد ، وصار الجميع – حتى الأطفال – لا يتهيبون المشى فوقه ، وكأنهم يمشون فوق ظهر حوت هائل يرقد بلا حراك ولا قدرة له على الدفاع عن نفسه ، فى انتظار أن يقطعوه إرباً . ورجعنا إلى الشانزيليزيه ، وقد استولت علىّ التعاسة بين الأحصنة الخشبية الساكنة والمرج الأبيض وسط شبكة من الدروب السوداء التى أخليت من الجليد ، بينما التمثال الذى يعلوها يمسك بيده مدلاة طويلة من الثلج وكأنها تفسر إيماءته ، والسيدة العجوز نفسها قد طوت صحيفتها وسألت مربية عابرة عن الساعة ثم شكرتها بقولها :

– ما أكرمك !

ثم رجت الكناس أن يطلب إلى أحفادها الحضور إليها لأنها شعرت بالبرد ، ثم قالت له :

– وألف شكر لك . وكم يؤسفنى أن أكبدك كل هذه المشقة !

وفجأة انشقت السماء شطرين : فبين القراقوز والأحصنة الخشبية ، وعلى صفحة الأفق المتكشف رأيت لتوى علامة إعجازية هى ريشة قبعة « الآنسة » ، وها هى جيلبرت تجرى بأقصى سرعتها نحوى ، متلألئة ووردية اللون تحت قلنسوة مطوقة بالفراء ، وقد أنعشها البرد واستثارها التأخر فى الخروج وتلهفها على اللعب . وقبل أن تصل إلىّ انزلقت فوق قطعة ثلج ، ولكى تستعيد توازنها ، أو رغبة فى الظهور بحركة رشيقة ، أو ربما خالت نفسها فى ميدان الانزلاق ، تقدمت نحوى مفتوحة الذراعين ، وكأنها ستعانقنى ، وصاحت السيدة وكأنها تعبر عن إعجاب الشانزيليزيه كلها وشكرها لجيلبرت على القدوم متحدية هذا الجو البارد :

– برافو .. برافو .. ! .. أنت مثلى وفية للشانزيليزيه صديقتنا القديمة فى جميع الفصول . فأنا وأنت لدينا هذه الشجاعة .. إنى أحب فيها كل شىء ، حتى هذا الثلج ، الذى يذكرنى – ولا تضحكى منى ! – بفراء القاقم !

ثم شرعت السيدة نفسها فى الضحك !

وأول يوم من هذه الأيام التى كان ثلجها رمزاً للقوى القادرة على حرمانى من رؤية جيلبرت وينذرنى بحزن الفراق ، الذى يشبه حزن الرحيل –هذا اليوم كان مع هذا علامة مرحلة فى نمو حبى وتقدمه ، لأنه كان على نحوما أول حزن تشاركنى فيه وكنا هناك نحن الاثنين فحسب من أعضاء مجموعتنا الصغيرة . ووجودنا هكذا وحدنا ليس أشبه ببداية علاقة حميمة فقط ، بل كان ذلك أيضاً من

جانبها – وكأنها لم تأت إلى هناك إلا لتسرنى ، برغم هذا الجو – سلوكاً مس شغاف قلبى ، وكأنما هى قد ضحت بالذهاب إلى حفل دعيت إليه لكى توافينى فى الشانزيليزيه ، فأكسبنى هذا مزيداً من الثقة فى حيوية ومستقبل صداقة يمكن أن تظل حية وسط هذا السبات الرائن على كل ما حولنا ، وفوق الوحدة . ورحت أبتسم بكل الحب وهى تسقط كريات من الثلج على عنقى ، لأن ذلك بدا لى دليل ولع تبديه بى وهى تعاملنى كرفيق رحلتها فى هذه الأرض الشتوية الجديدة ، ودليل وفاء وإخلاص لى برغم الظروف المناوئة .

وبعد قليل تقاطرت صواحبها قادمات يتواثبن كالعصافير ، وأشكالهن تبدو قاتمة على صفحة الثلج البيضاء ، وأخذنا نستعد للعب ، وكأنما كتب لهذا اليوم الذى بدأ بالأسى أن يختم بالحبور ، فحين توجهت قبل بداية اللعب صوب الصديقة ذات الصوت الثاقب – التى كنت سمعتها فى أول يوم تنادى جيلبرت باسمها – قالت لى :

– لا . لا . أنا متأكدة أنه من الأفضل أن تكون فى فريق جيلبرت . انظر ! هاهى تومئ إليك !

وبالفعل كانت تستدعينى لأعبر الموج الجليدى إليها ، كى « أدخل الميدان » الذى سطعت عليه أشعة الشمس الوردية :

هذا اليوم الذى بدأ بكثير من نذر خيبة الآمال ، اتضح أنه من الأيام القلائل التى لم أكن فيها تعيساً بحق .

ومع أننى لم أعد أفكر فى أى شىء الآن اللهم إلا ألا أدع يوماً يمر من غير أن أرى جيلبرت (وقد بلغ بى هذا الحال أنه عندما

تأخرت جدتى عن العودة للبيت فى موعد العشاء ، لم أستطع منع نفسى من التفكير بأنه لو كانت قد دهمتها عربة فى الشارع فقتلتها فلن يسمح لى لمدة من الزمن باللعب فى الشانزيليزيه ، فعندما يكون المرء عاشقاً لا يبقى لديه فائض لحب أى أحد آخر) . ومع هذا فتلك اللحظات التى كنت أقضيها فى صحبتها ، والتى قضيت ساعات الليل والصباح فى انتظارها بصبر نافد ، وأنا أرتجف لهفة وحماسة ، وكنت خليقاً أن أضحى فى سبيلها بأى شىء آخر فى هذه الدنيا ، لم تكن لحظات سعيدة بأى حال من الأحوال . وكنت أعرف هذا جيداً ، لأنها كانت اللحظات الوحيدة فى حياتى التى ركزت عليها انتباهى بكل تدقيق وتمعن ، ومع هذا لم أستطع أن أكتشف فيها ذرة واحدة من اللذة : ففى كل الوقت الذى كنت أقضيه بعيداً عن جيلبرت كنت أتوق إلى رؤيتها ، ذلك أننى مع سعيي المتواصل إلى تكوين صورة ذهنية لها ، كنت عاجزاً آخر الأمر عن شىء من ذلك ولم أكن أعرف بالضبط الموضوع الذى يقابل حبى لها ويرتبط به ، يضاف إلى هذا أنها لم تكن قط قد ذكرت لى بعد أنها تحبنى : بل أكثر من هذا كانت كثيراً ما تتباهى بأنها تعرف غلماناً صغاراً آخرين تؤثرهم علىّ وتفضل صحبتهم ، وأننى وإن كنت رفيقاً حسن الصحبة تود دائماً أن تلعب معى ، مع أننى مفرط الشرود بذهنى ولا ألقى بالى إلقاء كافياً لمسار اللعبة ، وفضلا عن هذا كثيراً ما أظهرت أمارات فتور ظاهر نحوى ، كانت خليقة أن تهز إيمانى بأنى بالنسبة لها كائن مختلف عن سائر الكائنات ، لو كان هذا الإيمان قائماً على

حب تشعر به جيلبرت نحوى ، وليس ــ كما هو الحال ــ على الحب الذى أشعر به نحوها ؛ فقد قوى ذلك الإيمان من مقاومة هذا الحب لهجمات الشك التى جعلته يعتمد بالكلية على الطريقة التى أفكر بها ــ بحكم هذه الحتمية الداخلية القاهرة ــ فى جيلبرت :

ولكنى لم أغامر بعد إطلاقاً بالتعبير لها بالكلمات عن مشاعرى نحوها . وبطبيعة الحال كانت كل صفحة من كراساتى المدرسية ملآنة بما أكرره من كتابة اسمها وعنوانها ، ولكن رؤية هذه السطور وتذكرى أنها لاتجعلها تفكر فى كانت تثبط همتى ، لأن هذه السطور لم تكن تحدثنى عن جيلبرت التى لن تراها أبداً، بل تحدثنى عن رغبتى كانت هذه السطور تبرز لى ألوانها الحقيقية، كشىء ذاتى خالص، وغير واقعى ، ومسئم ولا أثر له .

لقد كان أهم شىء أننا يجب أن نتلاقى ويرى كل منا الآخر ــ جيلبرت وأنا ــ وتسنح لنا فرصة للاعتراف المتبادل بحبنا الذى لم يكن قد بدأ رسمياً حتى ذلك الوقت . ولا شك فى أن الأسباب المتباينة التى كانت تجعلنى شديد اللهفة على رؤيتها كانت حرية أن تبدو أقل إلحاحاً فى نظر رجل ناضج. فمع استمرار الحياة نكتسب حذقاً شديداً فى تنمية ورعاية لذاتنا فنقنع بما نستمده من التفكير فى امرأة كما كنت أفكر فى جيلبرت ، من غير أن نعنى أنفسنا هل الصورة التى لدينا عنها مطابقة للواقع . ونقنع أيضاً بلذة عشقها من غير أن تكون بنا حاجة للتأكد من أنها أيضاً تحبنا . وقد نتنازل عن لذة اعترافنا لها بغرامنا ، لكى نصون أو نعزز غرامها بنا ، مثل

بستانيى تلك الحدائق اليابانية الذين يضحون بسائر الأزهار للحصول على زهرة واحدة كاملة الصفات ، ولكنى فى تلك الفترة التى كنت فيها عاشقاً لجيلبرت كنت ما أزال أعتقد أن الحب له وجود واقعى مستقل عن ذواتنا ، وأنه إذ يسمح لنا على الأكثر بتخطى العقبات التى تعترض طريقنا يمنحنا بركاته التى لسنا أحراراً فى إحداث أى تعديل فيها . ولذا خيل إلىّ أننى لو قمت من تلقاء نفسى بتبديل حلاوة الاعتراف باصطناع عدم الاكتراث ، لا أكون قد حرمت نفسى من إحدى المسرات التى طالما حلمت بها فحسب ، بل أكون من تلقاء نفسى وبمحض اختيارى اصطنعت حباً صناعياً لا قيمة له ، ولا علاقة له بالحقيقة التى تنكبت بذلك طريقها ومناهجها السرى المرتب سلفاً .

ولكن عندما وصلت إلى الشانزيليزيه ، وبدا لى لأول وهلة أننى فى وضع يواجه حبى ، بحيث أجعله يخضع للتعديلات الضرورية ليتوافق مع مصدره الحى المستقل ، وقد صرت فى مواجهة جيلبرت سوان التى كنت أعول على رؤياها فى إحياء الصور التى فقدتها ذاكرتى المتعبة بحيث عجزت عن العثور عليها مرة أخرى ، صور جيلبرت سوان التى كنت ألعب معها فى اليوم السابق ، والتى هرعت إليها أرحب بها وأتعرف عليها بغريزة عمياء مثل تلك التى تجعلنا ونحن نسير نضع قدماً أمام الأخرى ، من غير أن يتسع لنا الوقت للتفكير فيما نصنع : وعلى الفور بدا كأنها والفتاة الصغيرة التى ألهمتنى أحلامى شخصان مختلفان . فإذا كنت ــ مثلاً ــ قد احتفظت

فى ذاكرتى منذ أمس بعينين ناريتين فوق وجنتين بضتين ورديتين، فإن وجه جيلبرت يتبدى لى الآن (وبكل تأكيد وإلحاح) شيئاً لم تعه ذاكرتى بتميز، ففى الأنف بعض الحدة والاستطالة بالإضافة إلى سمات أخرى فى ملامحها، وكل هذا يؤكد أهمية هـذه السمات التى يستخدمهاالتاريخ الطبيعى لتحديد الأنواع ونقلهاذلك إلى فتاة صغيرة من النوع الذى له برقيل حاد.

وبينما أنا أتأهب للإفادة من هذه اللحظة التى طال توقعها، وأسلم نفسى لانطباع جيلبرت الذى كنت قد أعددته سلفاً ولم أستطع العثور عليه فى ذهنى إلى الحد الذى يمكن أن يتيح لى أثناء ساعات وحدتى الطويلة أن أوقن بأنها هى نفسها حقاً التى فى ذهنى، وأن حبى لها هو الذى أنميه تدريجياً مثلما ينمو الكتاب ومؤلفه يكتبه. وإذا بها ترمى إلىّ بالكرة، وعلى غرار الفيلسوف المثالى الذى يحس بدنه العالم الخارجى الذى يرفض ذهنه التصديق بوجوده، إذا بنفس هذه الذات التى جعلتنى أحبها قبل أن أتحقق من هويتها تستحثنى أن ألقف الكرة التى رمت بها نحوى (وكأنما هى رفيقة جئت لألعب معهـا وليست شقيقة الروح التى جاءت روحى لكى تتحد بها) وجعلتنى بدافع التهذيب وحتى الوقت الذى آن لها فيه أن تنصرف أوجه إليها ألف عبارة مجاملة تافهة. وبذلك منعتنى من التزام الصمت الذى كان يتيح لى أن أضع يدى أخيراً على الفكرة الشاردة التى لا غنى لى عنها. ومنعتنى فى الوقت ذاته من التفوّه بالألفاظ التى كان من الممكن أن تحدث ذلك التطور الحاسم فى مسار حبنا الذى كان لابد لى

أن أرجئه إلى بعد ظهر اليوم التالى. ومع هنا حدث شىء من التطور العارض. فقد ذهبنا ذات جيلبرت إلى مكان بائعتنا الأثيرة التى كانت دائماً بالغة اللطف معنا، لأنه كان عن عادة المسيو سوان أن يبعث من يشترى له منها كعك الزنجبيل الذى كان يستهلك كميات كبيرة منه لأسباب صحية (فهو يعانى من الأكزيما العرقية ومن الإمساك) أومأت جيلبرت ترينى وهى ضاحكة غلامين صغيرين يشبهان صورة الرسام الصغير وعالم النبات الصغير فى كتب حكايات الأطفال، لأن أحدهما لايريد قطعة الحلوى الحمراء ويريدها قرمزية. أما الآخر فكان يرفض دامع العينين البرقوقة التى كانت تشتريها له مربيته، ثم صاح فى غضب: بل أريد البرقوقة الأخرى لأن فيها دودة!

واشتريت أنا كريتين (بليتين) الواحدة بخمسة سنتيات، وبعينين تفيضان إعجاباً رأيت كريات من اليشب مشعة حبيسة فى وعاء زجاجى على حدة، بدت لى ثمينة جداً لأنها فى إشراق الفتيات الصغيرات الحسناوات الباسمات ولأن ثمن الواحدة خمسون سنتيا (نصف فرنك). وسألتنى جيلبرت ــ التى كان مصروف جيبها أكبر من مصروفى بكثير ــ أيها أجمل فى نظرى. وكانت كلها شفافة شفافية حية. وما كنت أحب لها أن تتخلى عن أى واحدة منها بل تمنيت أن تشتريها جميعاً ثم تطلق سراحها من محبسها. ومع هذا أومأت إلى واحـدة منها لها نفس لون عينيها. وتناولتها جيلبرت وقلبتها فى أناملها إلى أن شع منها شعاع ذهبى، وأعطت البائعة فديتها، ولكنها سرعان ما مدت إلىّ يدها بأسيرتها قائلة:

— خذها، هى لك، إنى أعطيك إياها، فاحتفظ بها لتذكرك بى :

وفى مرة أخرى ، وكنت لم أزل أتحرق رغبة فى سماع بيرما تؤدى الدراما فى الكلاسيكية ، سألتها أليست لديها نسخة من كتاب تحدث فيه بيرجوت عن راسين وكانت طبعته قد نفدت . فطلبت منى عن أخبرها بعنوان الكتاب بالضبط . وفى تلك الليلة نفسها أرسلت إليها رسالة مستعجلة وكتبت على غلافها اسمها : جيلبرت سوان ، الذى كنت كثيراً ما خططته فى كراساتى . وفى اليوم التالى جاءتنى بلفافة مربوطة بشريط وردى اللون ومختوم بالشمع الأبيض: وبداخل هذه اللفافة الكتاب الذى عثرت بنسخة منه ، وقالت :

— ها أنت ذا ترى أنه ما طلبته منى .

واستخرجت من دثار يديها الرسالة التى كنت قد أرسلتها إليها : ولكنى وجدت عناء فى التعرف على خط يدى فى ذلك العنوان تحت الأختام التى لطخت الغلاف بهـا مصلحة البريد ، والإضافات بقلم الرصاص التى خطها موزع البريد .. فكلها من آثار ذلك العالم الخارجى الذى تمثله هذه الأطواق البنفسجية اللون التى ترمز لحياة نفسها ، وهى رموز وجدتها للمرة الأولى تناصر حلمى الخاص وتدعمه وتزكيه.

وفى يوم آخر قالت لى :

— اسمع . لك أن تنادينى باسم جيلبرت ، لأننى على كل حال سأناديك باسمك الأول ، فمن السخف ألا يكون الأمر هكذا .

ولكنها مع هذا درجت لفترة من الوقت على مخاطبتى بضمير جماعة المخاطبين الذى يتسم بالصبغة الرسمية ، ولما لفت نظرها إلى

هذا ابتسمت ، وأنشأت جملة طويلة معقدة كالتى نجدها فى كتب تعليم اللغة للأجانب لمجرد تدريب اللسان ، وختمتها باسمى الأول . ولما تذكرت فيما بعد حالتى وأنا أسمع منها هذه العبارة تبينت لذة إحساسى وقتئذ بأنى لبثت برهة فى فمها وعلى لسانها . عارياً مجرداً من اللواحق الاجتماعية التى تشمل أيضاً رفاقها الآخرين ، كما تشمل والدى . ولاحظت أنها كانت تضغط على مقاطع اسمى بنفس طريقة والدها فى التركيز على الألفاظ التى يريد أن يدل على أن لها قيمة خاصة ومعنى خاصاً ، فكأنها كانت تنزع عن اسمى قشوره الخارجية كما يقشر المرء فاكهة يهم بوضع لبابها الداخلى فى فمه ليلوكه ، بينما كانت نظرتها تعبر عن هذه الصلة الحميمة الجديدة وهى ترمقنى باسمة فى لذة تكاد تصل إلى حد العرفان .

ولكنى فى تلك اللحظة لم أكن كفئاً لتقدير قيمة هذه اللذات الجديدة . فلم تكن مانحتها الفتاة الصغيرة التى كنت أحبها وكانت تمنحها لى أنا الذى أحبها ، بل مانحتها تلك الفتاة الأخرى ، تلك التى كان من عادتى أن ألعب معها ، وهى تمنحها لذاتى الأخرى ، التى ليست لها ذكرى جيلبرت الحقيقية ولا القلب الوحيد الذى كان يمكنه أن يعرف قيمة السعادة التى كان يصبو إليها وحدها . بل إننى بعد عودتى إلى البيت لم أتذوق هذه اللذات ، لأنى كنت مشغول الخاطر كل يوم يأتى فى الغد سأصل إلى التملى الهادئ الواضح لجيلبرت وأنها فى النهاية ستعترف بحبها لى ، وتشرح لى الأسباب التى اضطرتها لكتمانه حتى ذلك الحين. وكانت هذه الضرورة نفسها تجبرنى على

أن أعد الماضى بلا قيمة ، وأن أنظر إلى الأمام فحسب ، وأفكر فى المزايا التى منحتنى إياها لا فى حد ذاتها، وكما لو كانت كافية بنفسها، بل على أنها درجات جديدة من السلم الذى يمكن أن أضع عليها قدمى بحيث أتقدم خطوة إلى الأمام ، وأصل أخيراً إلى السعادة التى لم أصادفها بعد .

وإذا كانت قد أظهرت لى فى بعض الأحيان هذه الدلالات على إعزازها لى ، فقد أزعجتنى أيضاً ، وأدخلت على نفسى الاضطراب بإظهار عدم سرورها برؤيتى ، وقد حدث هذا مراراً فى نفس الأيام التى كنت أعول فيها على تحقيق آمالى . وكنت متأكداً من قدوم جيلبرت إلى الشانزيليزيه ، وأحسست حبوراً بدا لى أنه إرهاص بسعادة عظيمة ، ولما دخلت حجرة الجلوس فى الصباح لأقبل ماما التى كانت مرتدية ملابسها بالفعل للخروج ، وقد نسقت خصلات شعرها إلى أعلى ، ويداها الجميلتان البضتان البيضاوان لم تزل يفوح منهما عبير الصابون، وعرفت من رؤية عمود من الغبار قائم بنفسه فى الهواء فوق البيانو ، ومن سماع أرغن متنقل يعزف تحت النافذة « عند العودة من العرض » ، أن الشتاء قد تلقى فى هذا النهار بطوله زيارة مشرقة غير متوقعة من يوم من أيام الربيع : وبينما نحن جلوس إلى مائدة الغداء ، فتحت السيدة القاطنة قبالتنا نافذتها فنفضت فى غمضة عين مساحة من ضوء الشمس افترشت حجرة الطعام بأسرها فكأن هذه الأشعة كانت مستجمة وراء نافذتها لتظهر فتبهجنا فى هذه اللحظة . وفى المدرسة، فى درس الساعة الواحدة جعلتنى الشمس

الساطعة نافد الصبر ضجراً حتى كدت أمرض وهى تصل بأشعتها الذهبية إلى حافة قمطرى ، وكأنها دعوة إلى مأدبة لا يمكننى شخصياً أن أصل إليها قبل الساعة الثالثة ، أى فى اللحظة التى تأتى فيها فرنسواز لتتلقانى عند بوابة المدرسة ونشق طريقنا معاً إلى الشانزيليزيه وسط شوارع تزينها أشعة الشمس ، وهى غاصة بالناس ، بل إن الشرفات أيضاً كانت تكاد تطير بها أشعة الشمس وتفصلها عن بيوتها فتطير أمامها كأنها سحب من الذهب . وفى الشانزيليزيه ـ واأسفاه ! ـ لم أجد جيلبرت . لم تصل بعد . ووقفت جامد الأوصال فوق المرج الذى تحتضنه الشمس التى طلت بالذهب عوداً من العشب هنا أو هناك ، وجعلت الحمائم التى تستقر على هذا المرج أشبه بالتماثيل القديمة ، وشخصت ببصرى إلى الأفق وأنا أنتظر فى كل لحظة ظهور جيلبرت تتبع مربيتها من وراء التمثال الذى يبدو وكأنه يهدهد الطفل الذى يحمله ، ويشع منه الضوء الذى باركته به الشمس .

وكانت قارئة « الديبا » العجوز جالسة فى مقعدها ، فى موضعها المعتاد ، وصاحت لأحد الحراس ، وهى تلوح له بإشارة ودية من يدها : يا له من جو بديع !

وأقبلت المحصلة لتتقاضى منها أجر المقعد ، فقامت بحركات معقدة كى تضع فى فتحة قفازها بطاقة السنتيمات العشرة وكأنها باقة من الزهر تبحث إكراماً لمقدمها إليها أقرب مكان لتملقه . ولما وجدته بدرت من عنقها حركة دائرية ، وشدت ظهرها ، ورشقت المحصلة — وهى تريها طرف الورقة الصفراء عند معصمها — بابتسامة جميلة

كالتى ترشق بها المرأة شاباً وهى تريه نحرها قائلة له : « ها أنت ترى أين وضعت ورودك ! » .

وأخذت فرنسواز فى الطريق الذى تأتى منه جيلبرت ، إلى أن بلغنا قوس النصر ، فلم نصادفها ، وعدت إلى المرج مقتنعاً بأنها لن تأتى اليوم ، وإذا بالفتاة الصغيرة ذات الصوت الثاقب تتهافت علىّ صائحة : أسرع ! أسرع ! لقد وصلت جيلبرت من ربع ساعة . وستنصرف سريعاً . وكنا ننتظرك كى نلعب !

واتضح أننى بينما كنت ماضياً فى شارع الشانزيليزيه ، كانت جيلبرت قادمة من شارع بواسى دنجلا Boissy d'Anglas ، لأن الآنسة مربيتها انتهزت جمـال الطقس لشراء بعض لوازمها ، وسيحضر المسيو سوان لأخذ ابنته بعد قليل . وكانت غلطتى أننى ما كان ينبغى أن أبتعد عن المرج ، لأنه ليس معروفاً عن يقين من أى جهة سيكون حضور جيلبرت ، وهل ستتأخر أم لا . وقد أفلح هذا التوتر المستمر فى جعل كل الشانزيليزيه وكل فترة ما بعد الظهر مثل امتداد هائل فى المكان والزمان يمكن أن تظهر فى أى نقطة منـه صورة جيلبرت . بل إن هذه الصورة نفسها لها مفاجئاتها ، فوراء مظهرها كنت أحس أن هنـاك السبب الخفى الذى لأجـله أصابت بسهمها فؤادى فى تمام الساعة الرابعة بدلا من منتصف الثالثة ، ولماذا جاءت لابسة قبعة أنيقة استعداداً للزيارات ، بدلا من ارتداء القلنسوة العادية للعب . وحدست إحدى تلك الشواغل التى لا يجوز لى أن أتبع فيها جيلبرت ، وهى شواغل قد تضطرها للخروج أو للبقاء

فى البيت . وجعلنى هذا التوتر ألمس لغز حياتها المجهولة لى . وكان هذا اللغز أيضاً هو الذى أقلقنى وأنا أجرى طوعاً لأمر الفتاة الثاقبة الصوت لأبدأ اللعب بدون إمهال . ورأيت جيلبرت السريعة غير المتكلفة معنا تنحنى انحناءة رسمية للسيـدة قارئة صحيفة الديبـا (التى ردت عليها هاتفة : « ما أجمل هذه الشمس ! لكأنما فيها نار محرقة ! ») وحدثتها جيلبرت بابتسامة حيية وتحفظ ذكرنى بجيلبرت الأخرى التى لابد أن تكونها فى البيت مع والديها أو مع أصدقائهما أو تقـوم بالزيارات ، وكل هذه الجوانب التى تغيب عن إدراكى من حياتها.

ولكن هذه الحياة لم يقدم لى أحد انطباعاً عنها أقوى مما قدمه لى المسيو سوان ، الذى حضر بعد قليل لأخذ ابنته . وكان ذلك لأنه هو ومدام سوان ـ بما أن ابنتهما تعيش معهمـا ، ولهـا دراساتهـا وتتوقف عليهما صداقاتها ـ فلهما كل السيطرة عليها . وبالتالى صار كل ما يتصل بهما موضع اهتمامى وانشغال بالى . وها هو اليوم المسيو سوان قد أتى إلى الشانزيليزيه (وهو الذى كثيراً ما كنت أراه من غير أن يثير فضولى عندما كان لم يزل على علاقة طيبة بوالدى) ليأخذ جيلبرت ، فزاد وجيب قلبى عندما رأيت قبعته الرمادية ، وكابه ذا البرنس ، وكأنى أرى شخصية تاريخية كنت أقرأ عنهـا عشرات الكتب ، وكانت أتفه تفصيلات حياته موضـع دراستى بكل حماسة . وبدت لى علاقاته بالكونت دى جارى (التى لم أكن قد علقت عليهـا أهميـة عندما نوقشت فى كبرياى) شيئاً رائعاً فى نظرى ، كأن لا أحـد سواه سبقت له معرفة ببيته أو لياليه ، فجعلتـه

هذه العلاقات يبدو مرتفعاً فوق مستوى الناس وعابرى السبيل من جميع الطبقات الذين يزحمون هذا الدرب من دروب الشانزيليزيه ، الذى راعنى تنازله بالقدوم إليه من غير أن يسبق ذلك إعداد خاص ورعاية خاصة ، ولم يفكر أحد من هؤلاء السابلة فى ذلك ، لأن تنكره كان شديداً :

ورد المسيو سوان بتهذيب على تحيات رفاق جيلبرت ، وعلى تحيتى أيضاً ، مع أنه لم يعد على علاقة طيبة بأسرتى ، ولكن من غير أن يبدو عليه أنه عرفنى . وقد ذكرنى هذا بأنه كان يرانى باستمرار فى كمبراى ، وهى ذكرى احتفظت بها ولكنى غضضت النظر عنها ، لأن سوان غدا منذ رأيت جيلبرت ثانية والدها قبل كل شىء ، وليس سوان كمبراى ؛ فالأفكار التى تتصل بمدلوله اليوم تختلف عن النسق الذى كان يضمها آنفاً ، ولم أعد أستخدم هذه الأفكار القديمة عندما أفكر فيه ، بعد أن صار شخصاً جديداً آخر . ومع هذا ربطته بخيط صناعى بضيفنا القديم . ولما كان لا قيمة الآن لشىء عدا ما يتصل بحبى ويمكن أن ينفعه ، لذا شعرت بخزى وندم لعدم استطاعتى محو تلك الذكريات القديمة من ذاكرتى وشد ما أخجلنى أن أتذكر ما كان فى السنين الخوالى من إرسالى إلى أمى وهى معه على مائدة العشاء كى تصعد إلى حجرتى وتقول لى طابت ليلتك بينما هى تشرب القهوة معه ومع والدى وجدى وجدتى فى الحديقة . وتمنيت ألا تكون جيلبرت عندما سلمت عليه قد ذكرت له اسمى .

وقال سوان لجيلبرت : إن لها أن تلعب شوطاً واحداً ، وإنه فى وسعه أن ينتظر ربع ساعة . وجلس مثل أى أحد آخر فوق كرسى حديدى ، ودفع ثمن بطاقة الكرسى بنفس هذه اليد التى كثيراً ما تصافح يد فيليب السابع ، بينما أخذنا نحن فى لعبتنا فوق المرج ، مبعثرين الحمائم فلاذت أجسامها القزحية الألوان بالحوض الحجرى الكبير ، أو بالتمثال الذى بدا وكأنها تتوجه ...

* * *

وفى أحد تلك الأيام المشمسة التى لم يتحقق فيها أملى ، لم أجد الشجاعة الكافية لكتمان خيبة أملى عن جيلبرت ، وقلت لها :

— كنت أنوى أن أوجه إليك أسئلة كثيرة . وكنت أحسب أن اليوم سيعنى الكثير فى صداقتنا ، ولكن ها أنت ما أن جئت حتى هممت بالانصراف ! حاولى أن تأتى مبكرة غداً كى يتسنى لى أن أتحدث إليك :

فأشرق وجهها وهى تطفر فرحاً وتجيبنى :

— غداً يا صديقى العزيز سوف لا آتى ! فأنا أولا مشغولة فى حفل غداء كبير ، وبعد الظهر سأذهب إلى بيت صديقة لى كى أشاهد من نوافذها وصول الملك تيودوسيوس Théodosius . أليس هذا رائعاً ؟ ثم فى اليوم التالى سأذهب لمشاهدة ميشيل ستروجوف Strogoff ، وبعد ذلك سيحل وشيكاً عيد الميلاد وعطلات رأس السنة ! وربما أخذانى معهما إلى الجنوب ، إلى الريفيرا . أليس ذلك « طريفاً » وإن كان يؤسفنى عدم مشاهدة

شجرة عيد الميلاد هنا . وعلى كل حال حتى لو بقيت فى باريس فسوف لا آتى هنا ، لأنى سأكون مشغولة بالزيارات مع ماما . وداعاً ... هذا أبى ينادينى .

وعدت إلى البيت مع فرنسواز مخترقاً شوارع لم تزل بهيجة بضياء الشمس ؛ ولكنى كنت لا أكاد أقوى على جر قدمى ، كحالى فى مساء يوم عطلة بعد انتهاء الزئاط والمرح . وقالت فرنسواز :

ــ ليس هذا غريباً . فليس هذا طقس هذا الفصل من السنة . إنه أشد دفئاً مما ينبغى . لابد أن يكون هناك كثيرون من المرضى فى كل مكان .

وكررت لنفسى وأنا أنشج بالبكاء كلمات جيلبرت التى أعربت بها عن حبورها لعدم عودتها إلى الحديقة لمدة طويلة . ولكن السحر الذى كان عقلى ــ بمجرد عملية التفكير ــ يمتلئ به متى فكرت فيها ، وفى الوضع الممتاز الفريد الذى أشغله ــ مهما كان مؤلماً ــ فى علاقتى بجيلبرت ، كان يضيف إلىّ دلائل عدم اكتراثها تلك شيئاً من الرومانسية . حتى أننى فى غمرة دموعى أجد شفتى ترتسم عليهما ابتسامة كانت فى الواقع مشروعاً حيياً لقبلة . وعندما كان يحين موعد ساعى البريد . فى تلك الأمسية وما بعدها من الأمسيات الأخرى ، كنت أقول لنفسى :

ــ سأحظى بخطاب من جيلبرت ، ولسوف تخبرنى أخيراً أنها لم تكف عن حبى ، وسوف تشرح لى السبب الخفى الذى أجبرها على كتمان حبها عنى حتى الآن ، وعلى التظاهر بقدرتها على السعادة

من غير أن ترانى ، وستقول لى : لماذا اتخذت صورة جيلبرت الأخرى ، التى إن هى إلا رفيقة لعب .

وفى كل مساء كنت أمارى نفسى بتخيل هذا الخطاب ، وأصدق أننى أطالعه فعلا ، وأحفظه عن ظهر قلب وأروح ألقى على نفسى عباراته تباعاً . وفجأة أتوقف مذعوراً وقد أدركت أننى ــ إن قدر لى أن أتلقى خطاباً من جيلبرت ــ فلا يمكن على كل حال أن يكون هذا الخطاب ، لأنى أنا الذى دبجته بنفسى من توى . ومنذ هذه اللحظة أناضل كى تظل أفكارى خلواً من الألفاظ التى كنت أتمنى أن تكتبها إلىّ ، خوفاً من أن اختيارى لهذه الألفاظ يستبعد تلك الألفاظ نفسها ــ وهى أحلى وأعز الألفاظ ــ من مجال الأحداث الممكنة . وحتى لو حدث المستحيل وكان ما تخيلته هو بعينه الخطاب الذى وجهته جيلبرت إلى من تلقاء نفسها ، فسوف أعرف فيه نص الخطاب الذى ابتدعته ولا أحس أنى تلقيت شيئاً غير صادر عن ذاتى ، شيئاً حقيقياً ، شيئاً جديداً ، وسعادة مستقلة عن ذهنى وإرادتى ، وهدية حب حقيقية .

وبينما أنا أعيد قراءة صفحة لم تكتبها جيلبرت إلىّ ، إلا أنها جاءتنى مع هذا منها . وهى صفحة بقلم بيرجوت عن جمال الأساطير القديمة التى استمد منها راسين وحيه وإلهامه ، وهى صفحة كنت أحتفظ بها دائماً ــ هى وكرية اليشب ــ فى متناول يدى . وكنت متأثراً برقة صديقتى حين أمدتنى بهذا الكتاب . ولما كان كل امرئ مضطراً إلى العثور على سبب [illegible] أن يجد



«فى كل مساء كنت أمارى نفسى بتخيل هذا الخطاب وأصدق أننى أطالعه فعلا ، وأحفظه عن ظهر قلب ..»

فى المخلوقة التى يحبها الصفات التى تعلم من القراءة والمحادثة أنها جديرة أن تستثير الحب ، فيستوعبها بالمحاكاة ويجعل منها أسباباً جديدة لحبه مع أن هذه الصفات قد تكون مناقضة تماماً للصفات التى تصبو إليها محبوبته — وعلى نحو ما سعى سوان قبل زمانى لإنشاء أساس جمالى لملاحة أوديت رحت أنا الذى أحببت جيلبرت أولا أيام كبرياى بسبب العنصر المجهول فى حياتها الذى كنت أتمنى بكل سرور أن أغوص فيه وأتحد به ، منحياً وجودى الخاص المستقل وكأنه شىء لم تعد له أهمية : وصرت الآن أعتقد أن جيلبرت يمكن أن تغدو يوماً ما الخادمة المتواضعة والشريكة المعاونة المريحة لشخصى هذا الضعيف ، التى تساعدنى فى المساء فى أعمالى وتجمع لى الكتب. أما بيرجوت — هذا الشيخ المفرط الحكمة وشبه المقدس الذى من أجله أحببت فى البداية جيلبرت قبل أن أراها — فأنا الآن من أجل جيلبرت بصفة خاصة صرت أحبه . وبمثل المتعة التى قرأت بها الصفحات التى كتبها عن راسين رحت أدرس الغلاف الورقى الذى لفت لى فيه جيلبرت كتابه وختمته بالشمع الأبيض وربطته بشريط وردى ، ولثمت الكرية البديعة التى اهدتنيها لأنها أثمن كنوز حبى ، لأنها كنز الإخلاص لا الترق . ولذا أبقى هذه الكنوز بقربى فى حجرتى وتشاركنى فراشى .

ولكن جمال هذا الحجر ، وجمال تلك الصفحات أيضاً من قلم بيرجوت الذى كنت سعيداً بأن أقرنه بفكرة حبى جيلبرت ، كأنما فى اللحظات التى بدا حبى فيها وكأنه لا [illegible] له إطلاقاً ، كان هذان

الجمالان يمنحانه التماسك ، فهما كانا سابقين على حبى الذى لا تشبه موادهما التى حكمتها موهبة المؤلف أو قوانين الجيولوجيا ، قبل أن تعرفنى جيلبرت . وما كان شىء فى الحجر أو فى الكتاب يمكن أن يتغير لوأن جيلبرت لم تحبنى ، ولذا لم يكن فيهما بالتالى ما يخول لى أن أقرأ فيهما رسالة سعادة . وفى حين كان حبى ينتظر بلا انقطاع الغد لعله يأتينى باعتراف من جيلبرت بحبى ، ولكن كل مساء كان ينكث نسيج الأمل الذى تكوّن فى الصباح وطول النهار ، إلا أن فى طوايا كيانى نساجة مجهولة لا تترك الخيوط المنتكثة حيث هى ، بل تلمها وتعيد ترتيبها ، من غير تفكير فى سرورى أو العمل لمصلحتى على نحو مختلف . وبدون اهتمام خاص بحبى لا تبدأ بتقدير أنى محبوب وتروح تضع تصرفات جيلبرت بعضها بجانب بعض ، تلك التصرفات التى بدت لى غير ذات معنى ، وأخطاءها التى كنت قد اغتفرتها . وعندئذ يلوح لها معنى . وكأنها تقول لى بهذا الترتيب الجديد : إننى عندما أرى جيلبرت ليست قادمة نحوى فى الشانزيليزيه بل ذاهبة إلى حفل أو لقضاء حوائج مع مربيتها ، وعندما أراها تستعد لغيبة طويلة تمتد إلى ما بعد عطلة رأس السنة ، فأنا مخطئ حين أظن أو أقول : إنها نزقة أو سهلة القياد . لأنها كانت خليقة ألا تكون هكذا لو كانت تحبنى ، ولو أجبرت على الطاعة لأطاعت وفى قلبها أسى وقنوط كاللذين أشعر بهما أنا فى الأيام التى أحرم فيها من رؤيتها . بل إن هذا الترتيب الجديد يدلنى أكثر من هذا على أننى ينبغى أن أعرف ما معنى الحب ، ما دمت أحب جيلبرت

ويلفت انتباهى إلى اللهفة المستمرة على حسن مظهرى أمامها ، وبسبب ذلك حاولت إقناع أمى أن تشترى لفرنسواز معطفاً واقياً من المطر وقبعة لها ريشة زرقاء ، أو أن تكف أمى على الأقل عن إرسال مرافقة معى إلى الشانزيليزيه يخجلنى أن يراها الناس معى . وكان جواب أمى عن هذا كله أنى لا أنصف فرنسواز فهى امرأة ممتازة مخلصة لنا جميعاً .

وكنت لانحصارى فى اللهفة على رؤية جيلبرت لا أفكر فى شىء — قبل الأوان بشهور — اللهم إلا فى كيف أكتشف تاريخ مغادرتها لباريس ، وإلى أين هى راحلة ، شاعراً أن أجمل أقطار الدنيا سوف تكون مجرد منفى إن لم تكن هى هناك ، ولم أتمنّ إلا أن أظل على الدوام فى باريس لكى يتسنى لى أن أراها فى الشانزيليزيه ؛ ولم أجد كبير عناء فى تبين أن لهفتى هذه لا يبررها شىء من تصرفات جيلبرت وسلوكها . فهى — على النقيض — كانت صادقة الولع بمربيتها ، من غير أن تشغل نفسها بما عسى أن يكون رأيى فيها . وكان يبدو لها طبيعياً جداً ألا تأتى إلى الشانزيليزيه إذا كان عليها أن تذهب إلى السوق والمتاجر مع الآنسة ، وتبتهج إذا كان ينبغى عليها أن تذهب إلى مكان ما فى صحبة أمها . وحتى بفرض أنها سمحت لى بقضاء عطلاتى فى نفس المكان الذى تقضى فيه هذه العطلات ، وكان لابد من اختيار هذا المكان ، كانت تراعى رغبات والديها وألوف المتع التى حدثاها عنها ، وليس معنى هذا إطلاقاً أن يكون هو المكان الذى يرمى والداى إرسالى إليه . وإذا قالت لى (وقد

حدث هذا أحياناً) أننى أروقها أقل مما يروقها أحد أصدقائها الآخرين ، وأقل مما كنت أنا أروقها فى اليوم السابق ، لأننى بخيبتى جعلت فريقها يخسر فى اللعب ، رحت أسألها الصفح وأرجوها أن تخبرنى ماذا أفعل لكى تعود إلى الرضا عنى وأروقها أكثر من الآخرين ، وأنا أتمنى أن تجيبنى بأن هذا هو وضعى حقاً . وأتوسل إليها كأنما كان بوسعها أن تغير عاطفتها من نحوى حسب اختيارها أو اختيارى . ألست إذن واعياً بشعورى وأنه لايتوقف على أفعالها ولا رغباتى ؟

أجل إن هذه النساجة الخفية فى كيانى دلتنى ترتيباتها المتجددة أننا إذا اكتشفنا أننا نتمنى أن يتبين لنا أن أفعال الشخص الذى يشغل بالنا ليست مخلصة ، أضفت فى أثرها ضوءاً لا تقوى آمالنا على إخماده ، ضوءاً علينا أن نوجه إليه لا إلى آمالنا هذا السؤال : ماذا ستكون أفعال هذا الشخص غداً .

وأصغى حبى لهذه التوجيهات وأقنعته أن شعور جيلبرت من نحوى لن يكون مختلفاً عن شعورها فى جميع الأيام الماضية ، وأن مشاعر جيلبرت نحوى صارت الآن قديمة العهد بحيث لا تقبل التغير ، وهى مشاعر عدم الاكتراث ، وأننى أنا الذى أحب وليست هى التى تحب فى إطار صداقتنا . وأجاب حبى قائلا :

ـ هذا صحيح . ليس هناك ما يمكن عمله فى هذه الصداقة ، فلن تتغير الآن .

وفى اليوم التالى مباشرة (مالم يكن على أن أنتظر عطلة أو عيد

أو يوم رأس السنة أو أى يوم ليس كسائر الأيام التى يتجدد فيها الزمان منحياً ميراث الماضى وتراث الأحزان) أتمنى أن أناشد جيلبرت أن تضع حداً لصداقتنا القديمة وتتعاون معى فى وضع أساس صداقة جديدة بيننا .

كنت أحتفظ دائماً بالقرب منى بخريطة لباريس ، وكنت أحسبها تضم كنزاً خفياً لمجرد أنى كنت أرى مرسوماً فيها الشارع الذى يقطنه مسيو ومدام سوان . ولكى أسر نفسى ، وبنوع من الولاء المتسم بالفروسية ، فى أى مناسبة أو بلا مناسبة على الإطلاق أروح أكرر اسم ذلك الشارع إلى أن يسألنى أبى (الذى ليس مثل أمى وجدتى فهو ليس مطلعاً على سر حبى) :

ـ ولكن لماذا تتكلم دائماً عن هذا الشارع ؟ إنه خال من أى شىء يثير الإعجاب . وهو شارع لا تروق سكناه إلا لأنه على مسيرة دقائق معدودات من الغابة . ولكن هناك عشرة شوارع أخرى تماثله فى هذه المزية .

وكنت أبذل كل جهدى لزج اسم سوان فى أحاديثى مع أبوى وفى ذهنى لم أكن بالطبع أكف عن الغمغمة به ، ولكنى كنت بحاجة أيضاً إلى أن أسمع جرسه العذب ، فأعزف على هذا الوتر الذى لم يكن أداؤه الصامت يكفينى . يضاف إلى هذا أن اسم سوان الذى كنت آلفه منذ زمن بعيد صار الآن اسم شىء جديد ، كما هو حال المصابين أحياناً بالحبسة فيما يتعلق بالألفاظ العادية . فهو دائماً حاضر فى ذهنى ، الذى لم يستطع مع هذا أن يتعوده . وكنت أحلله وأتهجاه

ويبدو له شكله وهو مخطوط أشبه بالمفاجأة . ومع ألفتى له فقد فى الوقت نفسه براءته . فاللذة التى كنت أستمدها من جرسه كنت أشعر أنها آثمة جداً ، وخيل إلىّ أن الآخرين لابد أن يقرأوا أفكارى ، فأغير مجرى الحديث بعيداً عن هذا الاتجاه ، وألجأ إلى موضوعات كانت لا تزال تقربنى من جيلبرت ، وأكرر على الدوام عين الألفاظ ، ولا جدوى من معرفتى أنها مجرد ألفاظ . ألفاظ أتفوه بها فى غيابها ولا يمكن أن تسمعها . ألفاظ ليست لها قيمة فى حد ذاتها ، لأنها تكرر سرد حقائق من غير أن تقدر على تغييرها . ذلك أنه لم يزل يبدو لى أننى بتحويل كل شىء فى اتجاه له علاقة بجيلبرت ، ربما استطعت أن أستخرج منها شيئاً يجلب لى السعادة . وقلت لأبوىّ مراراً إن جيلبرت شديدة التعلق بمربيتها ، كأنما هذه العبارة بتكرارها للمرة المائة يمكن أن تجعل جيلبرت تبرز فى الحجرة وتأتى لتعيش معنا إلى الأبد . وكنت قد تغنيت بمناقب السيدة التى تطالع صحيفة الديبا (وكنت قد لمحت لأبوىّ أنها لابد أن تكون على الأقل أرملة سفير ، إن لم تكن صاحبة سمو فعلا ، ورحت أسهب فى جمالها وبهائها ونبلها إلى أن ذكرت ذات يوم بناء على ما سمعته من جيلبرت أنها فيما يبدو تدعى مدام بلاتان Blatin ، فصاحت أمى ، بينما غمرت بدنى كله حمرة الخجل :

ـ أوه . الآن عرفت من التى تعنيها . الحذر الحذر ! كما يقول جدك . أهى إذن تلك التى تظنها رائعة جداً ؟ إنها بالعكس مروعة جداً ، وهكذا كانت دائماً . فهى أرملة محضر . ولا يمكن أن تتذكر ،

عندما كنت صغيراً ، كل العناء الذى كنت ألقاه لتجنبها فى دروس ألعابك الرياضية حيث كانت دائماً تحاول التحدث معى قائلة إنك « أجمل كثيراً من أن تكون غلاماً » وكانت لديها دائماً رغبة مرضية جنونية فى التعرف بالناس ، ولابد أنها مجنونة كما كنت أظنها دائماً ما دامت تعرف مدام سوان حقاً . لأنها حتى ولو كانت من منبت عامى إلا أنى لم أسمع قط شيئاً يشين خلقها . ومع هذا تفرض نفسها دائماً على الغرباء . إنها حقاً امرأة فظيعة وسوقية للغاية ، ثم إنها تخلق دائماً مواقف محرجة .

وأما فيما يتعلق بسوان ، فقد كنت لفرط محاولاتى التشبه به أقضى الوقت كله وأنا على المائدة فى سحب إصبعى على طول أنفى وحك عينى . ويصيح أبى :

ـ هذا الولد أبله ! تصرفاته تغدو مستحيلة .

وكان أحب ما أتمناه أن أغدو أصلع مثل سوان ، لأنه كان يبدو لى مخلوقاً خارقاً للمعتاد ، حتى أننى كنت أرى من المستحيل تصديق أن الذين أعرفهم وكثيراً ما رأوه وعرفوه أيضاً ، وأنه فى سياق النهار يمكن لأى واحد من الناس أن يصادفه فى الطريق ، وذات مرة أثناء سرد أمى كعادتها لنا كل مساء على العشاء أين كانت وماذا فعلت بعد الظهر ، قالت لنا :

ـ وعلى فكرة . خمنوا من قابلت فى محل تروا كارتييه 3 Quartiers فى قسم بيع المظلات . إنه سوان !

فكانت هذه العبارة كافية أن تنتج وسط صحراء سردها

زهرة شائقة محفوفة بالأسرار . وكم كان سروري أن أعلم أن سوان بعد ظهر هذا اليوم بالذات شق بكيانه الخارق للطبيعة زحام الناس العاديين ليشتري مظلة . فمن دون أحداث هذا اليوم كبيرها وصغيرها ، وكلها غير هامة أثار هذا الحدث وحده في نفسي هذه الذبذبات التي يحركها دائماً حبي لجيلبرت . وتذمر والدي من أنني لا أبدي اهتماماً بشيء ، لأني لم أحسن الإصغاء وهو يتحدث عن التطورات السياسية التي يمكن أن تعقب زيارة الملك تيودوسيوس الذي حل على فرنسا ضيفاً في ذلك الحين ، وقيل إنه أيضاً حليفها . ومع هذا كم كنت مهتماً بأن أعرف هل كان سوان لابساً كابه ذا البرنس . وسألت : وهل كلمته ياماما ؟

فأجابت أمي التي كانت تخشى دائماً فيما يبدو إن أدرك الناس أن علاقتنا بسوان ليست في منتهى الحرارة الودية أن يحاولوا إصلاح ذات البين أكثر مما تريد ، بسبب وجود مدام سوان التي لا تود معرفتها :

ــ طبعاً كلمته . وكان هو الذي أقبل نحوي وكلمني . لأني لم أكن رأيته .

ــ إذن أنتما لم تتشاحنا ؟

فرددت بسرعة وكأني ألقيت ظلال الشك على علاقتنا الودية المزعومة بسوان ، وكنت « أخطط للتقريب بين الطرفين » :

ــ تشاحنا ؟ ما الذي جعلك تظن هذا ؟

ــ لعله مستاء لأنكما لاتدعوانه للحضور ؟

ــ ليس المرء ملزماً بدعوة الجميع إلى بيته . وهل دعاني هو إطلاقاً إلى بيته ؟ ثم أنا لا أعرف زوجته :

ــ ولكنه كان يحضر لزيارتنا كثيراً في كمبراي .

ــ لاشك في هذا . فقد كان يذهب إلى كمبراي ، أما هنا في باريس فلديه أمور أخرى أفضل من زيارتنا تشغله ، وكذلك أنا . ولكني أؤكد لك أننا لم نكن نبدو قط كإنسانين متخاصمين . وقد اضطررنا للانتظار هناك بعض الوقت إلى أن أحضروا له لفافته .. وقد سأل عنك وقال لي إنك كنت تلعب مع ابنته .

وأدهشتني أمي بالكشف الخارق عن وجودي في ذهن سوان ، بل وأكثر من هذا عن وجودي في صورة تامة ومادية ، إذ اتضح لي عندئذ أنني حينما وقفت أمامه ارتجفت حباً في الشانزيليزيه كان يعرف اسمي ، ومن هي أمي ، واستطاع أن يقرن بصفتي رفيق ابنته في اللعب حقائق معينة تتعلق بجدي وارتباطاتهما ، والمكان الذي نعيش فيه ، وبعض تفصيلات حياتنا الماضية ، التي كنت أنا شخصياً أجهلها جميعاً . ولكن أمي لم يبد عليها أنها لاحظت أي شيء له جاذبية خاصة في ذلك القسم من محل تروا كاريتيه حيث تمثلت لسوان ــ لحظة لمحها ــ شخصاً محدداً له معه ذكريات مشتركة كافية تجبره على أن يقبل إليها .

ولم تجد ولا أبي فيما يبدو أي مناسبة الآن لذكر أسرة سوان ، أي جدي جيلبرت ، ولا لاستخدام نعت سمسار البورصة ، وهذا كله من الموضوعات التي كانت إثارتها عسرني للغاية . فخيلتي

قد عزلت وكرست فى مجتمع باريس أسرة بالذات ، كما أنها حددت وأبرزت فى كل أبنية باريس بيتاً بالذات ، على مدخله نقشت مخيلتى نقوشاً ، وجعلت نوافذه مزخرفة . ولكن عينى وحدها هى القادرة على رؤية هذه الزخارف . أما أبى وأمى فكانا ينظران إلى البيت الذى يعيش فيه سوان على أنه يشبه جداً البيوت الأخرى المشيدة فى نفس الفترة الزمنية بالقرب من الغابة . لذا كانت أسرة سوان تبدو لهما من نفس فئة أسر أخرى كثيرة من السماسرة . وكان حكمها يتفاوت تحبيذاً أو استنكاراً على حسب مدى مشاركة الأسرة المعنية بالفضائل والمزايا المشتركة مع سائر العالم ، ولم يكن من رأيهما أن لها صفات يمكن أن تسمى متفردة : وما يقدرانه فى آل سوان كانا يجدانه أيضاً فى غيرها ، وهكذا بعد أن يقرا بأن بيت سوان فى موقع حسن ، يستطردان إلى الحديث عن بيت آخر فى موقع أفضل منه ، ولكن لاعلاقة له بجيلبرت ، أو عن رجال المال الآخرين الأوسع نفوذاً من جدها : وإذا بدا أنهما فى لحظة ما يتفقان معى فى الرأى ، فهذه غلطة سرعان ما يصححانها ! فلكى يميز المرء فى كل ما يحيط بجيلبرت خاصة غير محددة (تماثل فى درجات الألوان ما دون الأحمر) لابد من حاسة إدراك زودنى بها الحب فى الوقت الحاضر ، ولكن أبوىّ يفتقران إليها .

وفى الأيام التى كانت جيلبرت قد أنذرتنى بأنها سوف لا تأتى إلى الشانزيليزيه ، كنت أحاول أن أنسق سيرى بحيث قد يتسنى لى أن أتصل بها ، فكنت أحياناً أقود فرنسواز فى رحلة حج إلى البيت

الذى كان يعيش فيه آل سوان ، وأجعلها تكرر على مسامعى بلا ملل كل ما كانت قد عرفته عن مربية جيلبرت فيما يتعلق بمدام سوان .

ـ يبدو أنها تؤمن كثيراً بالأيقونات والبشائر والنذر ، فلا يمكن أن تفكر فى رحلة إن كانت قد سمعت بومة تنعب .. أو إذا رأت قطة فى منتصف الليل ، أو إذا صدر عن الأثاث صرير . أوه ! إنها سيدة شديدة التدين بكل تأكيد !

وكنت أحب جيلبرت بجنون إلى حد أننى إذا لمحت كبير خدمهم المسن سائراً بكلبهم ليرتاض ، أصاب من شدة الجيشان بالذهول وأقف أحملق فى شعره الأبيض بعينين يموج فيهما دمع الانفعال الجنون ، وتنبهنى فرنسواز قائلة : ماذا بك ؟

ونواصل سيرنا إلى أن نصل إلى بوابتهم ، حيث أرى بواباً يختلف عن كل بواب آخر فى الدنيا كلها ، مشبعاً حتى أهون تفاصيل كسوته الرسمية بنفس السحر الحزين الذى أشعر أنه كامن فى اسم جيلبرت . وكان ينظر نحوى وكأنه كان يعلم أننى واحد ممن لا وزن لهم وسوف يمنعهم دائماً من الدخول إلى محراب الحياة الداخلية الذى نيطت به حراسته ، والذى أرى نوافذ طابقه الأرضى مغلقة على الدوام أخذاً بالأحوط ، ولا يكاد يوجد شبه بين ستائرها المسدلة من الموسلين وبين أى نوافذ أخرى فى العالم . وفى أيام أخرى قد نمشى فى البولفارات وأقف مسمراً عند ناصية شارع ديفو Duphot فقد سمعت أن سوان كثيراً ما شوهد ماراً من هناك فى طريقه إلى عيادة طبيب الأسنان ، وكانت مخيلتى تفرق بين والد جيلبرت وسائر

البشر ، لذا كان ظهوره بين حشد من الناس يدخل عليهم عنصراً خارقاً للطبيعة ، بحيث أننى قبل أن يصل إلى كنيسة المادلين (المجدلية) أصاب برجفة انفعالية لمجرد التفكير فى أننى أقترب من الشارع الذى قد تتجلى لى منه فجأة رؤيا خارقة للطبيعة فى أى لحظة .

ولكن الأغلب فى الأيام التى سوف لا أرى فيها جيلبرت ، ولأننى كنت قد علمت أن مدام سوان كانت تمشى كل يوم تقريباً على طول ممر الدكسياء وحول البحيرة الكبيرة ، وفى ممر الملكة مرجريت ، لذا كنت أقود فرنسواز فى اتجاه غابة بولونيا التى كانت فى نظرى أشبه بحديقة حيوان يرى المرء فيها تجمعاً كبيراً من النباتات وتنوعاً كبيراً فى المناظر . ففيها ينتقل المرء من تل أو ربوة إلى مغارة ، وإلى مرج أو صخور أو جدول أو خندق ، أو رابيةأخرى . ولكن المرء يعرف أنها ليست إلا وسائط لتتيح كفرس البحر وحمار الوحش والتمساح والأرنب والدب والبلشون أن تمرح فى بيئتها الطبيعية الجميلة . فالغابة تجتمع فيها عدة عوالم صغيرة متميزة ومنفصلة . فهناك مساحة محاطة بالأشجار الحمراء والبلوط الأمريكى وكأنها غابة تجريبية فى فرجينيا . وإلى جوارها غابة تنوب على حافة البحيرة ، أو أيكة من غابة تبرز منها فجأة سائرة مسرعة فى أرديتها الأنيقة الرشيقة من الفراء لها عينان واسعتان جذابتان كأنهما عينا حيوان أعجم . وهذه هى جنة المرأة : أما ممر الأكسيا فشبيه بممر الآسى فى ملحمة الإنيد Aenied ، فقد غرست فيه أشجار من نوع واحد فقط ، وهو الممر الذى اشتهر بأن

أشهر حسناوات العصر يرتدنه . وعن بعد يتراءى الجرف النائئ الذى يطل على البركة التى يستخف الفرح الأطفال لمرآها ، لأنهم يعرفون أنهم سيرون فيها الفقمة . وقبل أن أصل إلى ممر الأكاسيا بمسافة كبيرة يترامى إلىّ عبيرها ويجعلنى أشعر بأننى أقترب من حفرة نباتية ذات شخصية خاصة تتسم بالقوة والرقة معاً . وحينما أقترب يجعل منظر أغصانها العليا وأوراقها المتناوحة فى رشاقة ودلال وبملمسها الرقيق الذى ترصعه مئات الأزهار ، بل ويجعل اسمها المغرى نفسه قلبى يخفق خفقاناً شديداً فى شوق اجتماعى ، أشبه برقصات الفالس التى تذكرنا فقط بأسماء الراقصات الحسان اللواتى ترتفع المناداة بها عند دخولهن قاعة الرقص . وكان قد قيل لى إنى سأرى فى هذا الممر بعض النساء الأنيقات الشهيرات اللواتى قد لا يكن جميعاً ذوات بعول ، إلا أنهن يذكرن دائماً كلما ذكرت مدام سوان ، ولكن لهن أسماء مهنية اتخذنها لأنفسهن وكأنها نوع من التنكر ، أو نقاب يسدلنه ، ولكن المتحدثين عنهن ينحونه كى يصير حديثهم عنهن مفهوماً .

ولما كنت أعتقد أن الجمال تحكمه قوانين خفية تعلمتها هذه السيدات وحذقنها حتى استطعن تحقيقها ، لذا كنت أتقبل قبل أن أراهن منظر ملابسهن وعرباتهن وجيادهن والتفصيلات الكثيرة التى أضع فيها ثقتى كما أضعها فى روح يضفى تماسك العمل الفنى على هذه البهارج الزائلة المتغيرة . ولكن مدام سوان هى التى كنت أصبو فى الحقيقة إلى رؤيتها ، وكنت أنتظر مرورها وأنا فى جيشان عاطفى شديد كأنها جيلبرت بنفسها ، [illegible] مثل كل شىء فى

بيئتها مشبعان بسحرها الخاص ، فيثيران فى نفسى عين العاطفة التى تثيرها هى . بل هى أشد إيلاماً وإتلافاً (لأن اتصالها بها كان من الجانب الحميم لحياتها وهو محجوب عنى) . وفضلا عن هذا لأنى سرعان ما علمت (كما سيتضح فيما بعد) أنهما كانا لايحبان لعبى معها . فهما يملكان سلطاناً وقدرة على الإيذاء بلا معقب . وهذا ما يجعل الإحساس بالتوقير مشوباً بالرهبة والخوف .

وكنت أجعل المكان الأول فى الجمال والعظمة الاجتماعية للبساطة وقد رأيت مدام سوان سائرة على قدميها فى ثوب من القماش غير المنقوش ، وعلى رأسها قلنسوة صغيرة مزينة بجناح دراج ، وعلى صدرها باقة بنفسج ، تحث الخطى فوق ممر الأكاسيا وكأنه ليس إلا أقصر طريق للعودة إلى بيتها ، وتردد الانحناءات التى يوجهها إليها ركاب العربات بنظرة سريعة . والحق أن السادة فى عرباتهم عندما كانوا يلمحونها من بعيد كانوا يرفعون قبعاتهم لها ويقول الواحد منهم للآخر إنه ليست هناك امرأة أرشق ولا آنق منها . ولكنى فى الحق كنت حرياً ألا أجعل المركز الأول للبساطة بل للتباهى ـ فقد اضطرت فرنسواز أن تجر قدميها ساعة كاملة ذات يوم بعد أن شكت لى أنها لم تعد قادرة على المشى ، إلى أن رأيت أخيراً مرور ملكة برزت لى أخيراً من باب الدوفين Porte Dauphine

وهى حقاً ملكة لم يستطع مظهر أى ملكة حقيقية بعد ذلك أن يبهرنى كما بهرنى موكبها ، فى عربتها التى يركض بها جوادان ناريان ضامران رشيقان كتلك الجياد التى نراها فى رسوم كونستانتين جى

Constantin Guys . وفوق الصندوق حوذى ضخم الجثة مكتس بالفراء كأنه قوزاق وبجانبه حاجب ضئيل الجسم جداً ... ورأيت عربة من طراز فيكتوريا لا نظير لجمالها ، مرتفعة البنيان وتوحى بحداثتها الشديدة ، وقد استرخت فى جلستها فى جوفها مدام سوان ، وقد صار شعرها الآن شاحباً تماماً وفيه خصلة واحدة رمادية ، وقد طوقته بجديلة ضيقة من الأزهار التى معظمها من البنفسج ، ومنها تتطاير سجف طويلة ، فى يدها مظلة لونها أرجوانى فاتح ، وعلى شفتيها ابتسامة غامضة قرأت فيها فقط أمارات التنازل الملكى ، مع أنها كانت فى الحقيقة ابتسامة إغراء من امرأة لعوب كانت تجود بها على الرجال الذين انحنوا لها .

إن هذه الابتسامة كانت تقول لأحدهم :

ـ آه . نعم . أنا أتذكر تماماً . فقد كان ذلك رائعاً حقاً !

ولآخر كانت تقول :

ـ كم كنت أتمنى ذلك ، ولكن الحظ لم يواتنا !

والثالث تقول :

ـ نعم . إن شئت ! ولكنى يجب الآن أن أمضى مع تيار المرور برهة ، وعند أول فرصة سأنفصل منه وأوافيك !

وعندما كان يمر بها غرباء ، لم تعرفهم من قبل كانت ترسم على شفتيها ابتسامة متراخية كأنها تتوقع أو تتذكر صديقاً ، فتجعلهم يقولون :

ـ يالها من امرأة فاتنة !



ومن كانوا لا يعرفونها كانوا يشعرون بشيء خارق للمعتاد يشع منها . .

ولبعض الرجال فحسب كانت تلقى بابتسامة صفراء متحفظة حيية باردة كأنها تقول :

– نعم أيها التيس المسن ! أنا أعلم أن لسانك كالحية ولا يستطيع السكوت لحظة ، ولكن أتحسبنى أبالى بما عساك تقول ؟

ومر كوكلان Coquelin وهو يتحدث وسط رهط من أصحابه الذين يصغون إليه، وبحركة واسعة من يده كان يلقى التحية بطريقة مسرحية إلى ركاب العربات . ولكنى لم أكن أفكر إلا فى مدام سوان . وتظاهرت بأننى لم أرها بعد، لأنى أعلم أنها متى وصلت إلى أرض صيد الحمام فسوف تطلب من حوذيها أن يكبح الخيل ويوقف العربة لكى تتسنى لها العودة سيراً على الأقدام :

وفى الأيام التى كنت أشعر بالشجاعة تواتينى للمرور بقربها ، كنت أجر فرنسواز ورائى فى ذلك الاتجاه : إلى أن رأيت مدام سوان تجرر وراءها ذيل ثوبها الطويل الأرجوانى الفاتح ، مرتدية ما يتخيل العامة أن الملكات يرتدينه من ثوب فاخر لا ترتدى مثله امرأة أخرى ، وتخفض عينيها بين آونة وأخرى لتتمعن فى مقبض مظلتها ، غير ملقية إلا أقل اهتمام إلى المارة كأنما الشيء الهام لديها ، والهدف الوحيد لوجودها هناك هو التريض، من غير أن تفكر فى أن الناس يرونها ، وأن كل رأس يستدير صوبها . ولكنها أحياناً عندما تنظر خلفها لتنادى كلبها قد تلقى نظرة خاطفة على ما حولها :

ومن كانوا لا يعرفونها كانوا يشعرون بشيء خارق للمعتاد يشع منها – أو لعله الإيحاء الخفى الذى يدفع الجمهور إلى حميا التصفيق

عندما تتجلى روعة بيرما — فيدركون أنها لابد أن تكون شخصية مشهورة .

ويسأل أحدهم الآخر : من هى ؟

أو قد يسأل عابر سبيل ، أو يكتفى بتسجيل منوال زينتها فى ذهنه ليستفهم عنها فيما بعد من صديق أكثر خبرة بالمجتمع فينبئه الخبر اليقين ، ووقف اثنان عن السير ودار بينهما هذا الحديث :

— أتدرى من هذه ؟ إنها مدام سوان ! ألا ينبئك هذا بشىء ؟ إنها أوديت دى كريسى !

— أوديت دى كريسى ؟ هذا ما خطر لى . هاتان العينان الواسعتان الحزينتان ... ولكنها طبعاً لم تعد حديثة السن كما كانت يوماً ما . أليس كذلك ؟ فأنا أتذكر أنى ضاجعتها يوم استقالة مكماهون Mac Mahon .

— لوكنت مكانك ما ذكرتها بذلك ، فهى الآن مدام سوان ، زوجة عضو فى الجوكى كلوب وصديق أمير ويلز (ولى عهد انجلترا) . ولكن بصرف النظر عن هذا كله ، فهى لم تزل رائعة !

— ولكن ليتك عرفتها فى ذلك الحين . كانت تحفة ! وكانت تسكن بيتاً صغيراً عجيباً ملأته بالتحف الصينية . وأذكر فى ذلك اليوم أن باعة الصحف أزعجونا بالنداء على استقالة الرئيس طول الوقت ، فجعلتنى فى النهاية أنهض من الفراش وأرتدى ثيابى وأنصرف .

ومن غير أن أصغى لهذه الذكريات كان بوسعى أن أحس حولها همس الشهرة الغامض . وطفر قلبى نافد الصبر وأنا أفكر أنه لابد

من انقضاء بضع ثوان قبل أن يتسنى لكل هؤلاء الناس — الذين ساءنى ألا يكون من بينهم صيرفى خلاسى بالذات كنت أشعر أنه يزدرينى ، أن يروا فتى حدثاً مغموراً لم يكونوا يولونه أى اهتمام (من غير أن يعرفوا هم ما أعتقده أنا من أن لى وضعاً خاصاً ، لأن أبوىّ يعرفان زوجها ولأنى رفيق لعب ابنتها) وهو يحيى هذه المرأة التى ذاعت شهرتها وطبقت الآفاق لجمالها وسوء سلوكها وأناقتها . ولكنى كنت الآن قريباً من مدام سوان ، فنزعت قبعتى بحركة مسرفة طويلة الأمد . فلم تتمالك نفسها من الابتسام . وضحك الناس من حولنا .

ولم تكن قد رأتنى قط مع جيلبرت ولا تعرف اسمى ، ولكنى كنت فى نظرها (شأنى شأن العاملين فى الغابة وشأن نوتى الزورق ، أو البط الذى فى البحيرة الذى كانت تلقى إليه بفتات الخبز) من الشخصيات الهينة المألوفة التى لا اسم لها ، ومجرداً من الشخصية المتميزة مثل أى عامل بين كواليس المسرح المعد لمسيرتها اليومية .

وفى الأيام التى كنت أفتقدها ولا أجدها فى ممر الأكاسيا ، قد يواتينى الحظ فأقابلها فى ممر الملكة مرجريت ، حيث تذهب النساء الراغبات فى العزلة ، أو الراغبات فى التظاهر بطلب العزلة . ولا تظل وحدها طويلا ، لأنها سرعان ما يلحق بها رجل ما ، غالباً ما يرتدى قبعة رمادية ولا أعرف من هو ، فيتحدث معها بعض الوقت ، بينما مركبتاهما تتبعانهما .

* * *

وقد أدركت مرة ثانية هذه

لغابة بولونيا الذى جعلها مكاناً صناعياً وجنة بالمعنى الأسطورى ، وأنا أجتازها فى طريقى إلى تريانون Trianon ذات صباح من باكورة شهر نوفمبر . وفى هذا الوقت إذا كان المرء فى باريس ولزم البيت فاته أن يشهد منظر تحول الخريف الذى يزحف بسرعة كبيرة نحو ختامه ، فنشعر عندئذ بالأسى لسقوط الأوراق الميتة ، وهو أسى قد يتحول إلى حمى وقد يؤرقنا طول الليل . وفى حجرتى ظلت هذه الأوراق المتساقطة مدى شهر كامل تلوح حائلة بينى وبين أى شىء أفكر فيه ، لفرط شوقى إلى رؤيتها ، فكأنها تلك النقط الداكنة التى تبدو وكأنها تتراقص أمام أعيننا أياً كان ما ننظر إليه ؛ وفى ذلك الصباح لم أسمع صوت سقوط المطر كالأيام الماضية ، ولمحت ابتسامة الجو الحسن على أركان ستائرى المسدلة ، وكأنها تفتر من شفتين مغلقتين معربة عن سعادتهما الخفية ، فخطر لى أنه سيتسنى لى أن أرى تلك الأوراق الصفراء ، والضوء يخترقها ، فى أبهة جمالها ؛ ولم أستطع منع نفسى من الذهاب لأرى الأشجار ، كعهدى وأنا طفل بالشوق إلى رؤية البحر عندما تعول الرياح فى مدفأتى ؛ ونهضت وغادرت البيت إلى تريانون ، مخترقاً غابة بولونيا .

وكان هذا هو الأوان الذى تبدو فيه الغابة متعددة الأشكال إلى أقصى حد ، ومقسمة على نحو مختلف . فحتى فى تلك المواضع الخالية من الشجر والأفق فيها مكشوف ، كانت تبدو بعض الأشجار هنا وهناك عن بعد ، إما بدون أوراق ، أو محتفظة بأوراق الصيف بلا اختلاف ، ورأيت صفاً مزدوجاً من أشجار الكستناء البرتقالية

وكأنها بداية لوحة لم يتمها الفنان ، فهى فى انتظار إضافة الأشكال البشرية فيما بعد .

وعلى مسافة أخرى ، فى مكان كانت كل أشجاره مزهوة بخضرتها ، كانت هناك شجرة واحدة قزمة ولكنها مستميتة فى المقاومة ، تعبث الريح بعرفتها الحمراء القبيحة . وفى مكان آخر رأيت بداية يقظة أوراق جديدة نابتة ، ونبتة كرمية ذات زهر أحمر ، كأنها الزعرور البرى الأحمر المزهر فى الشتاء . وهكذا بدت غابة بولونيا وقد تحولت مؤقتاً إلى جنة أو حديقة لتربية النباتات استعداداً لمهرجان للزهور . فبين الأشجار العادية كانت شتلات أنواع نادرة فى انتظار نقلها إلى مكان خاص ، وقد تبرجت بزينتها من الأوراق البديعة . وهذا هو الأوان الذى يبدو فيه لغابة بولونيا طابع مختلف تتنوع فيه العناصر التى تجمعها فى تكوين غريب .

وفى هذه الساعة من النهار فى ذلك الموسم كنت ترى الأشجار التى مازالت محتفظة بأوراقها وكأنما مستها يد سحرية فغيرتها حينما مستها أشعة الشمس التى كانت فى هذه الساعة المبكرة لم تزل مائلة ، نفس درجة ميلها بعد بضع ساعات مع أوائل الغسق ، حين تتوهج كالمصباح فتلقى على الأوراق وهجاً صناعياً دافئاً ، وتشعل الفروع العليا للشجرة التى تظل بقيتها بدون تغيير ، كأنها الشمعدان القاتم تحت قمته المتقدة ، وفى بقعة معينة يغدو الضوء صلباً كالجدار ، ويرسم على صفحة السماء أوراق شجر الكستناء : وفى مواضع أخرى يفصل الضوء بينها وبين السماء التى تمتد نحوها أصابعها المتموجة الذهبية .

وفى منتصف جذع شجرة تلتف بها الكرمة البرية جعلها الضياء تزهر كأنما هى باقة هائلة تزيغ حمرتها الأبصار . وهكذا تبينت أقسام الغابة الآن بعد أن كانت مبهمة فى لفائف الخضرة الشاملة الرتيبة فى الصيف . وكانت كل هذه الأقسام متمايزة وأمام كل منها تبرز مجموعة مفردة من الأوراق ذات اللون المتميز كأنها الراية . وهكذا استطعت وكأنى أنظر فى خريطة ملونة أن أتبين أرمينونفيل Armenonville ، وبرية كاتالان Pré Catalin ومدريد، وحلبة السباق وشاطئ البحيرة . وهنا وهناك يبرز نتوء لامعنى له، أو مغارة صناعية،أو طاحونة أفسحت لها الأشجار مكاناً أو برزت فوق مرج أخضر معشوشب .

أحسست أن الغابة لم تكن غابة حقاً . وأنها مجعولة لغرض آخر غير حياة أشجارها ،وكان إحساسى بالحبور راجعاً لا إلى الإعجاب بألوان الخريف فحسب ، بل إلى رغبة جسدية ، فهو منبع فرح يحسه القلب فى البداية من غير أن يشعر بمصدره ، من غير أن يدرك أنه ناجم عن دافع خارجى . ولذا رحت أحدق فى الأشجار بشوق ظامئ يتجاوزها ، وبدون أن أدرى اتجه شوقى إلى روعة النساء الجميلات اللواتى يخطرن بين الأشجار بضع ساعات كل يوم ، وسرت صوب ممر الأكاسيا ، واخترقت آجام الغابة التى يداعب الضياء فى ذلك الصباح أشجارها، ويزاوج بين جذوع مختلفة ويصنع من فروعها باقات. وقد يجتذب إليه شجرتين ويشق بأزميله السحرى نصف جذع كل منها ويجمع نصفى جذعين مختلفين بأفرعهما ليصنع

منهما ظلا واحداً :. أو كياناً واحداً مضيئاً تطوقه شبكة من الظلال الحالكة : وعندما كان شعاع الشمس يذهب الفروع العليا كانت تبدو وكأنها تقطر بالندى المتلألىء ، وقد برزت فى ذلك النطاق الزمردى الأخضر الذى غاصت فيه الأيكة كلها وكأنها فى أغوار البحر ، لأن الأشجار لم تزل حية بحيويتها الخاصة ، وعندما تتجرد تماماً من أوراقها كانت هذه الحيوية تشع من زغب المخمل الأخضر الذى يفترش جذوعها ، أو فى بياض كريات الهدال المتناثر على امتدادها حتى الفروع العليا لشجر الحور، وكأنها استدارات الشمس والقمر فى لوحة « الخلق » لميشيل أنجلو Michelanglo . ولكنها مع هذا كانت تستدعى إلى ذهنى صورة حورية الغاب التى يموج كيانها بحب الدنيا وهى تمضى مسرعة الخطى متألقة الألوان فى ظلال فروع الأشجار ... وذكرتنى أيضاً بالأيام السعيدة التى كنت فيها حديث السن وكلى ثقة ــ وأنا أحث الخطى لهفان إلى المواضع التى تتجسد فيها لحظات معدودات بدائع الأناقة الأنثوية تحت الأغصان المتناوحة التى لا تشعر بها .

ولكن الجمال الذى جعلتنى أشجار التنوب والأكاسيا فى غابة بولونيا أصبو إليه بنزوع أقوى مما تبعثه أشجار الكستناء والليلك فى تريانون الذى كنت ذاهباً لأراه ، لم يكن قائماً خارج نفسى فى بقايا حقبة تاريخية ، فى الأعمال الفنية ، وفى معبد صغير للحب تكدست عند بابه قرابين أوراق الخريف المموهة بالذهب، وبلغت شاطئ البحيرة ، وواصلت السير حتى أرض صيد الحمام ، وكانت صورة

الكمال التى فى داخلى مضفاة فى ذلك العهد الغابر على مستوى ارتفاع عربة من طراز فيكتوريا ، وعلى نحافة ورشاقة الجوادين الراكضين وكأنهمايطيران ،وعيناهما متقدتان كعينى جياد ديوميد Diomède . واستولت علىّ الآن الرغبة فى أن أرى كرة أخرى ما كنت أحببته ذات مرة ، وما أشبه هذه الرغبة فى اتقادها الآن بالرغبة التى كانت تدفعنى قبل ذلك بسنوات كثيرة للسير فى هذه الممرات ، وددت لو رأيت مرة أخرى أمام عينى اللحظة التى كان فيها حوذى مدام سوان الضخم الذى يرافقه حاجب ليس أكبر من قبضة يده ، وفى مثل طفولة صور القديس جورج ، وهو يحاول كبح الجوادين اللذين تصك سنابكهما الفولاذية الأرض بصوت كالهدير :

وأأسفاه ! لايوجد الآن شىء سوى السيارات التى يقود كلا منها سائق له شارب ضخم ، وبجواره حاجب عملاق . ووددت لو أن أرى أمام عينى جسدى ــ لكى يتسنى لى أن أعرف هل كانت تلك الأشياء ساحرة مثلما بدت الآن لعين ذاكرتى ــ تلك القبعات الصغيرة المنخفضة اليافوخ التى لاتبدو أكثر من أكاليل على جبين النساء ــ ولكن جميع القبعات الآن هائلة ، مغطاة بالفاكهة والأزهار وكافة أنواع الطيور . وبدلا من الثياب البديعة التى كانت مدام سوان تخطر فيها كالملكة ظهرت موضات جديدة إغريقية سكسونية أو على غرار الديركتوار ، مزخرفة بالأزهار كورق الحيطان . وعلى رؤوس السادة الذين كان من الممكن أن يصلحوا للسير مع مدام سوان فى ممر الملكة مرجريت ، لم أجد القبعات الرمادية الحريرية العالية ،

ولا أى طراز آخر من القبعات . فهم الآن يذرعون الغابة عاريى الرءوس :

ولما رأيت كل هذه العناصر الجديدة للمنظر ، لم تبق لى ثقة بأن فيها تماسكاً ووحدة وحياة . وراحوا يمرون أمامى فى تتابع متناثر اعتباطى خال منزا الحقيقة ، وقد خلت نفوسهم من أى جمال يمكن لعينى أن تحاول استخراجه منهم ــ كالأيام الخوالى ــ كى أكوّن منهم صورة فنية . فهم مجرد نساء لا إيمان لى بأناقتهن ، وبدت لى ثيابهن لا أهمية لها . ولكن عندما يتلاشى الإيمان بالحاضر ، ينبعث فينا (ليعوضه بإضفاء الحقيقة على شىء آخر) تعلق بالأشياء القديمة التى كان إيماننا بها شديد الحيوية ، كأنما الشرارة الإلهية كانت فى إيماننا ذاك وليست فى أنفسنا ، وكأنما عدم تصديقنا لما نراه الآن له سبب آخر عارض غير متوقع : هو موت الآلهة .

وصحت بنفسى :

ــ يا للفظاعة ! أيمكن أن يتصور أحد على الإطلاق أن هذه السيارات فى مثل أناقة العربات التى تجرها الجياد ! لابد أنى تقدمت فى السن وشخت . ولكنى على كل حال غير مهيأ لعالم تكبل فيه النساء أنفسهن بثياب ليست من القماش على الأقل ! فما جدوى الحضور إلى ظلال هذه الأشجار ما دام لم يعد هناك شىء كما كان آنفاً عما كانت هذه الأشجار تطوقه من البدائع ؟

يا للفظاعة ! إن عزائى أن أفكر فى النساء اللواتى عرفتهن ، أما اليوم فلم تعد هناك أناقة . وكيف يمكن أن يتسنى للناظرين إلى



هذه المخلوقات البشعة تحت قبعاتهن المغطاة بأحواض النبات أو أقفاص الطيور أن يحسوا النشوة التي يوحي بها النظر إلى مدام سوان وليس على رأسها إلا قبعة صغيرة لا تزينها إلا بزهرة واحدة منتصبة من أزهار السوسن ؟ وهل في وسعي أن أجعلهم يفهمون العاطفة التي كانت تساورني في صباح أيام الشتاء حين ألتقي بمدام سوان وهي سائرة على قدميها ، في معطف من فراء القضاعة ، وعلى رأسها بيريه بسيط تطل منه ريشتان من ريش طائر الحجلة ، ولكن تحف بها تلك الحرارة التي تشيع في شقتها ، متمثلة في باقة البنفسج المرشوقة في صدارها ، فازدهارها المنتعش الأزرق اللون يواجه السماء الرمادية ، ويواجه الهواء المثلوج والأشجار ذات الأغصان العارية من الأوراق ، بحيث لايبدو هذا الأوان من العام وهذا الجو الكالح إلا بمثابة إطار ، تعيش برغمه هذه الأزاهير النضرة في جو إنساني خالص ، هو جو هذه المرأة التي تحيط بها في الزهريات وأحواض صالونها ، بالقرب من النار المتقدة أمام الأريكة الحريرية هذه الأزهار التي تحدق من النافذة المغلقة في الثلج المتساقط ؟

بيد أنه ما كان ليكفيني أن تكون البزة والزينة كما كانت في تلك السنين الخوالي . فبسبب التماسك السائد بين الأقسام المختلفة للذكرى التي تحفظ ذاكرتنا التوازن فيما بينها في مجموعة متكاملة ليس مسموحاً لنا أن نغفل منها شيئاً ، أو نرفضه ، لذا كنت أتمنى لو استطعت أن أذهب لقضاء سائر هذا النهار لدى إحدى هاتيك النساء ، أمام فنجان من الشاي ، في شقة طليت جدرانها بألوان قاتمة ، مثل شقة مدام

سوان (كما كانت في السنة التي تلت سنة انتهاء القسم الأول من هذه الرواية) وحيث تشع النيران البرتقالية ، والتوهج الأحمر اللون ، واللهب الوردي والأبيض لأزهار الكريزنتم في غسق شهر نوفمبر ، في لحظات مماثلة لتلك التي (كما سنرى فيما بعد) لم أعرف فيها كيف اكتشف اللذات التي أشتهيها . أما الآن ، فهذه اللحظات ــ وإن هي لم تفض بي إلى شيء ــ ستبدو لي وكأنها تضم في حد ذاتها ما هو حسبي من السحر والفتنة . كم أتمنى أن أستعيدها على نحو ما أتذكرها تماماً . ولكن واأسفاه ! لم تعد هناك بعد إلا شقق من طراز لويس السادس عشر كلها بيضاء ، مزينة بأزهار الأرطنسية الزرقاء ، ثم إن الناس ما عادوا يرجعون إلى باريس إلا في موعد متأخر جداً . وكانت مدام سوان خليقة أن ترد على من قصر بالريف بأنها لن ترجع إلا في شهر فبراير ، بعد انقضاء موسم الكريزنتم ، لو أنني طلبت منها أن تعيد من أجلي إنشاء عناصر هذه الذكرى التي أحس أنها مرتبطة بسنة غابرة ، فعناصر هذه الرغبة صارت لا تنال ولا سبيل إليها مثل اللذة التي كانت هذه الرغبة تسعى وراءها عبثاً ، أجل كان ينبغي أيضاً أن تكون النساء هن هاتيك النسوة أنفسهن اللواتي كانت زينتهن تثير اهتمامي لأن مخيلتي كانت قد أفردتهن وأحاطتهن بأسطورة

واأسفاه ! لقد أبصرت في ممر الأكاسيا ــ ممر الآس ــ عدداً منهن ، عجائز ، ولسن سوى الظلال الفظيعة لمن كن في الماضي ، ورأيتهن يتجولن باحثات باستماتة عن شيء لا أدري ما هو في هذه الأيكات الغير جيلية : ثم لذن بالفرار ، فرحت أسائل عبثاً عن

ضالتى تلك الدروب المقفرة المهجورة . وكانت الشمس متوارية . واستأنفت الطبيعة سلطانها على الغابة التى طارت عنها تصوراتى بأنها جنة المرأة . وفوق الطاحونة الزخرفية كانت السماء الحقيقية رمادية اللون، والريح تغضن سطح البحيرة الكبرى بأمواج صغيرة، والطيور الضخمة تحوم فى سماء الغابة بسرعة كأنها غابة فعلا وتصدر عنها صيحات حادة متتابعة فوق أشجار البلوط الشامخة التى تعلن بهيبتها وجلالها عن الخواء اللاإنسانى للغابة الموحشة ، وأعاننى هذا على فهم ما فى البحث فى الواقع عن لوحات الذاكرة من تناقض، لأنه تنقصها دائماً الفتنة والسحر النابعان من الذكرى ذاتها ، وأن الحواس لاتستقبلها . إن الواقع الذى كنت أعرفه لم يكن له وجود : لقد كان يكفى ألا تصل مدام سوان كالعهد بها فى نفس اللحظة كى يصير الممر شيئاً آخر . فالأماكن التى عرفناها لا تنتمى إلا إلى عالم المكان الذى نضعها فيه على سبيل التيسير : فهى لم تكن إلا شريحة صغيرة وسط انطباعات متجاورة كانت تكوّن حياتنا عندئذ . فذكرى صورة معينة ليست إلا الأسف على لحظة معينة . والبيوت والطرقات والممرات المشجرة تروغ منها جميعاً ــ وا أسفاه ! ــ مثل السنين ...

* * *

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع ٤٣٧٩
الترقيم الدولى ٠٨٠٠٦ - ١٧٣ - ٩٧٧



مختارات كتابى
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارئ ..

فى الكتابين السابقين من غرام (سوان) - رقمى ٢٨ و ٢٩ - قدمت لك الأجزاء الأولى من رواية (غرام سوان) التى تتألف منها بداية ملحمة (مارسيل بروست) الخالدة (البحث عن الزمن المفقود) ، التى وصفها المفكر المصرى الكبير الدكتور زكى نجيب محمود بأنها من أعظم الكتب التى تفتق عنها الذهن البشرى فى القرن العشرين . واليوم أقدم لك فى هذه العجالة أهم شخصيات الرواية كالآتى :

★ (مارسيل) ، وهو راوى الأحداث ، عاطفى وشديد الحساسية ، متعلق بأمه تعلقًا كبيرًا ، ومولع بالكتب .

★ والد (مارسيل) ، وهو موظف حكومى ، صارم نحو ابنه !

★ والدة (مارسيل) وهى رقيقة ومتعاطفة مع ابنها ، أما نحو زوجها فهى خاضعة وشغوفة به .

★ (أوديت دى كريس) التى يطلق عليها فى مواضع أخرى من الرواية « السيدة ذات الرداء الوردى » و (مس ساكريبون) ، ومدام (شارل سوان) ، والكونتة (دى فور شفيل) ، وهى عاهرة ، ومريضة بالشذوذ أحيانًا ، وتغدو خليلة لبطل الرواية (سوان) ، ثم زوجة له بعد ذلك . وهى سوقية فى مشاعرها وأذواقها ، ومريضة بداء الكذب !

★ العم (أدولف) ، عم (مارسيل) - الراوى - وأحد عشاق أوديت !

★ العمة (ليونى) مالكة دار (كومبراى) ، وهى كسيحة تلازم حجرتها حيث تثرثر بأخبار جيرانها .

★ (الجد) ، صديق قديم لوالد (سوان) .

★ (لوجراندان) صديق لوالد (مارسيل) ، ومهنته مهندس ، لكنه ميال للآداب والفنون !

★ (فينتوى) : مدرس موسيقى متقدم فى السن ، وهو ملحن (السوناتا) التى تحظى بإعجاب (سوان) ، وتحرك مشاعره .

★ مدموازيل (فينتوى) : ابنته .

★ الكونت (دى فورشفيل) : أحد أفراد شلة الصالون ، وهو رجل سوقى وعدوانى ، (وبعد وفاة سوان ، يتزوج من أوديت)

والآن أتركك لتتابع أحداث الجزء الثالث من (غرام سوان)

حلمى مراد

قرش جنيه
٣ ..